

في ظلال القرآن

الجزء التاسع والعشرون

فهم
سيد قطب

الطبعة الأولى

طبع بإذن من دار الكتب والوثائق
مكتبة البائى الحبيب وشركاه

في ظلال القرآن

الجزء السابع والعشرون

بقلم

سيد قطب

الطبعة الأولى

طبع في دار النشر والكتاب في القاهرة
عيسى البابي الحلبي وشركاه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من سورة الناريات والطور والنجم والقمر والرحمن والواقعة والحديد

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا ٦٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا * فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا * فَالْمَمْسُوتِ أَمْرًا * إِنَّمَا نُوْعِدُونَ صَادِقٌ * وَإِنَّا الَّذِينَ لَوَاقِعُ .

« وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ * إِنَّا كُنَّا لَبِ قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ * يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَ أُنْكَ .

« قُلِيلٌ أُنْزِلَ أَصْوَنَ * الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرَةٍ سَاهُونَ * يَسْأَلُونَ : أَيَّانَ يَوْمُ الَّذِينَ ؟ * يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ ، هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ .

« إِنَّا الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُّحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَنْشَارِ هُمْ يَسْتَفْهِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلْزَّالِي وَالْمَعْرُومِ .

« وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟ * وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * قُورَبُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَخَلْقٌ مِّثْلُكُمْ تَنْطِقُونَ .

« هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْكَرِيمِ ؟ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا : سَلَامًا قَالَ : سَلَامٌ قَوْمٌ مُّسْكِرُونَ * فَوَالِقَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ، قَالَ : أَلَا تَأْكُلُونَ ؟ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ، قَالُوا : لَا تَحْزَنْ ، وَبَشِّرْهُ بِسَلَامٍ عَلِيمٍ .

فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهًا وَقَالَتْ : عَجُوزٌ عَقِيمٌ * قَالُوا : كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ ، إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ * قَالَ : فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ؟ * قَالُوا : إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ نُجْرَمِينَ * لِنُزِيلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ .

« فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ .

« وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * فَقَتُلَى بِرُكْنِهِ وَقَالَ : سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ .

« وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَدْرُونَ مِنْ شَيْءٍ * أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالْهَرَسِ .

« وَفِي نُوحٍ إِذْ قِيلَ لَهُمْ : تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ * فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ * فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ .

« وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ لَهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ .

« وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ، وَإِنَّا لَمُوسِمُونَ * وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ * وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ ، إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ * وَلَا تَجْمَعُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ، إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ .

« كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا : سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٌ * وَذَكَرْ فَإِنَّ اللَّهَ كَرِهَ أَنْ يَنْفَعَهُ الْمُؤْمِنِينَ .

« وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ .

« فَإِنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعِجِلُونَ * قَوْلِ لِلَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ » .

هذه السورة ذات جو خاص : فهي تبدأ بذكر قوى أربعة .. من أمر الله .. في لفظهم
الدلالة ، يوقع في الحس لأول وهلة أنه أمام أمور ذات سر . يقسم الله - تعالى - على أمر :
« والداريات ذروا ، فالحاملات وقرا ، فالجاريات يسرا ، فالقبات أمرا . إن مانوعدون لصادق .
وإن الدين لواقع » . .

والداريات . والحاملات . والجاريات . والقبات .. مدلولاتها ليست متعارفة ، وهي غامضة
تحتاج إلى السؤال والاستفسار ، كما أنها بذاتها تلقى في الحس ذلك الظل . ولعله هو المقصود الأول
منها في جو هذه السورة .

وما يكاد القسم الأول ينتهي حتى يعقبه قسم آخر بالسما : « والسما ذات الحيك » .. يقسم بها
الله تعالى . على أمر : « إنكم لفي قول مختلف » . . لا استقرار له ولا تساق فيه ، قائم على
التخربات والظنون ، لا على العلم واليقين . .

هذه السورة : بفتحها على هذا النحو ، ثم بسياقها كله ، تستهدف أمرا واضحا في سياقها
كله .. ربط القلب البشري بالسما ؛ وتعليقه بغيب الله للكون ؛ وتخليصه من أوهام الأرض ،
وإطلاقه من كل عائق يحول بينه وبين التجرد لمادة الله ، والانطلاق إليه جملة ، والقرار إليه
كلية ، استجابة لقوله في السورة : « قفروا إلى الله » .. وتحقيقا لإرادته في عباده : « وما خلقت
الجن والإنس إلا ليعبدون » ..

ولما كان الانشغال بالرزق وما يحبه القدر عنه هو أ كشف تلك المواقف وأشدّها قديعاً
في هذه السورة بإطلاق الحس من إساره ، وتطمين النفس من جهته ، وتعليق القلب بالسما في
شأنه ، لا بالأرض وأسبابها القريبة . وتكررت الإشارة إلى هذا الأمر في السورة في مواضع
متفرقة منها . إما مباشرة كقوله : « وفي السما رزقكم وما توعدون » .. « إن الله هو
الرازق ذو القوة المتين » .. وإما ترميضا كقوله يسور حال عباده للتقين مع اللال :
« وفي أموالهم حق للسائل والمحروم » .. ووصفه لجود إبراهيم وسخائه وهو يقرى ضيوفه

القاتل - أومن حسبهم ضيوفه من الملائكة - بسجل ممين ، يسارع به إليهم عقب وفودهم إليه ، ويجرد إلقاء السلام عليه ، وهو لم يعرفهم إلا منذ لحظة !
تخليص القلب من أوهاق الأرض ، وإطلاقه من إصار الرزق ، وتخليقه بالسما ، ترف أشواقه حولها ، ويتطلع إلى خالقها في علاه ، بلاعائق يحول بينه وبين الانطلاق ، ويعوقه عن الفرار إلى الله . هو محور السورة بكل موضوعاتها وقضاياها التي تطرقها . ومن ثم كان هذا الانتساح ، وكان ذلك الإيقاع الغامض في أولها ، وكان القسم ببدء السماء ، وكان تكرار الإشارة إلى السماء أيضا ..

وفي هذا كانت صورة للتقنين التي يرسمها في مطلع السورة: « إن التقين في جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل ما يهجعون . وبالأسجار هم يستفرون . وفي أموالهم حق للسائل والمحروم » .. فهي صورة التطلع إلى الله ، والتجرد له ، والقيام في عبادته بالليل ، والتوجه إليه في الأسفار . مع إرخاس المال ، والتخلص من منغطه ، وجعل نصيب السائل والمحروم حقا فيه .

وفي هذا كان التوجيه إلى آيات الله في الأرض وفي الأنفس مع تعليق القلوب بالسما في شأن الرزق ، لا بالأرض وما فيها من أسباب القرية : « وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم أفلا تبصرون . وفي السماء رزقكم وما توعدون » ..

وفي هذا كانت الإشارة إلى بناء الله للسماء على سعة ، وتمهيد للأرض في يسر ، وخلقها ما فيها من أزواج ، والتعقيب على هذا كله بالفرار إلى الله: « والسماء بنيناها بأيدينا وإنا لموسعون . والأرض فرشناها فنعم للهادون . ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون . ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين » ..

وفي هذا كان الإيقاع الأخير البارز في السورة ، عن إرادة الله سبحانه في خلق الجن والإنس ، ووظيفتهما الرئيسية الأولى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » ..

فهو إيقاع واحد مطرد . ذو نغمات متعددة . ولكنها كلها تؤلف ذلك الإيقاع ، وتطلق ذلك الحدا . الحدا بالقلب البشري إلى السماء !

وقد وردت إشارات سريعة إلى حلقة من قصة إبراهيم ولوط ، وقصة موسى ، وقصة عاد ،

وقصة نوح ، وقصة قوم نوح . وفي الإشارة إلى قصة إبراهيم تلك اللوحة عن السال ؛ كما أن فيها لغة عن النيب المكنون في تبشيره بسلام عليم ، ورزقه هو وامراته به على غير ماتوقع ولا انتظار . وفي بقية القصص إشارة إلى تصديق وعد الله الذي أقسم عليه في أول السورة : « إن ماتوعدون لصادق » . والذي أشار إليه في ختامها إنذارا للمشركين : « فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم فلا يستجابون » .. بعد ما ذكر أن أجيال المكذبين كانوا تواصلت على التكذيب : « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون . أتواصوا به ؟ بل هم قوم طاغون » ..

فالقصص في السورة — على هذا النحو — مرتبط بموضوعها الأصيل . وهو تجريد القلب لعبادة الله ، وتخليصه من جميع الموانع ، ووصله بالسواء بالإيمان أولا واليقين . ثم برفع الحواجز والشواغل دون الرفرة والانطلاق إلى ذلك الأفق الكريم .



« والذاريات ذروا ، فالحاملات وقرأ ، فالجاريات يسرا ، فالقسيات أمرا .. إن ماتوعدون لصادق ، وإن الدين لواقع » ..

هذه الإيقاعات القصيرة السريعة ، بتلك العبارات العاضدة الدلالة ، تلقى في الحس — كما تقدم إجماعا خاصا ، وتلقى ظلا معينا ، يعلق القلب بأمر ذي بال ، وشأن يستحق الانتباه . وقد احتاج غير واحد في المهد الأول أن يستفسر عن مدلول الذاريات ، والحاملات ، والجاريات ، والقسيات ..

قال ابن كثير في التفسير : قال شعبة ابن الحجاج ، عن سمالك ابن خالد ابن عرعة ، أنه سمع عليا — رضى الله عنه — وشعبة أيضا عن القاسم ابن أبي بزة ، عن أبي الطفيل ، أنه سمع عليا — رضى الله عنه — وثبت أيضا من غير وجه عن أمير المؤمنين على ابن أبي طالب — رضى الله عنه — أنه صعد منبر الكوفة فقال : لا تسألوني عن آية في كتاب الله تعالى ولا عن سنة عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلا أنبأكم بذلك . فقام ابن الكواء ، فقال : يا أمير المؤمنين ، مامعنى قوله تعالى : « والذاريات ذروا » ؟ قال على — رضى الله عنه — الريح . قال : « فالحاملات وقرأ » ؟ قال — رضى الله عنه — : السحاب . قال : « فالجاريات يسرا » ؟ قال — رضى الله عنه — : السفن . قال : « فالقسيات أمرا » ؟ قال — رضى الله عنه — : الملائكة .

وجاء صبيح ابن عمل التيمي إلى عمر ابن الخطاب - رضى الله عنه - فسأله عنها فأجابه بمثل ما روى عن علي ابن أبي طالب - كرم الله وجهه - وقد أحس عمر - رضى الله عنه - أنه يسأل عنها تمتاً وعناداً فما قبله ومنه من جملة الناس حتى تاب وحلف بالآيمان المظلة : ما يجد في نفسه مما كان يجد شيئاً .. وهذه الرواية تنبئ كذلك بأن غموض مدلولات هذه التسميات هو الذى جعل للثنتين يسترون وراءها ويسألون عنها !

وهكذا فسرهما ابن عباس وابن عمر - رضى الله عنهم - ومجاهد وسعيد ابن جبير والحسن وقتادة والسدى وغير واحد ؛ ولم يحك ابن جرير وابن أبي حاتم غير ذلك (كما قال ابن كثير) . أقسم الله - سبحانه - بالرياح التى تندرو ماتندروه من غبار وحوب لقاح وسحب وغيرها بما يمل الإنسان وما يجهل . وبالسحاب الحاملات وقرا من الماء يسوقها الله به إلى حيث يشاء . وبالسفن الجارية فى يدر على سطح الماء بقدرته وبما أودع للماء وأودع السفن وأودع الكون كله من خصائص تسمح بهذا الجريان اليسير . ثم باللائكة للقبسات أمرا ، تحمل أوامر الله وتوزعها وفق مشيئته ، فتفصل فى الشؤون المختصة بها ، وتحسم الأمور فى السكون بحسبها . والريح والسحاب والسفن والملائكة خلق من خلق الله ، يتخذها أداة لقدرته ، وستارا لمشيئته ، ويتحقق عن طريقها قدر الله فى كونه وفى عبادته . وهو يقسم بها - سبحانه - للتظيم من شأنها ، وتوجيه القلوب إليها ، تدبر ما وراءها من دلالة ؛ ولرؤية بدها وهى تنشأ وتصرفها وتحقق بها قدر الله المرسوم . وذكرها على هذه الصورة بصفة خاصة بوجه القلب إلى أسرارها السكونية ؛ ويسلقه بمجمع هذه الخلائق من وراء ذكرها هذا الذكر للوحى .

ثم لعل لها كذلك صلة من ناحية أخرى بموضوع الرزق ، الذى يعنى سياق هذه السورة بتحرير القلب من أوهامه ، وإغفائه من ألقائه . فالرياح والسحب والسفن ظاهرة الصلة بالرزق ووسائله وأسبابه . أما الملائكة وتقسيمها للأمر ، فإن الرزق أحد هذه القسم . ومن ثم تتضح الصلة بين هذا الاقتراح وموضوع بارز تمالجه السورة فى مواضع شتى .

يقسم الله - سبحانه - بهذه الخلائق الأربع على : « إن ماتوعدون لصديق . وإن الدين لواقع » .. وقد وعد الله الناس : أنه مجازيهم بالإحسان إحسانا ، ومجازيهم بالسوء سوءا . وأنه إذا أمهلهم الحساب فى الأرض ، فليس يمهمل حسابهم فى الآخرة فالحساب لا يدمنه هناك ! « وإن الدين لواقع » .. فالوعد صادق حتى إمانها وإمانها . وما وعدم كذلك الرزق

وكفالاته لهم مبسوطة أو مقدرًا - وفق مشيئته - ووعده حق في هذا كما هو حق في كل شأن .
ولا بد أن يتحقق ما وعد الله به الناس في الصورة التي يريدنا ، وفي الوقت الذي يريده ،
وما يحتاج الأمر إلى قسم منه - سبحانه - إنما يقسم بخلافه تلك لتوجيه القلب إليها - كما تقدم -
وتدبر ما وراءها من إبداع وقدره وتدير يوحى للقلب بأن وعد الله - باريء هذه الخلائق
بهذا النظام وهذا التقدير - لا بد صادق ؟ وأن حسابه على الخير والشر والصالح والفساد لا بد
واقع . فإن طبيعة هذه الخلائق توحى بأن الأمر ليس عبثًا ولا مصادفة ولا جزافًا .. وهكذا
تصبح تلك الخلائق آيات وبراهين ذات دلالة إيجابية قوية بفضل هذا القسم الذي بلغت القلب
إليها لفتنا ، ويوجه الحس إليها توجيهًا . فهي طريقة من طرق الإيهام والتورية ، ومخاطبة الفطرة
بلغة الكون خطابًا مباشرًا !



والقسم الثاني كذلك ..

« والسما ذات الحبك ، إنكم لني قول مختلف ، يؤفك عنه من أفك » . .
يقسم بالسما للنسقة المحسنة التركيب . كتنسيق الزرد للمشابك للتداخل الحلقات . . وقد
تكون هذه إحدى هيئات السحب في السماء حين تكون موشاة كالزرد بمجسدة تجعد للسما
والرمل إذا ضربته الريح . وقد يكون هذا وضعا دائما لتركيب الأفلاك ومداراتها للتشابة
للتناسقة .

يقسم بالسما للنسقة المبوكة على أنهم في قول مختلف ، مضطرب لا قوام له ولا قرار ، ولا
ثبات له ولا استقرار ، يصرف عنه من صرف ويبقى عليه من بقاء ، فلا استقرار عليه ولا توافق
ولا ثبات . بل الحيرة دائمة والقلق لا يزال . وكذلك الباطل دائما أرض مرجحة مهتزة ؟ وتهي
لامام فيه ولا نور ؟ وهو يتأرجح ولا يقف إلى أصل ثابت ، ولا ميزان دقيق . ولا يجتمع
عليه أهله إلا لينصرفوا وينصرفوا بعد حين ؟ ويدب الخلاف بينهم والشقاق . .

ويتضح اضطرابهم واختلافهم ومما فيه من الأمر للريح : حين يمرض في ظل السماء ذات
الحبك للنسقة التركيب :

ثم يستطرد فيقرر أنهم يعيشون في أوهام وظنون في أمر الآخرة ، لا يستندون فيها إلى
حق أو يقين . فهم في قول مختلف في هذا الحق للبين . ثم يصور لهم ذلك اليوم في مشهدى
تملأه العيون :

« قتل الخراصون . الدين هم في غمرة ساهون . يسألون : أيا ن يوم الدين ؟ يوم هم على النار يفتنون . ذوقوا قنتكم ، هذا الذي كنتم به تستعجلون » ..
والخرم : الظن والتقدير الجزاف الذي لا يقوم على ميزان دقيق . والله - سبحانه - يدعوا عليهم بالقتل . فباللهول ! ودعوة الله عليهم بالقتل قضاء بالقتل ! « قتل الخراصون » ويزيد أمرهم وضوحا : « الدين هم في غمرة ساهون » فهم مغمورون بالأضاليل والأوهام لا يفقهون ولا يستطيعون . والتعبير يلقي ظلا خاصا ، يصور القوم مغمورين ساهين لا يشعرون بشيء مما حولهم ولا يتبينون . كأنهم سكارى منهولون !

ذلك أنهم لا يتبينون الأمر الواضح ، الذي يراه ويوقن به كل واع غير منهول ؟ فهم « يسألون : أيا ن يوم الدين » ؟ يسألون هكذا ، لاطلبا للعلم والمعرفة ، ولكن استنكاراً وتكديا ، واستمادا لهيئة ، يمر عنه لفظ « أيا ن » المقصود !
ومن ثم يماجلهم بمشهدهم في هذا اليوم الذي يستعدونه ويستكرونه ؟ وهم يحرقون بالنار كحرق للمدن تميز حقيقته : « يوم هم على النار يفتنون » ! ومعه التبكيت للؤلؤم في التوقف العصب : « ذوقوا قنتكم . هذا الذي كنتم به تستعجلون » ..
فهذه للمعالجة هي الجواب اللائق بهذا التساؤل . وهذا العنف في للشهد هو للقابل للذهول والسهوة التي يعيش فيها الخراصون . وهو مصداق دعوة الله عليهم بالقتل في أشد صورده وأعنفها : يوم هم على النار يفتنون !

وعلى الضفة الأخرى وفي الصفحة القابلة يرسم مشهد آخر ، لفريق آخر ، فريق مستيقن لا يخرم ؟ متى لا يتبجح ؟ مستيقظ يمد ويستغفر ، ولا يقضى المبر في غمرة وذهول :
« إن للتقين في جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك عسنيين . كانوا قليلا من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستفرون . وفي أموالهم حق للسائل والمحروم » ..
فهذا الفريق . فريق للتقين . الأيقاظ . الشديدي الحساسية برقابة الله لهم ، وراقبتهم هم لأنفسهم . هؤلاء « في جنات وعيون » .. « آخذين ما آتاهم ربهم » من فضله وإنعامه ، جزاء ما أسلفوا في الحياة الدنيا من عبادة لله كأنهم يرونه ، ويقين منهم بأنه يراهم : « إنهم كانوا قبل ذلك عسنيين » ..

ويصور إحسانهم صورة خاشعة . وفاقة حساسة :

« كانوا قليلا من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستفرون » ..

فهم الأيقاظ في جنح الليل والناس نيام ، المتوجهون إلى ربهم بالاستغفار والاسترحام
تلاطمون الكرى إلأقليا ، ولا يهجعون في ليهم إلا يسيرا . يأنسون برهم في جوف الليل ،
فتجافي جنوبهم عن المضاجع ، ويغف بهم التطلع فلا يتعلم للنام

قال الحسن البصري : « كانوا قليلا من الليل ما يهجعون » .. كابدوا قيام الليل ، فلا ينامون
من الليل إلا الله ، ونشطوا فلدوا إلى السحر ، حتى كان الاستغفار بسحر .

وقال قتادة : قال الأخنف ابن قيس : « كانوا قليلا من الليل ما يهجعون » .. كانوا لا ينامون
إلا قليلا . ثم يقول : لست من أهل هذه الآية !

وقال الحسن البصري : كان الأخنف ابن قيس يقول . عرضت عملي على عمل أهل الجنة ، فإذا
قوم قد باينوا بنا بعباد ، إذ نحن قوم لا نبليح أعمالهم . كانوا قليلا من الليل ما يهجعون . وعرضت
عملي على عمل أهل النار ، فإذا قوم لا خير فيهم ، مكذبون بكتاب الله ورسول الله مكذبون بالبعث
بعد الموت . فقد وجدت من خيرنا منزلة قوما خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا .

وقال عبد الرحمن ابن زيد ابن أسلم : قال رجل من بني تميم لأبي : يا أبا أسامة صفة
لا أجدها فينا . ذكر الله تعالى قوما فقال : « كانوا قليلا من الليل ما يهجعون » . ونحن والله
قليلا من الليل ما نقوم ! فقال له أبي - رضى الله عنه - : طوبى لمن رقد إذا نعى ، واتقى الله
إذا استيقظ .

فهي حال يتطلع إليها رجال من التابعين - ذوى للكاة في الإيمان واليقين - ويحذون
أنفسهم دونها . اختص بها ناس ممن اختارهم الله ، ووقفهم إلى القيام بحقتها . وكتبهم بها عنده
من الحسنين .

وهذه حالهم مع ربهم ، فأما حالهم مع الناس ، وحالهم مع المال ، فهو مما يليق بالحسنين :

« وفي أموالهم حق للسائل والمحروم » .

فهم يحملون نصيب السائل الذى يسأل فيعطى ، ونصيب المحروم الذى يسكت ويستحي
فيحرم . يحصلون نصيب هذا وهذا حقا مفروضا في أموالهم . وهم متطوعون بفض
هذا الحق غير المحدود .

وهذه الإشارة تتناسق مع علاج السورة لموضوع الرزق وللال ، لتخليص القلب من أوهام الشح وأعمال البخل وعوائق الانشغال بالرزق . وتمهد للقطع التالى فى السورة ، فى الوقت الذى تكمل سمة التيقن وصورة المحسنين .

« وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون ؟ وفى السماء رزقكم وما توعدون . فو رب السماء والأرض إنه لحق مثلما أنكم تنطقون » . .

وهى لفظة إلى آيات الله فى الأرض وفى الأنس ؛ وتوجيه إلى السماء فى شأن الرزق المكتوب والحظ المقدور . تختم بقسم عظيم . قسم الله - سبحانه - بذاته بوصفه : « رب السماء والأرض » اللتين ورد ذكرهما فى هذا القطع . على أن هذا القول الذى جاءهم من عنده حق يقين . .

« وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون ؟ » . . ؟

هذا الكوكب الذى نعيش عليه معرض هائل لآيات الله ومعجائب صنفته . معرض لمن يستجلى منه حق اللحظة إلا القليل من بدائمه . ونحن نكشف فى كل يوم جديداً منه ، ونطلع منه على جديد . . ومثل هذا المعرض معرض آخر مكنون فينا نحن .. النفس الإنسانية .. الخفية الأسرار ، التى تنطوى فيها أسرار هذا الوجود كله ، لأسرار الكوكب الأرضى وحده !

وإلى هذين المرضين الهائلين تشير الآيتان تلك الإشارة المختصرة ، التى تفتح هذين المرضين على مصاريمها لمن يريد أن يبصر ، ولمن يريد أن يستيقن ، ولمن يريد أن يعالج أحياته حتى تفيض بالثمة والسرور ، وبالعبارة الحية ، وبالرصيد القيم من المعرفة الحقة ، التى ترفع القلوب وتضاعف الأعمار !

والنصوص القرآنية معدة للعمل فى جميع الأوساط والبيئات والظروف والأحوال . قادرة على إعطاء رصيد معين لكل نفس ولكل عقل ولكل إدراك ، كل بقدر ما يتقبل منها وما يطبق . وكلما ارتقى الإنسان فى المعرفة ، واتسعت مداركه ، وزادت معلوماته ، وكثرت تجاربه ، واطلع على أسرار الكون وأسرار النفس .. ارتقى نصيبه ، وتضخم رصيده ، وتوسع زاده الذى يتلقاه من نصوص القرآن . . هذا الكتاب الذى « لا تتفد عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد » كما يقول عنه النبى الذى تلقاه واستوعب أسرارهِ ، وعاش بها . يقول : عن تجربة حية وجدها فى نفسه قبر عنها ذلك التمييز - صلوات الله وسلامه عليه -

ولقد وجد الذين سمعوا هذا القرآن أول مرة من آيات الله في الأرض وآياته في النفس ، نصيبهم ، وتسلموا رصيدهم ، وفق معارفهم وتجاربهم وإشراقات نفوسهم . ووجد كذلك كل جيل أتى بعدهم نصيبا يناسب ماقتض له من أنواع العلوم والمعارف والتجارب . ونجد نحن نصيبنا وفق ما اتسع لنا من رقة العلم والمعرفة والتجريب ، وما تكشف لنا من أسرار لا تتدف في هذا الكون الكبير . وستجد الأجيال بعدنا نصيبها مدخرا لها من الآيات التي لم تكشف لنا بعد في الأرض والنفس . ويبقى هذان للمرضان الإلهيان المائتان حافظين بكل عجب وجديد إلى آخر الزمان .

هذه الأرض . هذا الكوكب للمد للحياة ، المجهز لاستقبالها وحضاتها بكل خصائصه ، على نحو يكاد يكون فريدا في المعروف . لنا في محيط هذا الكون المائل ، الحافل بالنجوم الثوابت والكواكب السائرة . التي يبلغ عدد المعروف منها قطـ . وللغروف نسبة لا تكاد تذكر في حقيقة الكون - مئات الملايين من المجرات التي تحوى الواحدة منها مئات الملايين من النجوم . والكواكب هي توابع هذه النجوم !

ومع هذه الأعداد التي لا تحصى فإن الأرض تكاد تفرد باستمدادها لاستقبال هذا النوع من الحياة وحضاته . ولو اختلفت خصيصة واحدة من خصائص الأرض الكثيرة جدا لتمرد وجود هذا النوع من الحياة عليها . لو تغير حجمها صفرا أو كبرا . لو تغير وضعها من الشمس قربا أو بعدا . لو تغير حجم الشمس ودرجة حرارتها . لو تغير ميل الأرض على محورها هنا أو هنا . لو تغيرت حركتها حول نفسها أو حول الشمس سرعة أو بطأ . لو تغير حجم القمر - تابعها - أو بعده عنها . لو تغيرت نسبة الماء واليابس فيها زيادة أو نقصا . . . لو . . . إلى آلاف المواضع المعروفة والمجهولة التي تتحكم في صلاحيتها لاستقبال هذا النوع من الحياة وحضاته . أليست هذه آية أو آيات معروضة في هذا المرض الإلهي ؟

ثم . هذه الأقوات للذخيرة في الأرض للأحياء التي تسكنها . تسكن سطحها ، أو تسبح في أجوائها ، أو تتمخر مائها ، أو تختبئ في مغاورها وكهوفها ، أو تختفي في مساربها وأجوافها . . هذه الأقوات الجاهزة للركبة والبسيطة والقابلة للوجود في شتى الأشكال والأنواع لتلبي حاجة هذه الأحياء التي لا تحصى ، ولا تحصى أنواع غذائها أيضا . . هذه الأقوات الكائنة في جوفها ، والسارية في مجاريها ، والسابحة في هوائها ، والناطقة على سطحها ، والقادمة إليها من الشمس

ومن عوالم أخرى بعضها معروف وبعضها مجهول ، ولكنها تتدفق وفق تدبير المشيئة للدبرة التي خلقت هذا المحض لهذا النوع من الحياة ، وجهازه بكل مايلزم للأشكال الكثيرة التي لا تحصى . وتتنوع مشاهد هذه الأرض ومناظرها ، حيث امتد الطرف ، وحيثما تنقلت القدم . وعجائب هذه المشاهد التي لا تحصى : من وهاد وبطاح ، ووديان وجبال ؛ وبحار وبحيرات ، وأنهار وغدران . وقطع متجاورات ، وجنات من أعناب ، وزرع ، ونخيل صنوان وغير صنوان .. وكل مشهد من هذه المشاهد تتأوله يد الإبداع والتشجير الدائمة التي لا تفر عن الإبداع والتشجير . ويمر به الإنسان وهو محمل فلذا هو مشهد ، ويمر به وهو نمرع فلذا هو مشهد آخر . ويراه وهو نبت خضر فلذا هو مشهد ، ويراه إبان الحصاد حين يهيج ويسفر فلذا هو مشهد آخر . وهو هو لم ينتقل باعاً ولا ذراعاً في المكان !

والخلايق التي تتمر هذه الأرض من الأحياء . نباتاً وحيواناً . وطيراً وصمكاً ، وزواحف وحشرات .. به الإنسان فالقرآن يفرد به نص خاص .. هذه الخلايق التي لم يعرف عدد أنواعها وأجناسها بعد - فضلا على إحصاء أعدادها وأفرادها وهو مستحيل - وكل خليفة منها أمة وكل فرد منها عجيبة . كل حيوان . كل طائر . كل زاحفة . كل حشرة . كل دودة . كل نبتة : لا بل كل جناح في رقة ، وكل رقة في زهرة ، وكل قسبة في رقة ! في ذلك للمرض الإلهي العجيب الذي لا تقضى عجائبه .

ولومضى الإنسان - بل لومضى الأناسي جميعاً - يتأملون هكذا ويشيرون مجرد إشارة إلى ما في الأرض من عجائب ، وإلى ما تشير إليه هذه العجائب من آيات ، ما انتهى لهم قول ولا إشارة . والنص القرآني ما يزيد على أن يوقظ القلب البشري للتأمل والتدبر ، واستجلاء العجائب في هذا المرض المائل ، طوال الرحلة على هذا الكوكب ؛ ولتمة بما في هذا الاستجلاء من مسرة طوال الرحلة .

غير أنه لا يدرك هذه العجائب ، ولا يستمتع بالرحلة هذا اللذات ، إلا القلب العاقل باليقين . « وفي الأرض آيات للموقنين » . فلسفة اليقين هي التي تعي القلب فيرى ويدرك ؛ وتعني مشاهد الأرض فتطلق للقلب بأسرارها للكونية ، وتحديثها عما وراءها من تدبير وإبداع . وبدون هذه اللمسة تظل تلك المشاهد ميتة جامدة جوفاء ؛ لا تطلق للقلب بشيء ولا تجاوب .

معه بشيء . وكثيرون يعمرون بالمرض الإلهي للفتوح مفضى العيون والقلوب . لا يحسون فيه حياة ، ولا يفقهون له لغة ؛ لأن لمة اليقين لم تحى قلوبهم ، ولم تثبت الحياة فيها حولهم ؛ وقد يكون منهم علماء . « يملكون ظاهرا من الحياة الدنيا » . أما حقيقتها فنظل عجيوبة عن قلوبهم ، فالقلوب لا تشفع لحقيقة الوجود إلا بفتح الإيمان ، ولا تراها إلا بنور اليقين .. وصدق الله العظيم .

ثم العجبة الأخرى التى تدب على هذه الأرض :

« وفي أنفسكم ، أفلا تبصرون ؟ » ..

وهذا الخلق الإنسانى هو العجبة الكبرى فى هذه الأرض . ولكنه يغفل عن قيمته ، وعن أسرار الكامنة فى كيانه ، حين يغفل قلبه عن الإيمان وحين يحرم نعمة اليقين .

إنه عجيبة فى تكوينه الجسمانى : فى أسرار هذا الجسد . عجيبة فى تكوينه الروحى : فى أسرار هذه النفس . وهو عجيبة فى ظاهره وعجيبة فى باطنه . وهو يمثل عناصر هذا الكون وأسراره وخفائيه :

وتزعم أنك جرم صغير . وفيك انطوى العالم الأكبر

وحينما وقف الإنسان يتأمل عجائب نفسه التى بأسرار تدهش وتغير . تكوين أعضائه وتوزيعها . وظائفها وطريقة أدائها لهذه الوظائف . عملية الهضم والامتصاص . عملية التنفس والاحتراق . دورة الدم فى القلب والرواق . الجهاز العصبي وتركيبه وإدارته للجسم . العدد وإفرازها وعلاقتها بنمو الجسد ونشاطه وانتظامه . تناسق هذه الأجهزة كلها وتعاونها ، وتجاوبها الكامل الدقيق . وكل عجيبة من هذه تتطوى تحتها عجائب . وفى كل عضو وكل جزء من عضو خارقة تحير الأبواب .

وأسرار روحه وطاقتها المألومة والمجهولة .. إدراكه للمدركات وطريقة إدراكها وحفظها وتذكرها . هذه المعلومات والصور المخزنة . أين ؟ وكيف ؟ هذه الصور والرؤى والمشاهد كيف انطبعت ؟ وأين ؟ وكيف تستدعى فتجىء .. وذلك فى الجانب المعلوم من هذه القوى . فأما المجهول منها فهو أكبر وأكثر . تظهر آثاره بين الحين والحين فى لمسات وإشرافات تدل على ما وراء الظاهر من اللبيب المجهول .

ثم أسرار هذا الجنس فى توأله وتوارثه . خلية واحدة تحمل كل رصيد الجنس البشرى من الخصائص ؛ وتحمل معها خصائص الأبوين والأجداد القريبين . فأين تكن هذه الخصائص

في تلك الخلية الصغيرة ! وكيف تهتدى بذاتها إلى طريقها التاريخي الطويل ، فتمثله أدق تمثيل ، وتنتهي إلى إعادة هذا الكائن الإنساني العجيب ؟

وإن وقفة أمام اللحظة التي يبدأ فيها الجنين حياته على الأرض ، وهو يفصل عن أمه ويستمد على نفسه ، ويؤذن لقلبه وورثته بالحركة لبدا الحياة . إن وقفة أمام هذه اللحظة وأمام هذه الحركة لتدهش العقول وتغير الألباب ، وتتمر النفس بفيض من الدهش وفيض من الإيمان ، لا يقف له قلب ولا يتاسك له وجدان !

وإن وقفة أخرى أمام اللحظة التي يتحرك فيها لسان الوليد لينطق بهذه الحروف والمقاطع والكلمات ثم بالبيارات . بل أمام النطق ذاته . نطق هذا اللسان . وتصوت تلك الحنجرة . إنها عجيبة . عجيبة تفقد وقها لأنها تعربنا كثيرا . ولكن الوقوف أمامها لحظة في تدبر يحدد وقها . إنها خارقة . خارقة مذهلة تنبئ عن القدرة التي لا تكون إلا لله .

وكل جزئية في حياة هذا الخالق تفننا أمام خارقة من الخوارق ، لا يتقضى منها العجب ؟ « وفي أنفسكم . أفلا تبصرون ؟ » ..

وكل فرد من هذا الجنس عالم وحده . ومراة ينعكس من خلالها هذا الوجود كله في صورة خاصة لا تتكرر أبدا على مدار الدهور . ولا نظير له بين أبناء جنسه جميعا لافي شكله وملامحه . ولا في عقله ومداركه ، ولا في روحه ومشاعره . ولا في صورة الكون كاهي في حسه وتصوره . ففي هذا التحف الإلهي العجيب الذي يضم ملايين الملايين ، كل فرد نموذج خاص ، وطبعة فريدة لا تتكرر . يمر من خلالها الوجود كله في صورة كذلك لا تتكرر . كما لا توجد بصمة أصابع مائة بصمة أصابع أخرى في هذه الأرض في جميع الصور !

وكثير من عجائب الجنس البشري مكشوفة البصر ، تراه العيون : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟ » : وماتراه العيون من عجائبه يشير إلى اللبيب المكنون .

وهذه العجائب لا يحصرها كتاب . فالعلوم للكشف منها يحتاج تفصيله إلى مجلدات . والجهول منها ما يزال أكثر من العلوم ، والقرآن لا يحصيا ولا يحصرها . ولكنه يمس القلب هذه اللمسة ليستيقظ لهذا التحف الإلهي للعروض للأبصار والبصائر . ولتقضى رحلته على هذا الكوكب في ملاحظة وتدبر ، وفي متاع رفيع بتأمل هذا الخلق العجيب ، الكامن في ذات نفسه وهو عنه غافل مشغول .

وإنها للحظات ممتة حقا تلك التي يقضيها الإنسان يتأمل وجوه الخلق وسماتهم وحركاتهم وعاداتهم ، بين العابد السائح الذي يحول في متحف من إبداع أحسن الخالقين . فكيف بمن يقضى عمره كله في هذا اللذات الرفيع ؟

إن القرآن يمثل هذه المسألة يخلق الإنسان خلقا جديدا ، بحس جديد ؛ ويعتبه بحياة جديدة ، ويهبه متاعا لا نظير له في كل ما يتصوره في الأرض من متاع .

وعلى هذا النحو الرفيع من التأمل والإدراك يريد القرآن الناس . والإيمان هو الذي يمنح القلب البشري هذا الزاد ، وهو الذي يهيئ له هذا اللذات العلوى . وهو يبدى في الأرض في عالم الطين ! وبعد فقد كانت اللذة الأولى إلى مرضى الأرض ؛ وكانت اللذة الثانية إلى مرضى النفس . ثم تلتها في السورة لذة إلى مرضى القلب العلوى للطوى ، حيث الرزق القسوم والحظ للرسوم : « وفي السماء رزقكم وما توعدون » ..

وهي لذة عجيبة . فمع أن أسباب الرزق الظاهرة قائمة في الأرض ، حيث يكبد فيها الإنسان ويعهد ، ويبتظر من ورأها الرزق والنصيب . فإن القرآن رد بصر الإنسان ونفسه إلى السماء . إلى القلب . إلى الله . ليتطلع هناك إلى الرزق القسوم والحظ للرسوم . أما الأرض وما فيها من أسباب الرزق الظاهرة ، فهي آيات للموقنين . آيات ترد القلب إلى الله ليتطلع إلى الرزق من فضله ؟ ويتخلص من أهوال الأرض وأوهام الحرص ، والأسباب الظاهرة للرزق ، فلا يدعها تحول بينه وبين التطلع إلى المصدر الأول الذي أنشأ هذه الأسباب .

والقلب المؤمن يدرك هذه اللذة على حقيقتها ؛ ويضعها على وضعها ؛ ويعرف أن القصور بها ليس هو إهمال الأرض وأسبابها . فهو مكلف بالخلافة فيها وتمييزها . إنما القصور هو ألا يعلق نفسه بها ، ولا يفشل عن الله في عمارتها . ليعمل في الأرض وهو يتطلع إلى السماء . وليأخذ بالأسباب وهو يستيقن أنها ليست هي التي ترزقه ، وفرزه مقدر في السماء ، وما وعده الله لا بد أن يكون . بذلك ينطلق قلبه من إسمار الأسباب الظاهرة في الأرض ؛ بل يرف بأجنحة من هذه الأسباب إلى ملكوت السموات . حين يرى في الأسباب آيات تدله على خالق الأسباب . ويمشي موصولا قلبه بالسماء ، وقدماه ثابتان على الأرض . فكذلك يريد الله لهذا الإنسان . هكذا يريد الله لذلك المخلوق الذي جبله من الطين وفتح فيه من روحه فإذا هو مفضل على كثير من المالمين .

والإيمان هو الوسيلة لتحقيق ذلك الوضع الذي يكون فيه الإنسان في أفضل حالاته . لأنه

يكون حيثئذ في الحالة التي أنشأه الله لها . فطرة الله التي فطر الناس عليها . قبل أن يتناولها الفساد والأعراف ..

وبعد هذه اللغات الثلاث في الأرض والنفس والسماء . يقسم الله سبحانه بذاته العلية على صدق هذا الحديث كله :

« فو رب السماء والأرض إنه لحق مثلاً أنكم تنطقون » ..
وكونهم ينطقون ، حقيقة بين أيديهم ، لا يجادلون فيها ولا يجارون ، ولا يرتابون فيها ولا يغرصون . وكذلك هذا الحديث كله . والله أصدق القائلين .
وقد روى الأعمى نادرة ذكرها الزعزعي في الكشف ، ونسوقها نحن لطرافها -
في تحفظ من جانب الرواية ١ - قال :

« أقبلت من جامع البصرة ، فطلع أعرابي على قمود له . فقال : بمن الرجل ؟ قلت : من بني أصم . قال : من أين أقبلت ؟ قلت : من موضع يتلى فيه كلام الرحمان . فقال : اتل على . فتلوت : « والذاريات » .. فلما بلغت قوله تعالى : « وفي السماء رزقكم وما توعدون » قال : حسبك ١ قام إلى ناقته فحرها ووزعها على من أقبل وأدبر ؛ وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرها وولى ١ فلما حجت مع الرشيد طفت أطوف ؛ فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت دقيق . فالتفت ، فإذا أنا بالأعرابي قد نحل واصفر . فلم على واستقرأ السورة . فلما بلغت الآية صاح وقال : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، ثم قال : وهل غير هذا ؟ قرأت : « فو رب السماء والأرض إنه لحق » .. فصاح قال : يا سبحان الله . من الذي أغضب الجليل حتى حلف ؟ لم يصدقوه بقوله حتى ألجأوه إلى اليمين ! قلنا ثلاثاً وخرجت معها نفسه » ..

وهي نادرة تصح أولاً وتصح . ولكنها تذكرنا بجبال هذا القسم من الله سبحانه . القسم بذاته . بصفته : رب السماء والأرض . بما يزيد الحقيقة للقسم عليها جلالاً . وهي حقيقة بلا قسم ولا يمين .

* * *

ذلك كان القطاع الأول في السورة . أما القطاع الثاني فيشمل تلك الإشارات إلى قصص إبراهيم ، ولوط ، وموسى ، وعاد قوم هود ، ونبود قوم صالح ، وقوم نوح .. وهو مرتبط بما قبله ، ومرتبطة كذلك بما بعده في سياق السورة .

« هل أتاك حديث ضيف إبراهيم للمكرمين ؟ إذ دخلوا عليه ، فقالوا : سلاما . قال : سلام قوم منكرون . فراغ إلى أهله فجاء بسجل مبین . فقربه إليهم قال : ألا تأكلون ؟ فأوجس منهم خيفة . قالوا : لا نخف ، وبشروه بسلام عليهم . فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها ، وقالت : عجوز عقيم . قالوا : كذلك قال ربك ، إنه هو الحكيم العليم . قال : فما خطبكم أيها المرسلون ؟ قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ، لنرسل عليهم حجارة من طين . مسومة عند ربك للمسرفين . فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين . وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم » ..

إنها آية أو آيات في تاريخ الرسالات . كذلك الآيات التي أشار إليها في الأرض وفي الأنفس . وإنه وعد أو وعود تتحقق من تلك الوعود التي أشار إلى تحقيقها في القطع السابق .

ويبدأ الحديث عن إبراهيم بالسؤال: « هل أتاك حديث ضيف إبراهيم للمكرمين ؟ » ..
توهمها بهذا الحديث ، وتهمة للأذهان . مع وصف ضيف إبراهيم بالمكرمين ؟ إما لأنهم كذلك عند الله ؟ وإما إشارة إلى إكرام إبراهيم لهم كما ورد في القصة .

ويبدو كرم إبراهيم وسخاؤه وإرخاصه للمال والواضحة . فما يكاد ضيفه يدخلون عليه ويقولون : سلاما . ويرد عليهم السلام ، وهو ينكرهم ولا يعرفهم . ما يكاد يتلقى السلام ويرده حتى يذهب إلى أهله - أي زوجته - مسارعا ليبيء لهم الطعام . ويحيي به طعاما وفيرا يكفي عشرات : « فراغ إلى أهله فجاء بسجل مبین » .. وهم كانوا ثلاثة فيما يقال .. تكفيهم كنف من هذا الجبل السمين !

« قربه إليهم . قال : ألا تأكلون ؟ » .. وجاء هذا السؤال بعد أن رأى أيديهم لا تصل إليه ، ولا يبدو عليهم أنهم سيأكلون طعامه .

« فأوجس منهم خيفة » .. إما لأن الطارئ الذي لا يأكل طعام مضيفه نبي عن نية شر وخيانة . وإما لأنه لمح أن فهم شيئا غريبا عندئذ كشفوا له عن حقيقتهم ، أو طأنوه وبشروه : « قالوا : لا نخف . وبشروه بسلام عليهم » .. وهي البشارة بإسحاق من زوجة العقيم .

« فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها . وقالت : عجوز عقيم » .. وقد سمعت البشرية ، فبغت وفوجت ، فندت منها صيحة الدهش ، وعلت عادة النساء ضربت خديها بكفها . وقالت : عجوز عقيم . تنبي عن دهشتها لهذه البشرية وهي عجوز . وقد كانت من الأصل عقيم . وقد

أخذتها المفاجأة النيفة التي لم تكن تتوقعها أبداً ، فنسيت أن البشرى تحملها لللائكة عندئذ ردها للرسولون إلى الحقيقة الأولى . حقيقة القدرة التي لا يقيدتها شيء ، والتي تدبر كل أمر بحكمة وعلم :

« قالوا : كذلك قال ربك ، إنه هو الحكيم العليم » .

وكل شيء يكون إذا قيل له : كن . وقد قال الله . فإذا بعد قوله ؟ إن الألفة والمادة تقيدان الإدراك البشرى ، وتحدان من تصوراته . فيدهش إذ يرى ما يخالف المألوف له ؟ ويجب كيف يكون ؟ وقد يتبجح فينكر أن يكون ! وللشيئة المطلقة ماضية في طريقها لانتقيد بمألوف البشر الصغير المحدود ؛ تبجح ما تشاء ، بغير ما حدود أو قيود !

عند ذلك راح إبراهيم يسأل وقد عرف حقيقة ضيفه عن شأهم الذي أرسلوا فيه : « قال : فإخطبكم أيها الرسولون ؟ » . « قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين » .. هم قوم لوط . كما ورد في سور أخرى . « لنرسل عليهم حجارة من طين ، مسومة عند ربك للسرفين » .. وهذه الحجارة الطينية الملعة أو الممعة المجهزة عند الله للسرفين للتجاوزين الحق - وقوم لوط كانوا مسرفين في تجاوزهم للقطرة والحق والدين - لا يمتنع أن تكون حجارة بركان ثائري قدنف بالحجم الطيني من جوف الأرض . فهي « عند ربك » بهذا الاعتبار مسلطة - وفق إرادته ونوايسه - على من يريد من السرفين . مقدرة بزمانها ومكانها وفق علمه وتبديره القديم . وأن يتولى إرسالها في إطار إرادته ونوايسه حملاتكه . وهل ندري نحن حقيقة ملائكته ؟ وهل ندري حقيقة علاقتهم بهذا الكون ومن فيه وما فيه ؟ وهل ندري حقيقة القوى الكونية التي نسميها من عندنا أسماء بحسب ظواهرها التي تتكشف لنا بين الحين والحين ؟ وما لنا نترض على خبر الله لنا أنه سلط بعض هذه القوى في وقت ما ، لترسل بعض هذه القوى في صورة ما ، على قوم ماء في أرض ما ، ما لنا نترض على خبر الله لنا ، ونحن ما نزال كل ذخيرتنا من المعرفة فروض ونظريات وتأويلات لظواهر تلك القوى . أم حقيقتها فهي عنا ببعيد ؟ ! فلتكن حجارة بركانية أو لتكن حجارة أخرى فهذه كتلك في يد الله ، ومن صنعه ، وسرها غيب عنده يكشفه حين يشاء !

« فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين » .. لإنجائهم وحياتهم .. « فلما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين » : هم بيت النبي لوط . كما ورد في مواضع أخرى . فكانوا هم الناجين لإمراءته كانت من المهلكين .

« وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم » .. فالذين يخافون هم الذين يرون الآية ويدركونها ويتقنعون بها . أما الآخرون فطمسوا آيات الله . لافى الأرض ولا فى أنفسهم ولا فى أحداث التاريخ !

وآية أخرى فى قصة موسى ، يشير إليها إشارة سرية فى معرض الآيات فى تاريخ المرسلين : « وفى موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين . فتولى بركنه وقال : ساحر أو مجنون . فأخذناه وجنوده فبنيناهم فى اليم ، وهو مليم » .. والسلطان المبين الذى أرسل الله به موسى إلى فرعون ، هو الحجة القوية ، والبرهان القاطع ، وهو الهيبة الجليلة التى خلمها عليه . وهو معها يسمع ويرى . ولكن فرعون تولى بركنه ، وإزور بجانبه عن الحق الواضح والبرهان القاطع ؟ وقال عن موسى أني الذى كشف له عن آيات الله الخوارق : « ساحر أو مجنون » .. مما يقطع بأن الآيات والخوارق لا تهدي قلبا لم يتأهب للهدي ؟ ولا تقطع لسانا يصير على الباطل ويفترى .

ولا يطيل السباق هنا فى عرض تفاصيل القصة ؟ فيمضى إلى نهايتها التى تتجلى فيها الآية الباقية للذكورة فى التاريخ : « فأخذناه وجنوده فبنيناهم فى اليم وهو مليم » .. أى مستحقا للوم على ما كان منه من طغيان ومن تكذيب .

وواضح فى التعبير فعل الله للبشر فى أخذه هو وقومه ، وفى نبذهم فى اليم . وهو الإيقاع المقصود لإبراز آية الله فى موسى . فى معرض آياته فى الأرض والأنفس وتاريخ الرسالات والمرسلين .

وآية أخرى فى عاد :

« وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم . ماتن من شئ أنت عليه إلا جعلته كالرميم » . وسُميت الريح التى أرسلت على عاد عقيمًا لأنها لم تكن تحمل ماء ولا حياة كما توقعوا . إنما تحمل الموت والسمار . ويترك كل شئ تأتى عليه كاليت الذى رمّ وتحول إلى فئات ! والريح قوة من قوى هذا الكون . وجند من جند الله . وما يعلم جنود ربك إلا هو . يرسلها . فى إطار مشيئته وناموسه فى سورة ما من سورها ، فى الوقت المقدر ، على من يريد ، المهلك والسمار ، أو بالحيا والحياة . ولا مكان فى مثل هذه الواضع للاعتراض السطحي الساذج ،

بالقول بأن الريح تجري وفق نظام كوني ، وتهب هنا أو هناك تبعا لموامل طبيعية . فالذي يحريها وفق ذلك النظام وتبع هذه الموامل هو الذي يسلطها على من يشاء عندما يشاء وفق تقديره وتديره . وهو قادر على أن يسلطها كما يريد في إطار النظام الذي قدره والموامل التي جعلها . ولا مخالفة ولا شبهة ولا اعتراض !

وآية ثالثة في نمود :

« وفي نمود إذ قيل لهم : تمتعوا حتى حين . فتعوا عن أمر ربهم ، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون . لما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين » ..
والإشارة في قوله : « إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين » .. قد تعنى إسهالهم ثلاثة أيام بعد قتل الناقة . وهو ماورد في الآية : « قيل : تمتعوا في دياركم ثلاثة أيام » . وقد تعنى ما قدر لهم من اللتاع منذ الرسالة إلى أن قتلوا الناقة ، وعتوا عن أمر ربهم ، فحق عليهم الهلاك .
وما يقال في الحجة التي أرسلت على قوم لوط ، وفي الريح التي أرسلت على عاد ، يقال في الصاعقة التي أرسلت على نمود . فكلها قوى كونية مدبرة بأمر الله ، مسخرة بمشيئته وبنواميسه . يسلطها على من يشاء في إطار تلك النواميس . فتؤدي دورها الذي يكلفها الله . كأى جند من جند الله .

وآية رابعة في قوم نوح :

« وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين » ..
وهى إشارة سريعة تلخص القصة لمتة واحدة بدون إيضاح . كأنما يقال : واذا كركوم نوح : وقد وردت « قوم » منصوبة وبدون لفظ « في » بتقدير كلمة « اذكر » قبلها . وتلها « والسما بنيناها .. » معطوفة عليها .. وهذه آية كونية ، وتلك آية تاريخية . يربطها السياق ، ويربط بها هذا القطع بالقطع الثالث في السورة ..

« والسما بنيناها بأيد ، وإنا لموسمون ، والأرض فرشناها فتمع الماهدون ، ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون . ففروا إلى الله ، إنى لكم منه نذير مبين . ولا تعجلوا مع الله إلها آخر ، إنى لكم منه نذير مبين » ..

إنها عودة إلى المعرض الكوني الذي افتحت به السورة ، في صورة من صور الكثرة التي يجاها القرآن للقلوب . واستطرد في الإشارة إلى آيات الله هنا وهناك ، يصل آية نوح بآية السماء وآية الأرض وآية الخلائق . ثم يخلص به إلى ذلك الحثاف بالبشر ليفروا إلى الله موحدن متجردين .

« والساء بناها بأيد وإنا لموسعون » . .

والأيد : القوة . والقوة أوضح ما ينبي عنه بناء السماء الهائل المتماك للتناسق . بأيد مدلول من مدلولات كلمة السماء . سواء كانت تعني مدارات النجوم والكواكب . أم تعني مجموعة من المجموعات النجمية التي يطلق عليها اسم المجرة وتحوي مئات الملايين من النجوم . أم تعني طبقة من طبقات هذا الفضاء الذي تنتثر فيه النجوم والكواكب . . أم غير هذا من مدلولات كلمة السماء . والسعة كذلك ظاهرة فهذه النجوم ذات الأحجام الهائلة والتي تمتد بالملايين ، لا تعدو أن تكون ذرات متناثرة في هذا الفضاء الرحيب .

ولعل في الإشارة إلى السعة إعاءة آخر إلى مخازن الأرزاق التي قال من قبل : إنها في السماء . ولو أن السماء هناك مجرد رمز إلى ما عند الله . ولكن التمييز القرآني يلقى ظلالا معينة ، يبدو أنها مقصودة في التعبير ، لخطاب الشاعر البشرية خطابا موحيا .

ومثلها الإشارة الأخرى إلى الأرض للمهودة للفروشة :

« والأرض فرشناها . فنعم للهادون » . .

قد أعد الله هذه الأرض لتكون مهدا للحياة كما أسلفنا . والفرش يوحي باليسر والراحة والعناية . وقد هيئت الأرض لتكون عضنا ميسرا ممهدا ، كل شيء فيه مقدر بدقة لتيسير الحياة وكفالتها : « فنعم للهادون » . .

« ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تكرون » . .

وهذه حقيقة عجيبة تكشف عن قاعدة الخلق في هذه الأرض - وربما في هذا الكون - إذ أن التمييز لا يخصص الأرض - قاعدة الزوجية في الخلق . وهي ظاهرة في الأحياء . ولكن كلمة « شيء » تشمل غير الأحياء أيضا . والتمييز يقرر أن الأشياء كالأحياء مخلوقة على أساس الزوجية .

وحين تذكر أن هذا النص عرفه البشر منذ أربعة عشر قرنا . وأن فكرة عموم الزوجية - حتى في الأحياء - تكن معروفة حينذاك . فضلا على عموم الزوجية في كل شيء . . حين تذكر

هذا نجدنا أمام أمر عجيب عظيم . . وهو يطلنا على الحقائق الكونية في هذه الصورة العجيبة المبكرة كل التذكير !

كأن هذا النص يجملنا نرجع أن البحوث العلمية الحديثة سائرة في طريق الوصول إلى الحقيقة . وهي تكاد تقر أن بناء الكون كله يرجع إلى الذرة . وأن الذرة مؤلفة من زوج من الكهرباء : موجب وسالب . قد تكون تلك البحوث إذن على طريق الحقيقة في ضوء هذا النص العجيب . . وفي ظل هذه اللغات القصيرة العبارة الماثلة للذي : في أجواز السماء ، وفي أماد الأرض ، وفي أعماق الخلائق . يهتف بالبشر ليغروا إلى خالق السماء والأرض والخلائق ، متجدين من كل ما قبل أرواحهم ويقدها ؟ موحدين الله الذي خلق هذا الكون وحده بلا شريك . « قروا إلى الله ، إنى لكم منه نذير مبين . ولا تجعلوا مع الله إلها آخر ، إنى لكم منه نذير مبين » . .

والتيير بلفظ القرار عجيب حقاً . وهو يوحى بالآمال والقيود والأغلال والأوقاق ، التي تشد النفس البشرية إلى هذه الأرض ، وتثقلها عن الانطلاق ، وتحصرها وتأسرها وتدعها في عقاب . وبخاصة أوقاق الرزق والحرص والانشغال بالأسباب الظاهرة للنصيب الموعود . ومن ثم يهيئ الملتفات قويا للانطلاق والتخلص والفرار إلى الله من هذه الأثقال والقيود ، القرار إلى الله وحده منزها عن كل شريك . وتذكير الناس بانقطاع الحجة وسقوط المنذر : إنى لكم منه نذير مبين » . . وتكرار هذا التنبيه في آيتين متجاورتين ، زيادة في التنبيه والتحذير !



وكأنما كانت هذه الإشارة إلى آية السماء وآية الأرض وآية الخليقة استطرادا مع آيات الرسائل والرسول . فلما انتهت جاء التقيب على قصص الرسل التي سلفت في السياق : « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا : ساحر أو مجنون . أتواصوا به ؟ بل هم قوم طاغون . فنول عنهم لما أنت علوم . وذكر فإن الله كرهى للمؤمنين »
ففى جيلة واحدة وطبيعة واحدة للمكذبين ؟ وهو استقبال واحد للحق والرسول يستقبلهم به للتحرفون : « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا : ساحر أو مجنون » . . كما يقول هؤلاء للشركون : كأنما تواصوا بهذا الاستقبال على مدار القرون ! وما تواصوا بشيء إنما هي طبيعة الطغيان وتجاوز الحق والقصد تجمع بين الغابرين واللاحقين !

والنتيجة الطبيعية التي تترتب على هذا الموقف المكرور ، الذي كأنما تواصل به الطاغون على مدار القرون ، ألا يحفل الرسول - صلى الله عليه وسلم - تكذيب للشركيين . فهو غير ملوم على منالهم ، ولا مقصر في هدايتهم : « فتول عنهم لما أنت علوم » . إنما هو مذكر ، فعليه أن يذكر ، وأن يحض في التذكير ، منها أعرض للعرضون وكذب للكذبةون : « وذكر فإن الله كرى تتفع المؤمنين » . . ولا تنفع غيرهم من الجاحدين . والتذكير هو وظيفة الرسل . والهدى والضلال خارجان عن هذه الوظيفة ، والأمر فيها إلى الله وحده . الذي خلق الناس لأمر يريده . .

هنا يحىء الإيقاع الأخير في السورة . ويتضح معنى القرار إلى الله ، والتخلص من الأهواك والأثقال ، لأداء الوظيفة التي خلق الله المباد لها ، ومنحهم وجودهم ليؤدوها : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » . .

وإن هذا النص الصغير ليحتوى حقيقة ضخمة هائلة ، من أضخم لحقائق الكونية التي لا تستقيم حياة البشر في الأرض بدون إدراكها واستيقانها . سواء كانت حياة فرد أم جماعة . أم حياة الإنسانية كلها في جميع أدوارها وأعمارها .

وإنه ليفتح جوانب وزوايا متعددة من اللامنى والمرامى ، تندرج كلها تحت هذه الحقيقة الضخمة ، التي تمد حجر الأساس الذي تقوم عليه الحياة .

وأول جانب من جوانب هذه الحقيقة أن هنالك غاية معينة لوجود الجن والإنس . تمثل في وظيفة من قام بها وأداها قد حقق غاية وجوده ؛ ومن قصر فيها أو نكل عنها قد أبطل غاية وجوده ؛ وأصبح بلا وظيفة ، وباتت حياته فارغة من القصد ، خاوية من معناها الأصيل ؛ الذي تستمد منه قيمتها الأولى . وقد انفلت من التاموس الذي خرج به إلى الوجود ، وانتهى إلى الضياع المطلق ، الذي يصيب كل كائن يفلت من تاموس الوجود ، الذي يربطه ويحفظه ويسكفل له البقاء .

هذه الوظيفة المعنية التي تربط الجن والإنس بتاموس الوجود . هي العبادة لله . أو هي المبودية لله . . أن يكون هناك عبد ورب . عبد يعبد ، ورب يُعبد . وأن تستقيم حياة العبد كلها على أساس هذا الاعتبار ؛

ومن ثم يبرز الجانب الآخر لتلك الحقيقة الضخمة ، ويتبين أن مدلول العبادة لابد أن يكون أوسع وأشمل من مجرد إقامة الشعائر . فالجن والإنس لا يقضون حياتهم في إقامة الشعائر ؛ والله لا يكلفهم هذا . وهو يكلفهم ألوانا أخرى من النشاط تستغرق معظم حياتهم . وقد لا نعرف نحن ألوان النشاط التي يكلفها الجن ؛ ولكننا نعرف حدود النشاط المطلوب من الإنسان . نعرفها من القرآن من قول الله تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة : إني جاعل في الأرض خليفة » . فهي الخلافة في الأرض إذن عمل هذا الكائن الإنساني . وهي تقتضي ألوانا من النشاط الحيوي في عمارة الأرض ، والنمرف إلى قواها وطاقاتها ، وذخايرها ومكنوناتها ، وتحقيق إرادة الله في استخدامها وتنميتها وترقية الحياة فيها . كما تقتضي الخلافة القيام على شريعة الله في الأرض لتحقيق المنهج الإلهي الذي يتناسق مع التاموس الكوني العام .

ومن ثم يتجلى أن معنى العبادة التي هي غاية الوجود الإنساني أو التي هي وظيفة الإنسان الأولى ، أوسع وأشمل من مجرد الشعائر ؛ وأن وظيفة الخلافة داخلية في مدلول العبادة قطعا . وأن حقيقة العبادة تتمثل إذن في أمرين رئيسيين :

الأول : هو استقرار معنى المبودية لله في النفس . أي استقرار الشعور على أن هناك عبدا وربا . عبدا يعبد ، وربا يُعبد . وأن ليس وراء ذلك شيء ؛ وأن ليس هناك إلا هذا الوضع وهذا الاعتبار . ليس في هذا الوجود إلا عابد ومعبود ؛ وإلارب واحد والكل له عبيد .
والثاني : هو التوجه إلى الله بكل حركة في الضمير ، وكل حركة في الجوارح ، وكل حركة في الحياة . التوجه بها إلى الله خالصة ، والتجرد من كل شعور آخر ؛ ومن كل معنى غير معنى التبع لله .

بهذا وذلك يتحقق معنى العبادة ؛ ويصبح العمل كالشعائر ، والشعائر كعبادة الأرض ، وعمارة الأرض كالجهاد في سبيل الله ، والجهاد في سبيل الله كالصبر على الشدائد والرضى بقدر الله . . كلها عبادة ؛ وكلها تحقيق للوظيفة الأولى التي خلق الله الجن والإنس لها ؛ وكلها خضوع للتاموس العام الذي يتمثل في عبودية كل شيء لله دون سواه .

عندئذ يعيش الإنسان في هذه الأرض شاعرا أنه هنا للقيام بوظيفة من قبل الله تعالى ، جاء لينهض بها فترة ، طاعة لله وعبادة له لا لأرب له هو فيها ، ولا غاية له من وراءها ، إلا الطاعة ، وجزاؤها الذي يعده في نفسه من طمأنينة ورضى عن وضعه وعمله ، ومن أنس برضى الله عنه ، ورعايته له . ثم يحده في الآخرة تكميلا ونسيبا وفضلا عظيما .

وعندئذ يكون قد فر إلى الله حقا . يكون قد فر من أوهاق هذه الأرض وجوازها الموقفة ومغرياتها الملتفة . ويكون قد تحرر بهذا القرار . تحرر حقيقة من الأوهاق والأفقال . وخلص لله ، واستقر في الوضع السكوني الأصيل : عبدا لله . خلقه الله لعبادته . وقام بما خلق له . وحقق غاية وجوده . فمن مقتضيات استقرار معنى العبادة أن يقوم بالخلافة في الأرض ، وينهض بتكاليفها ، ويحقق أقصى ثمراتها ؛ وهو في الوقت ذاته نافض يديه منها ؛ خالص القلب من جوازها ومغرياتها . ذلك أنه لم ينهض بالخلافة ويحقق ثمراتها لذاته هو ولذاتها . ولكن لتحقيق معنى العبادة فيها ، ثم الفرار إلى الله منها !

ومن مقتضياته كذلك أن تصبح قيمة الأعمال في النفس مستمدة من بواعثها لامن نتائجها . فلنكن النتائج ما تكون . فالإنسان غير معلق بهذه النتائج . إنما هو معلق بأداء العبادة في القيام بهذه الأعمال ؛ ولأن جزاءه ليس في نتائجها ، إنما جزاؤه في العبادة التي أداها .

ومن ثم يتغير موقف الإنسان تغيرا كاملا تجاه الواجبات والتكاليف والأعمال . فينظر فيها كلها إلى معنى العبادة السامكن فيها . ومتى حقق هذا المعنى انتهت مهمته وتحققت غايته . ولنكن النتائج ما تكون بعد ذلك . فهذه النتائج ليست داخلة في واجبه ولا في حسابه ، وليست من شأنه . إنما هو قدر الله ومشيتته . وهو وجهه ونيته وعمله جانب من قدر الله ومشيتته .

ومتى نقض الإنسان قلبه من نتائج العمل والجهد ؛ وشعر أنه أخذ نصيبه ، وضمن جزاءه ، بمجرد تحقق معنى العبادة في الباعث على العمل والجهد ، فلن تبقى في قلبه حينئذ بقية من الأطماع التي تدعو إلى التكاليف والحصام على أعراض هذه الحياة . فهو من جانب يئذ أقصى ما يملك من الجهد والطاقة في الخلافة والنهوض بالتكاليف . ومن جانب ينفذ يده وقلبه من التعلق بأعراض هذه الأرض ، وثمرات هذا النشاط . فقد حقق هذه الثمرات ليحقق معنى العبادة فيها لا ليحصل عليها ويحتجزها لذاته .

والقرآن ينفذ هذا الإحساس ويقويه ، بإطلاق مشاعر الإنسان من الانشغال بهم الرزق ومن شح النفس . فالرزق في ذاته مكفول . تكفل به الله تعالى لعباده . وهو لا يطلب إليهم بطبيعة الحال أن يطعموه — سبحانه — أو يرزقوه . حين يكلفهم إتفاق هذا المال المحتاج به ، والقيام بحق المحرومين فيه :

« ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » .

وإذن لا يكون حافز للمؤمن للعمل وبذل الجهد في الخلافة هو الحرص على تحصيل الرزق. بل يكون الحافز هو تحقيق معنى العبادة ، الذي يتحقق ببذل أقصى الجهد والطاقة. ومن ثم يصبح قلب الإنسان معلقا بتحقيق معنى العبادة في الجهد ، طليقا من التعلق بنتائج الجهد . . . وهى مشاعر كريمة لا تنشأ إلا في ظل هذا التصور الكريم .

وإذا كانت البشرية لاتدرك هذه للمشاعر ولا تتذوقها ، فذلك لأنها لم تعش - كما عاش جيل للمسلمين الأول - في ظلال هذا القرآن . ولم تستمد قواعد حياتها من ذلك الدستور العظيم . وحين يرفع الإنسان إلى هذا الأفق . أفق العبادة . أو أفق المبودية . ويستقر عليه ، فإن نفسه تأنف حتما من اتخاذ وسيلة خسيسة لتحقيق غاية كريمة . ولو كانت هذه الغاية هى نصر دعوة الله وجعل كنهه هى العليا . فالوسيلة الخسيسة من جهة تحطم معنى العبادة النظيف الكريم . ومن جهة أخرى فهو لا يبنى نفسه يبلوغ الغايات ، إنما يبنى نفسه بأداء الواجبات ، تحقيقا لمعنى العبادة فى الأداء . أما الغايات فهو كولة لله ، يأتي بها وفق قدره الذى يريد . ولاداعى لاستعساف الوسائل والطرق للوصول إلى غاية أمرها إلى الله ، وليست داخلية فى حساب المؤمن العابد لله . ثم يستمتع العبد العابد براحة الضمير ، وطعانة النفس ، وصلاح البال ، فى جميع الأحوال . سواء رأى ثمرة عمله أم لم يرها . تحققت كما قدرها أم على عكس ما قدرها . فهو قد أنهى عمله ، وضمن جزاءه ، عند تحقيق معنى العبادة . واستراح . وما يقع بعد ذلك خارج عن حدود وظيفته .. وقد علم هو أنه عبد ، فلم يعد يتجاوز بمشاعره ولا بمطالبه حدود العبد . وعلم أن الله رب ، فلم يعد يتقمم فيما هو من شؤون الرب . واستقرت مشاعره عند هذا الحد ، ورضى الله عنه ، ورضى هو عن الله .

وهكذا تتجلى جوانب من تلك الحقيقة الضخمة الهائلة ، التى تقررها آية واحدة قصيرة :
« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » .. وهى حقيقة كفيفة بأن تغير وجه الحياة كلها عند ما تستقر حقا فى الضمير ...

وفى ضوء هذه الحقيقة الكبيرة ينذر الذين ظلموا فلم يؤمنوا ؛ واستعجلوا وعد الله ، وكذبوا . وتحم السورة بهذا الإنذار الأخير :
« فإن للذين ظلموا ذنوبا ^(١) مثل ذنوب أصحابهم . فلا يستعجلون . فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون » ..

(١) الذنوب : الفلو . وهو كناية عن أن لهم مثل ما أصاب من قبلهم من الظالمين ..

سُورَةُ الطُّورِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا ٤٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مُّسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ * وَالسَّعْفِ
الْمَرْفُوعِ * وَالنَّخْرِ الْمُسْجُورِ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ * يَوْمَ
تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا * قَوْلٌ لَّيْسَ يَوْمُنَا لِلْكَافِرِينَ * الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ
يَلْعَبُونَ * يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ *
أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ؟ * احْمِلُوهَا فَاحْضِرُوا أَوْلَاءَ أَنْ تَضُرُّوا سَوَاءَ عَلَيْهِمْ
إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

«إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ * فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ، وَوَقَّاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ
الْجَحِيمِ * كُلُوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَكِينِينَ عَلَى مُرُرٍ مَّصْنُوفَةٍ
وَرَوَّحًا مِّنْ يَّخُورِينَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ قُلْنَا رَبِّهِمْ
وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ، كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ * وَانْزَلْنَاهُمْ بِمَا كَسَبَتْ
وَلَعَنَ بِمَا يَشْتَهُونَ * يَنْتَازِعُونَ فِيهَا كَأَنَّهُمْ لَاقِنُوا فِيهَا وَلَا تَأْنِيهِمْ * وَبَطُوفٌ عَلَيْهِمْ
غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَوْ لُؤْلُؤٌ مَّكَنُونٌ * وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا : إِنَّا
كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّعِيرِ * إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ
نَدْعُوهُ ، إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ .

« فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا يَجْنُونَ * أَمْ يَقُولُونَ : شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَبُّنَا السَّنُونَ ؟ * قُلْ : تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنَظِّرِينَ * أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا ؟ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ؟ * أَمْ يَقُولُونَ : نَقُولُهُ ؟ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَاثُوا بِحَدِيثِ مِثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ * أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ؟ أَمْ هُمْ أَغْلَاقُونَ ؟ * أَمْ خُلِقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ؟ بَلْ لَا يُوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمْ الْمُسْتَظَرُّونَ ؟ * أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ؟ فَلْيَأْتِ سُلُطَانٌ مُبِينٌ * أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ * أَمْ نَسَا لَهُمْ آجْرَهُمْ مِنْ نَعْمَةٍ مُنْفُكُونَ ؟ * أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ؟ * أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ؟ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ * أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ ؟ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ! * وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا : سَحَابٌ مَرْكُومٌ * فَذَرْنُهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ » ..

هذه السورة تمثل حملة عميقة التأثير في القلب البشرى . ومطاردة عنيفة للهواجس والشكوك والشبهات والأباطيل التي تساوره وتندس إليه وتغنيه هنا وهناك في حناياه . ودحض لكل حجة وكل عذر قد يتخذة للحيدة عن الحق والزيف عن الإيمان . حملة لا يصمد لها قلب يتقاهما ، وهي تلاحقه حتى تلجسه إلى الإذعان والاستسلام !

وهي حملة يشترك فيها اللفظ والمعبرة ، والمعنى والدلول ، والصور والظلال ، والإيقاعات الموسيقية لتقاطع السورة وفواصلها على السواء . ومن بدء السورة إلى ختامها تتوالى آياتها كالو كانت قدائف ، وإيقاعاتها كالو كانت صواعق ، وصورها وظلالها كالو كانت سياط لا ذعة للحس لا تمهل لحظة واحدة من البدء إلى الختام !

وتبدأ السورة بقسم من الله سبحانه بمقدسات في الأرض والسماء . بعضها مكشوف معلوم ؛ وبعضها مغيب مجهول : « والطور . وكتاب مسطور . في رق منشور . والبيت المعمور . والسقف المرفوع » ..

القسم على أمر عظيم رهيب ، يرجع القلب رجا ، ويرعب الحس رعبا . في تعبير يناسب لفظه مدلوله الرهيب ؛ وفي مشهد كذلك ترجف له القلوب : « إن عذاب ربك لواقع ، ما له من دافع ، يوم تمور السماء مورا ، وتسير الجبال سيرا » ..

وفي وسط المشهد للفرع نرى ونسمع ما يزلزل ويرعب ، من ويل وهول ، وتقرع وتفرع ؛ « فويل يومئذ للمكذبين ، الذين هم في خوض يلمون . يوم يدعون إلى نار جهنم دعا . هذه النار التي كنتم بها تكذبون . أفسر هذا ؟ أم أتم لا تبصرون ؟ أصلاها فاصبروا أولا تبصروا ، سواء عليكم ، إنا نجزون ما كنتم تعملون » ..

هذا شوط من حملة للمطاردة . يليه شوط آخر من لون آخر . شوط في إطاع القلوب التي رأت ذلك الهول للرعب - إطاعها في الأمن والنعم . بمرض صورة للتقين وماعظم من تكريم . وما هي ؟ لم من نعم رخي رغيد ، يطول عرضه ، وتكثر تفصيلاته ، وتعتمد ألوانه . مما يستجيش الحس إلى روح النعم وبرده ؛ بمد كرب المذاب وهوله : « إن للتقين في جنات ونعيم فأكفين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم . كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون . متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين . والذين آمنوا واتبعهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم ، وما آلتناهم من عملهم من شيء ، كل امرئ بما كسب رهين . وأمددناهم بغاكة ولم يمشيتون . يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم . ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون . وأقبل بعضهم على بعض يتسائلون . قالوا : إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين . فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم . إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم » ..

والآن وقد أحس القلب البشري سياط المذاب في الشوط الأول ؛ وتذوق حلاوة النعم في الشوط الثاني . . الآن يحى الشوط الثالث يطارد الهواجس والوساوس ؛ ويلاحق الشبهات والأضاليل ؛ ويدحض الحجج والمآذير . ومرض الحقيقة بارزة واضحة بسيطة عيفة . تتحدث بمنطق نافذ لا يحتمل التأويل ، مستقيم لا يحتمل اللغو والدوران . يلوى الأعتاق ليا ويلجأ إلى الإذعان والتسليم . . ويبدأ هذا الشوط بتوجيه الخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (٣ في ظلال القرآن [٢٧])

ليخفى في تذكيره لهم ، على الرغم من سوء أديهم معه ؛ وليقرعهم بهذا اللطيف النائد القوى
الستيم : « فذكر فائت بنمة ربك بكاهن ولاعجون . أم يقولون : شاعر تربص به رب
النون ؟ قل : تربصوا فإني معكم من التربين . أم تأمرهم أحلامهم بهذا ؟ أم هم قوم طاغون ؟
أم يقولون حقوله ؟ بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين . أم خلقوا من غير
شيء ؟ أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السماوات والأرض ؟ بل لا يوقنون . أم عندهم خزان ربك ؟
أم هم السيطرون ؟ أم هم سلم يستمعون فيه ؟ فليأت مستمعهم بسلطان مبين . أم له النبات ولكم
البنون ؟ أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ؟ أم عندهم القيب فهم يكتبون ؟ أم يريدون كيدا ؟
فالذين كفروا هم المكيدون . أم لهم إله غير الله ؟ سبحان الله عما يشركون » ..

وعقب هذه الأسئلة للتلاحقة . بل هذه القذائف الصاعقة . التي تنسف الباطل نسفا ، وتخرج
المكارر واللعائد ، وتخرس كل لسان يزيع عن الحق أو يجادل فيه . . عقب هذا يصور تنتميم
وعنادهم في صورة الذي يكابر في المحسوس : « وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا :
سحاب مركوم » . والفرق بين قطعة السماء تسقط وبين السحاب واضح ، ولكنهم هم يلمسون
كل شبهة ليمدوا عن الحق الواضح .

هنا يلقى عليهم بالقذيفة الأخيرة . قذيفة التهديد الرعب ، علاقة ذلك للشهد للرهبوب ،
الذي عرض عليهم في مطلع السورة : « فندم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصفون . يوم
لا ينفي عنهم كيدهم شيئا ولا هم ينصرون » .. كما يهددهم بعباب أقرب من ذلك العذاب : « وإن
للذين ظلموا عذابا دون ذلك ، ولكن أكثرهم لا يعلمون » ..

ثم تختم السورة بإيقاع رضى رضى .. إنه موجه إلى الرسول الكريم الذى يقولون عنه :
« شاعر تربص به رب النون » .. ويقولون : كاهن أو عجون . موجه إليه من ربه يسليه
وبميزه في إغزاز وتكريم . في تعبير لانتظير له في القرآن كله ؛ ولم يوجه من قبل إلى نبي .
أورسول : « واصبر لحكم ربك ، فإنك بأعيننا ، وسبح بحمد ربك حين تقوم ، ومن الليل
فسبحه وإدبار النجوم » ..

إنه الإيقاع الذى يسح على المنت والمشفقة للذين يلقاهما الرسول الكريم ، من أولئك
المتنتين اللعائدين ، الذين اقتضت مواجهتهم تلك الحملة النيفة من المطاردة والمجوم . .

« والطور . وكتاب مسطور . في رق منشور . والبيت المعمور . والسقف المرفوع . والبحر المسجور . إن عذاب ربك لواقع . ماله من دافع . يوم تمور السماء مورا . وتسير الجبال سيرا . فويل يومئذ للمكذبين الذين هم في خوض يلعبون . يوم يدعون إلى نار جهنم دعا . هذه النار التي كنتم بها تكذبون . أفسح هذا ؟ أم أنتم لا تبصرون ؟ اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا ، سواء عليكم ، إنعما تجزون ما كنتم تعملون » ..

هذه الآيات القصيرة ، والفواصل المنعمة ، والإيقاعات الفاصلة ، تصاحب السورة من مطلعها . وهى تبدأ بكلمة واحدة . ثم تصبح كلمتين . ثم تطول شيئا فشيئا حتى تبلغ في نهاية المقطع اثنتي عشرة كلمة . مع المحافظة الكاملة على قوة الإيقاع .

والطور : الجبل فيه شجر . والأرجح أن المقصود به هو الطور المعروف في القرآن ، للذكر في قصة موسى - عليه السلام - والذي نزلت فوقه الألواح . فالجو مقدسات يقسم بها الله سبحانه على الأمر العظيم الذي سيحيى .

والكتاب للطور في رق منشور . الأقرب أن يكون هو كتاب موسى الذي كتب له في الألواح . للمناسبة بينه وبين الطور . وقبل . هو اللوح المحفوظ . عشا مع ما بعده : البيت المعمور ، والسقف المرفوع . ولا يمتنع أن يكون هذا هو المقصود .

والبيت للمعمور : قد يكون هو الكعبة . ولكن الأرجح أن يكون بيت عبادة لللائكة في السماء لما ورد في الصحيحين في حديث الإسراء : « ثم رفع بي إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفا لا يهودون إليه آخر ما عليهم » .. يعنى يتمدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم !

والسقف المرفوع : السماء . قاله سفيان الثوري وشعبة وأبو الأحوص عن ممالك ابن خالده ابن عرعة عن عطي - كرم الله وجهه - قال سفيان : ثم تلا : « وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون » ..

والبحر المسجور : المأوى . وهو أنسب شيء يذكر مع السماء في مشهد . في انقصاصه وامتلائه وامتداده . وهو آية فيها رهبة ولها روعة . تؤهلانه للذكر مع هذه للشاهد للقسمة بها على الأمر العظيم . وقد يكون معنى للمسجور : للتقد . كما قال في سورة أخرى : « وإذا البحار سجرت » أى توقدت نيرانا . كما أنه قد يشير إلى خلق آخر كالبيت المرفوع يملئه الله .

يقسم الله سبحانه بهذه الخلائق العظيمة على أمر عظيم . بعد أن تهبأ الحس بهذه الإقاعات لاستقبال ذلك الأمر العظيم :

« إن عذاب ربك لواقع ، ماله من دافع » ..

فهو واقع حتماً ، لا يملك دفعه أحد أبداً . وإقاع الآيتين والفاصلتين حاسم قاطع . يلقي في الحس أنه أمر دائم قاصم ، ليس منه واق ولا عاصم . وحين يصل هذا الإقاع إلى الحس البشرى بلاعائق فإنه يهزه ويضعفه ويضعل به الأفاعيل .. قال الحافظ أبو بكر ابن أبي الدنيا : حدثنا أبي ، حدثنا موسى ابن داود ، عن صالح المري ، عن جعفر ابن زيد المديني . قال : خرج عمر يس بالمدينة ذات ليلة ، فرى بدار رجل من المسلمين ، فواقه قائماً يصلي ، فوقف يستمع قراءته قرأ : « والطور ... حتى بلغ : إن عذاب ربك لواقع ، ماله من دافع » .. قال : قسم ورب الكعبة حق . فزل عن سماره . واستند إلى حائط ، فكث مليا ، ثم رجع إلى منزله ، فكث شهرا يهوده الناس لا يدرون مامرضه . رضى الله عنه .

وعمر - رضى الله عنه - سمع السورة قبل ذلك ، وقرأها ، وصلى بها ، فقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يصلي بها المغرب . وعمر يعلم . ويتأسى . ولكنها في تلك الليلة صادفت منه قلبا مكشوقا ، وحسا مفتوحا ، فنفتت إليه وفعلت به هذا الذي فعلت . حين وصلت إليه بثقلها وعنفها وحقيقتها الدنية للبشارة ؛ التي تصل إلى القلوب في لحظات خاصة ، فتدخلها وتتمتعها ، في لمة مباشرة كهذه اللمسة ، تلقى فيها القلب الآية من مصدرها الأول كما تلقاها قلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأطاقها لأنه تهبأ لتلقها . فأما غيره فيقع لهم شيء مما وقع لعمر - رضى الله عنه - حين تنفذ إليهم بقوة حقيقتها الأولى ..

ويصعب هذا الإقاع الرهيب مشهد مصاحب له رهيب :

« يوم تمور السماء مورا ، وتسير الجبال سيرا » ..

ومشهد السماء الثابتة البنية بقوة وهي تضطرب وتتقلب كما يضطرب اللوح في البحر من هنا إلى هناك بلاقوام . ومشهد الجبال الصلبة الراسية تسير خفيفة رقيقة لانبثاتها ولا استقرار . أمر مذهل مزلزل . يدل ضمنا على الهول الذي تمور فيه السماء وتسير منه الجبال . فكيف بالخلوق الإنسانى الصغير الضعيف في ذلك الهول اللذيل الخيف ؟

وفي زحمة هذا الهول الذي لا يثبت عليه شيء ؛ وفي ظل هذا الرعب الزلزل لكل شيء ،

يماجل للكذابين بما هو أهول وأرعب . يماجلهم بالدعاء عليهم بالويل من العزيز الجبار :

« فويل يومئذ للكذابين . الذين هم في خوض يلعبون » . .

والدعاء بالويل من الله حكم بالويل وقضاء . فهو أمر لاحالة واقع ، ماله من دافع . وهو كائن حتما ، يوم تمور السماء مورا وتسير الجبال سيرا . فيتناسب هذا الخوض مع ذلك الويل ، وينصب كله على للكذابين . . « الذين هم في خوض يلعبون » . .

وهذا الوصف ينطبق ابتداء على أولئك للشركيين ومعتقداتهم للتهافت ، وتصوراتهم للهلهلة ؛ وحياتهم القائمة على تلك للمعتقدات وهذه التصورات ، التي وصفها القرآن وحكاها في مواضع كثيرة . وهي لب لاجد فيه . لب يغوضون فيه كما يغوض اللاعب في الماء ، غير قاصد إلى شاطئ . أو هدف ، سوى الخوض واللعب !

ولكنه يصدق . كذلك على كل من يعيش بتصور آخر غير التصور الإسلامي . . وهذه حقيقة لا يدركها الإنسان إلا حين يستعرض كل تصورات البشر الشهورة - سواء في معتقداتهم أو أساطيرهم أو فلسفاتهم - في ظل التصور الإسلامي للوجود الإنساني ثم للوجود كله . . إن سائر التصورات - حتى لكبار الفلاسفة الذين يعتز بهم تاريخ الفكر الإنساني - تبدو محاولات أطفال يغبطون ويغوضون في سبيل الوصول إلى الحقيقة . تلك الحقيقة التي تمرض في التصور الإسلامي - وبخاصة في القرآن - عرضا هادئا ناصعا قويا بسيطا عميقا . يلتقي مع الفطرة النقاء مباشرة دون كد ولا جهد ولا تعقيد . لأنه يطالها بالحقيقة الأصلية العميقة فيها . ويضر لها الوجود وعلاقتها به ، كما يفسر لها علاقة الوجود بخالقه تفسيرا يضاهي ما استقر فيها وبواقعها . وطالما عجبت وأنا أطالع تصورات كبار الفلاسفة ؛ ألا حظ المنام القاتل الذي يزاولونه ، وهم يحاولون تفسير هذا الوجود وارتباطاته ؛ كما يحاول الطفل الصغير حل معادلة رياضية هائلة . . وأمامي التصور القرآني واضحا ناصعا سهلا هينا ميسرا طبيعيا ، لا عوج فيه ولا لف ولا تعقيد ولا اتواء . وهذا طبيعي ، فالتفسير القرآني للوجود هو تفسير صانع هذا الوجود لطبيعته وارتباطاته . . أما تصورات الفلاسفة فهي محاولات أجزاء صغيرة من هذا الوجود لتفسير الوجود كله . والمأقية مرفوفة لمثل هذه المحاولات البائسة !

إنه عبث . وخط . وخوض . . حين يقاس إلى الصورة للكتملة الناضجة ، للطائفة ، التي يعرضها القرآن على الناس ، فيدعها بعضهم إلى تلك المحاولات للتخبطة الناقصة . السحيلة الاكتمال والنضوج !

وإن الأمور لتظل مضطربة في حس الإنسان وتصوره ، متأثرة بالتصورات المنحرفة ، وبالمحاولات البشرية الناقصة . ثم يسمع آيات من القرآن في الموضوع الذي يساوره . فإذا النور الهادي . والوزان الثابت . وإذا هو يجد كل شيء في موضعه ، وكل أمر في مكانه ، وكل حقيقة هادئة مستقرة لا تضطرب ولا تمور . ويحس بعدها أن نفسه استراحت ، وأن بالله هدأ ، وأن عقله اطمأن إلى الحق الواضح ، وقد زال الغش والقلق واستقرت الأمور .

كذلك يبدو أن الناس في خوض يلمون من ناحية اهتمامهم في الحياة . حين تناس بالاهتمام التي يثيرها الإسلام في النفس ، ويلقى بها القلب ، ويشغله بتدبرها وتحقيقها . وتبدو تفاهة تلك الاهتمامات ومنازلها ، والسلم ينظر إلى اشتغال أهلها بها ، وانفاسهم فيها ، وتمطيهم لها ، وحديثهم عنها كأنها أمور كونية عظمى وهو ينظر إليهم كما ينظر إلى الأطفال للشغولين برؤس الحصى وبالدى الليته ، يحسبونها شغوما ؟ ويقضون أوقاتهم في مناعتها واللعب معها وبها !!!

إن الإسلام يرفع من اهتمامات البشر قدر ما يرفع من تصورهم للوجود الإنساني وللوجود كله ؟ ويقدر ما يكشف لهم عن علة وجودهم وحقيقته ومصيره ؟ ويقدر ما يوجب إجابة صادقة واضحة عن الأسئلة التي تساور كل نفس : من أين جئت ؟ لماذا جئت ؟ إلى أين أذهب ؟ وإجابة الإسلام عن هذه الأسئلة تحدد التصور الحق للوجود الإنساني وللوجود كله . فإن الإنسان ليس بدعا من الخلق كلها . فهو واحد منها . جاء من حيث جاءت . وشاركها علة وجودها . ويذهب إلى حيث تقتضى حكمة خالق الوجود كله أن يذهب . فالإجابة على تلك الأسئلة تشمل كذلك تفسيراً كاملاً للوجود كله ، وارتباطاته وارتباطات الإنسان به . وارتباط الجميع بخالق الجميع .

وهذا التفسير ينعكس على الاهتمامات الإنسانية في الحياة ؟ ويرفعها إلى مستواه . ومن ثم تبدو اهتمامات الآخرين صغيرة هزيلة في حس السلم للشغول بتحقيق وظيفة وجوده الكبرى في هذا الكون ، عن تلك الصفات والصفات التي تجوز فيها اللاعبون ! إن حياة السلم حياة كبيرة - لأنها منوطة بوظيفة ضخمة ، ذات ارتباط بهذا الوجود الكبير ، وذات أثر في حياة هذا الوجود الكبير . وهي أعز وأقدس من أن يقضيها في عبث ولهو وخوض ولعب . وكثير من اهتمامات الناس في الأرض يبدو عبثاً ولها وخوضاً ولها حين يقاس إلى اهتمامات السلم الناشئة من تصوره لتلك الوظيفة الضخمة المرتبطة بحقيقة الوجود (١) .

(١) فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان (بحث للدؤف يرجو أن يوفى لي لإخراجه) .

وويل لأولئك الخائضين اللاعين : « يوم يدعون إلى نار جهنم دعا » .. وهو مشهد عيف .
فالدع : الدفع في الظهور . وهى حركة غليظة تليق بالخائضين اللاعين ، الذين لا يجدون ،
ولا ينتهون إلى ما يجري حولهم من الأمور . فيساقون سوقا ويدفون في ظهورهم دفا .
حق إذا وصل بهم الدفع والدع إلى حافة النار قيل لهم : « هذه النار التى كنتم
بها تكذبون ! » ..

وبينا هم في هذا الكرب . بين الدع والنار التى تواجههم على غير إرادة منهم . يحيمهم
الترذيل والتأنيب ، والتلصيح إلى ماسبق منهم من التكذيب : « أفسح هذا ؟ أم أتم لاتصرون ؟ » .
قد كانوا يقولون عن القرآن : إنه سحر . فهل هذه النار التى يرونها كذلك سحر ؟ أم إنه
الحق المائل الرعب ؟ أم إنهم لا يصرون هذه النار كما كانوا لا يصرون الحق فى القرآن الكريم ؟
وحين ينتهى هذا التأنيب الساخر المرر بما جلهم بالتيئيس البئيس . « اسلوها . فاصبروا
أولاتصبروا . سواء عليكم . إنما تجزون ما كنتم تعملون » ..

وليس أقى على منكوب بهذه النكبة . من أن يعلم أن الصبر وعدم الصبر سواء . فالعذاب
واقع ، ماله من دافع . وأنه واحد مع الصبر ومع الجزع . والبقاء فيه مقرر سواء صبر عليه
أم هلع .. والملة أنه جزاء على ما كان من عمل . فهو جزاء له سببه الواقع فلا تفرقه ولا تبديل !
وبذلك ينتهى هذا الشهد الرعب ؟ كما ينتهى الشوط الأول لإيقاعه العنيف .

أما الشوط الثانى فهو مثير للحس ، ولكن بما فيه من رضاء ورغد ، وهتاف بالمتاع لإقامه ،
وبخاصة بعد مشهد العذاب البئيس :

« إن للفقيرين فى جنات ونعيم . فأكبرن بما آتاهن ربهم ، ووقاهن ربهم عذاب الجحيم . كلوا
واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون . متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين . والذين آمنوا
وانتهبهم ذريتهم يلعبان ، ألحقنا بهم ذريتهم ، وما آتاهم من عملهم من شيء ، كل امرئ بما كسب
رهين . وأمدناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون ، يتنازعون فيها كأسا لا تلوثها ولا تأثم . ويطوف
عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون . وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قالوا : إنا كنا قبل فى
أهلنا مشفقين ؟ فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم . إنا كنا من قبل ندعوه ، إنه هو
البر الرحيم » ..

والشهد أقرب إلى مشاهد النعيم الحسى ، الذى يخاطب الشاعر فى أول العهد ، والذى يجتذب النفوس بلائذ الحس فى صورتها الصفاة . وهو مقابل لذلك المذاب الغليظ الذى تواجه به القلوب الجاسية والقلوب الالهية كذلك :

« إن المتقين فى جنات ونعيم . فأكبر بما آتاهم ربهم ، ووقاهم ربهم عذاب الجحيم » . .
ومجرد الوقاية من عذاب الجحيم الذى عرضت مشاهدته فى هذه السورة فضل ونعمة .
فكيف ومعه « جنات ونعيم » ؟ وهم يلتذون ما آتاهم ربهم ويتفكرون ؟
ومع النعيم ولذته التهيئة والتكريم :

« كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون » . .

وهذا بذاته متاع أكرم . وهم ينادون هذا النداء العلوى ، ويعلن استحقاقهم لما هم فيه :
« متكئين على سرر مصفوفة » .. منسقة يجردون فيها لذة التجمع بإخوانهم فى هذا النعيم :
« وزوجناهم بحور عين » . . وهذه تمثل أمتع ما يجول فى خواطر البشر من متاع جميل .
وبعض التكريم خطوة فإذا ذريتهم المؤمنة تجتمع إليهم فى هذا النعيم ، زيادة فى الرعاية والمانية . ولو كانت أعمال القدرية أقل من مستوى مقام المتقين ، مادامت هذه الدرية مؤمنة .
وذلك دون أن ينقص شئ من أعمال الآباء ودرجاتهم ، ودون إخلال بفرديّة النعمة وحساب كل بعمله الذى كسبه ، إنما هو فضل الله على الجميع :

« والذين آمنوا واتبعهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم . وما ألتناهم من عملهم من شئ » .
كل امرئ بما كسب رهين » . .

ويستطرد للشهد يعرض ألوان للناعم واللذائذ فى ذلك النعيم . فإذا فأكهة ولحم مما يشتهون .
وإذا هم يتعاطون فيها كأسا ليست كخمر الدنيا تطلق اللغو والهذر من الشفاه والألسنة ، وتشيع الإثم والمصيبة فى الحس والجوارح . إنها هى مصفاة امرأة : « لاتفونها ولا تأثم » . . وهم يتجاذبون بها بينهم ويتعاطونها مجتمعين . زيادة فى الإيناس واللذة والنعيم . فى حين يقوم على خدمتهم ويطوف بالكأس عليهم غلمان أبرياء ، فيهم نظافة ، وفيهم صيانة ، وفيهم ندوة : « كأنهم لؤلؤ مكنون » مما يضاعف إيناس المجلس اللطيف فى الجوارح والقلوب .

واستكمالاً لجو للشهد المأنوس يعرض سمرم فيما بينهم ، وتذكركم ماضيتهم ، وأسباب ما هم فيه من أمن ورضى ورخاء ورغد وأنى ونعيم . فيكشف للقلوب عن سر هذا المتاع ، ويشير إلى الطريق المؤدى إلى هذا النعيم :

« وأقبل بعضهم على بعض يتسألون . قالوا : إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين . فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم . إنا كنا من قبل ندعوه ، إنه هو البر الرحيم » . .

السر إذن أنهم عاشوا على حذر من هذا اليوم . عاشوا في خشية من لقاء ربهم . عاشوا مشفقين من حساب . عاشوا كذلك وهم في أهلهم ، حيث الأمان الحادع . ولكنهم لم يندعوا . وحيث المشقة للهمة . ولكنهم لم ينشغلوا .

عندئذ من الله عليهم ووقاهم عذاب السموم ، الذي يتخلل الأجسام كالم الحار اللاذع ! وقاهم هذا المذاب منه وفضلا ، لما علم من تقواهم وخشيتهم وإشفاتهم . وهم يعرفون هذا . ويعرفون أن العمل لا يدخل صاحبه الجنة إلا بمئة من الله وفضل . فما يبلغ العمل أكثر من أن يشهد لصاحبه أنه بذل جهده ، ورغب فيما عند الله . وهذا هو اللؤلؤ لفضل الله .

وقد كانوا مع الإشفاق والحذر والتقوى يدعون الله : « إنا كنا من قبل ندعوه » . . وهم يعرفون من صفاته البر بعباده والرحمة بعبده : « إنه هو البر الرحيم » . . وكذلك ينكشف سر الوصول في تاجي هؤلاء الناجين للمكرهين في دار النعم .



والآن وقد تلقى الحس سياط المذاب النيف في الشوط الأول ؛ وتلقى هتاف النعم الرغيد في الشوط الثاني ؛ وتوفرت بهذا وذلك حساسيته لتلقى الحقائق . . فإن السياق يماجله بحملة سرية الإيقاعات . يطارده فيها بالحقائق الصاعدة ، ويتعقب وساومه في مسارب نفسه في صورة استسهامات استنكارية ، وتحديات قوية ، لا يثبت لها الكيان البشري حين تصل إليه من أى طريق :

« فذكر . فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . أم يقولون : شاعر تربص به رب النون ؟ قل : تربصوا فإني معكم من التربين . أم تأمرهم أحلامهم بهذا ؟ أم هم قوم طاغون ؟ أم يقولون : تقوله ؟ بل لا يؤمنون . فلأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين . أم خلقوا من غير شيء ؟ أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السجوات والأرض ؟ بل لا يوقنون . أم عندهم خزائن ربك ؟ أم هم المسيطرون ؟ أم لم يسمعون فيه ؟ فليأت مستمعهم بسلطان مبين . أم له البنات ولكم البنون ؟ أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ؟ أم عندهم التيبفهم يكتبون ؟ أم يريدون كيدا ؟ فالذين كفروا هم المكيدون . أم لهم إله غير الله ؟ سبحان الله عما يشركون . وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا : سحاب مركوم » . .

« قد كر .. والخطاب للرسول - صلى الله عليه وسلم - لظلل في تذكره لا يثنيه سوء أديهم منه ، وسوء اتهامهم له . وقد كانوا يقولون عنه مرة : إنه كاهن . ويقولون عنه مرة : إنه مجنون . ويجمع بين الوصفين عتدهم ما كان شائما بينهم أن الكهان يتلقون عن الشياطين . وأن الشيطان كذلك يتخبط بعض الناس ، فيصابون بالجنون . فالشيطان هو العامل المشترك بين الوصفين : كاهن أو مجنون ! وكان يحملهم على وصف النبي - صلى الله عليه وسلم - بهذا الوصف أوزاك ، أو يقولهم إنه شاعر أو ساحر . كان يحملهم على هذا كله موقفهم مهوتين أمام القرآن الكريم للجز الذي يدهم عالم يهدوا من القول ، وهم أهل القول ! ولما كانوا لا يريدون - لمة في نفوسهم - أن يتعرفوا أنه من عند الله ، قد احتاجوا أن يعللوا مصدره التفوق على البشر . فقالوا : إنه من إلهاء الجن أو بمساعدتهم . فصاحبه إما كاهن يتلقى من الجن ، أو ساحر يستعين بهم ، أو شاعر له رضى من الجن ، أو مجنون به مس من الشيطان ينطقه بهذا القول العجيب !

وإنها لقولة فطيمة شئمة . فآله - سبحانه - يسلى رسوله عنها ، ويصفر من شأنها في نفسه . وهو يشهد له أنه محوط بنعمة ربه ، التي لانسكون معها كهانة ولاجنون : « لما أنت بنعمة ربك بكاهن ولاجنون » ..

ثم يستكر قولهم : إنه شاعر : « أم يقولون شاعر تربص به رب للنون ؟ » .. وقد قالوها . وقال بعضهم لبعض : اصبروا عليه ، واثبتوا على ما أنتم فيه ، حتى يأتيه الموت ، فيرحنا منه ! وتواصوا أن تربصوا به الموت للريح . ومن ثم يلقن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يرد عليهم في تهديد ملفوف : « قل : تربصوا . إني معكم من التربين » .. وستملون من تكون له العاقبة ، ومن يتبى به التربص إلى النصر والظهور .

ولقد كان شيوخ قرشي يلقبون بنوى الحلوم . أو ذوى الأحلام . إشارة إلى رجاحة عقولهم وحكمتهم في تصرف الأمور . فهو يتكلم بهم وبأحلامهم تجاه الإسلام . وموقفهم منه ينافي الحكمة والعقل ، فيسأل في تهكم : أهذه الأوصاف التي يصفون بها عمدا - صلى الله عليه وسلم - وتلك المواقف التي يقفونها من رسالته كانت من وحى أحلامهم ؟ أم إنهم طغاة ظالمون لا يقفون عندما تحل الأحلام والقول :

« أم تأمرهم أحلامهم بهذا ؟ أم هم قوم طاغون » !

وفي السؤال الأول تبهم لاذع . وفي السؤال الثاني اتهام مزر . وواحد منهما لا بد لاحق

بهم في موقفهم للرب ١

ولقد تطاولت السنن على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فاتهموه باقتراء ما يقول . فهو هنا يسأل في استنكار : إن كانوا يقولون : فتوله : كأن هذه الكلمة لا يمكن أن يقال . فهو يسأل عنها في استنكار : « أم يقولون فتوله ؟ » .. ويأدر بيان علة هذا القول الغريب : « بل لا يؤمنون » . فعدم استشعار قلوبهم للإيمان ، هو الذي ينطقهم بمثل هذا القول ؛ بعد أن يحجبهم عن إدراك حقيقة هذا القرآن . ولو أدركوها لعلوا أنه ليس من صنع بشر ؛ وأنه لا يحمله إلا صادق أمين .

وما دامت قلوبهم لا تستشعر حقيقة هذا التنزيل ؛ فهو يتحداهم إذن يرهان الواقع الذي لا يقبل اللراء : « فلأنتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين » . وقد تكرر هذا التحدي في القرآن الكريم ؛ وتلقاه للكرور عاجزين ، ووقفوا تجاهه صاغرين . وكذلك يقف أمامه كل أحد إلى يوم الدين .

إن في هذا القرآن سرا خاصا ، يشعر به كل من يواجه نصوصه ابتداء ، قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيها . إنه يشعر بسلطان خاص في عبارات هذا القرآن . يشعر أن هنالك شيئا ما وراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير . وأن هنالك عنصرا ما ينسكب في الحس بمجرد الاستماع لهذا القرآن . يدركه بعض الناس واضحا ويدركه بعض الناس غامضا ، ولكنه على كل حال موجود . هذا العنصر الذي ينسكب في الحس ، يصعب تحديد مصدره : أهو العبارة ذاتها ؟ أهو المعنى الكامن فيها ؟ أهو الصور والظلال التي تشعها ؟ أهو الإيقاع القرآني الخاص للتميز من إيقاع سائر القول للصوغ من اللغة ؟ أهى هذه العناصر كلها مجتمعة ؟ أم إنها هى وشيء آخر وراءها غير محدود ؟ !

ذلك سر مودع في كل نص قرآني ، يشعر به كل من يواجه نصوص هذا القرآن ابتداء .. ثم تأتي وراءه الأموار للدركة بالتدبر والنظر والتفكير في بناء القرآن كله :

في التصور الكامل الصحيح الذي ينشئ في الحس والقلب والعقل . التصور لحقيقة الوجود الإنساني ، وحقيقة الوجود كله ، وللحقيقة الأولى التي تنبع منها كل حقيقة . حقيقة الله سبحانه . وفي الطريقة التي يتبعها القرآن لبناء هذا التصور الكامل الصحيح في الإدراك البشري .

وهو يخاطب الفطرة ، خطابا خاصا ، غير معهود مثله في كلام البشر أجمعين ؛ وهو يقبل القلب من جميع جوانبه ومن جميع مداخله ، ويعالجه علاج الخبير بكل زاوية وكل سر فيه .
وفي الشمول والتوازن والتناسق بين توجهاته كلها ، والاستواء على أفق واحد فيها كلها .
بما لا يعهد إطلاقا في أعمال البشر ، التي لا تستقر على حال واحدة ، ولا تستقيم على مستوى واحد ، ولا تحيط هكذا بجميع الجوانب ، ولا تملك التوازن المطلق الذي لا زيادة فيه ولا نقص ، ولا تضرب فيه ولا إفراط ، والتناسق المطلق الذي لا تمارض فيه ولا تصادم سواء في ذلك الأصول والقروع .

فهذه الظواهر المدركة . . وأمثالها . . مع ذلك السر الخافي الذي لا سبيل إلى إنكاره . .
بما يسبغ على هذا الكتاب سمة الإعجاز المطلق في جميع الصور . وهي مسألة لا يمارى فيها إنسان يحترم حسه ، ويحترم نفسه ، ويحترم الحقيقة التي تطالمه بقوة وعمق ووضوح ، حينما واجه هذا القرآن يقبل سليم . . « فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين » . .

والاستفهام التالي عن حقيقة وجودهم ، هم أنفسهم ، وهي حقيقة قائمة لامر لم من مواجهتها ، ولا سبيل لهم إلى تفسيرها بغير ما يقوله القرآن فيها ، من أن لهم خالقا أوجدكم هو الله سبحانه . وهو موجود بذاته . وهم مخلوقون .

« أم خلقوا من غير شيء ؟ أم هم الخالقون ؟ » . .

وجودهم هكذا من غير شيء أمر ينكره منطق الفطرة ابتداء ؛ ولا يحتاج إلى جدل كثير أو قليل . أما أن يكونوا هم الخالقين لأنفسهم فأمر لم يدعوه ولا يدعيه مخلوق . وإذا كان هذان الفرعان لا يقومان بحكم منطق الفطرة ، فإنه لا يبقى إلا الحقيقة التي يقولها القرآن . وهي أنهم جميعا من خلق الله الواحد الذي لا يشاركه أحد في الخلق والإنشاء ؛ فلا يجوز أن يشاركه أحد في الربوبية والعبادة . . وهو منطق واضح بسيط .

كذلك يواجههم بوجود السماوات والأرض حيالهم . فهل هم خلقوها ؟ فإنها لم تخلق نفسها بطبيعة الحال كما أنهم لم يخلقوا أنفسهم :

« أم خلقوا السماوات والأرض ؟ بل لا يوقنون » . .

وهم - ولا عقل يحكم إلى منطق الفطرة - لا يقولون : إن السماوات والأرض خلقت نفسها ، أو خلقت من غير خالق . وهم كذلك لا يدعون أنهم خلقوها . . وهي قائمة حيالهم سؤالها يتطلب جوابا على وجوده ، وقد كانوا إذا سألوا عن خلق السماوات والأرض قالوا الله . . ولكن

هذه الحقيقة لم تكن تتضح في إدراكهم إلى درجة اليقين الذى ينشأ آثاره في القلب، ويحرك إلى اعتقاد واضح دقيق .. « بل لا يوقنون » ..

ثم يهبط بهم درجة عن درجة الخلق والإبداع لأنفسهم وأللسماوات والأرض . فيسألهم : هل هم يملكون خزائن الله ، ويسيطرون على القبض والبسط ، والضر والنفع :

« أم عندهم خزائن ربك ؟ أم هم للسيطرون ؟ » ..

وإذا لم يكونوا كذلك، ولم يدعوا هذه الدعوى . فمن ذا يملك الخزائن ، ومن ذا يسيطر على مقاليد الأمور ؟ القرآن يقول : إنه الله القابض الباسط ، المدبر للتصرف . وهذا هو التفسير الوحيد لما يجرى في الكون من قبض وبسط وتصريف وتدير . بمد انتفاء أن يكونوا هم للالكين للخزائن للسيطرين على تصرف الأمور !

ثم يهبط بهم درجة أخرى فيسألهم إن كانت لهم وسيلة للاستعانة إلى مصدر النزول :

« أم لهم سلم يستمعون فيه ؟ فليأت مستمعهم بسلطان مين » .

إن محمدا - صلى الله عليه وسلم - يقول لهم : إنه رسول يوحى إليه ، وإن هذا القرآن ينزل عليه من الملائكة . وهم يكذبونه فيما يقول . فهل لهم سلم يستمعون فيه ، فيعلموا أن محمدا لا يوحى إليه ، وأن الحق غير ما يقول ؟ : « فليأت مستمعهم بسلطان مين » . أى يرهان قوى يحمل في ذاته سلطانا على النفوس يلجأ إليها التصديق . وفي هذا تلميح إلى سلطان القرآن الذى يطالعهم في آياته وحججه ، وهم يكابرون فيها ويماندون !

ثم يناقش إحدى مقولاتهم المتناقضة عن الله سبحانه . تلك التى ينسبون إليه فيها بنوة الملائكة ، الذين يتصورونهم إنانا ؛ موجه الخطاب مباشرة إليهم ، زيادة في التخجيل والترذيل :

« أم له البنات ولكم البنون ؟ » .

وهم كانوا يعتبرون البنات في درجة أقل من درجة البنين ، إلى حد أن تسود وجوههم من الكمد والكظم حين يبشرون بالأنثى . وكانوا مع هذا لا يستحيون من نسبة البنات إلى الله ! فهو هنا يأخذهم برفقهم وتقاليدهم ، ليخبطهم من هذا الادعاء . وهو في ذاته متفانت لا يستقيم !

وهم كانوا يستقلون دعوة النبي لهم إلى الهدى ؛ وهو يقدمه لهم خالسا بريئا ، لا يطلب عليه أجرا ، ولا يفرض عليهم إناوة . وأيسر ما يقتضيه هذا العرض البرى أن يستقبل صاحبه

بالحسنى ، وأن يرد بالحسنى إذا لم يقبلوا ما يقدمه لهم ويمرضه عليهم . وهو هنا يستنكر مسلكتهم
الذى لا داعى له يقول :

« أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ؟ » . .

أى مثقلون من الغرم الذى تكلفهم إياه فى صورة الأجر على ما تقول ، فإذا كان الواقع أن
لا أجر ولا غرامة . فكيف يدو عملهم مستردلا قبيحا ، ينجحون منه حين يواجهون به ؟
ويود يواجههم بحقيقة وجودهم ووضعهم فى هذا الوجود . فهم عبيد لهم حدود . مكشوف لهم
من هذا الوجود بقدر . محبوب عنهم ماوراءه ، مما يختص به صاحب هذا الوجود . فهناك غيب
من اختصاص الله يقف دونه العبيد ، لا علم لهم به ، لأنهم عبيد :

« أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟ » . .

وهم يعلمون أن ليس عندهم الغيب ، وأن ليس لهم به علم ، وأن ليس لهم عليه قدرة . وأنهم
لا يكتبون فى سجل الغيب شيئا ، إنما يكتب الله فيه ما يريد ، بما يقدره للتبديد .
والذى يملك أمر الغيب وما يقدر فيه وما يدبر ، هو الذى يملك أن يدبر فيه وأن يكيد .
فما لهم وهم عن الغيب محجوبون ، وفى سجله لا يكتبون . يكتبون لك ويدبرون ، ويحسبون
أنهم قادرون على شيء من أمر المستقبل : فيقولون : شاعر تربص به رب المنون ؟ !

« أم يريدون كيدا ؟ فالذين كفروا هم الكيدون » !

وهم الذين يحرق بهم ما يقدره صاحب الغيب لهم ، وهم الذين يقع عليهم كيدهم ومكرهم . والله
خير الماكرين .

« أم لهم إله غير الله ؟ » . . يقيمهم ويتولاهم ويرد عنهم كيد الله . . « سبحانه الله عما
يشركون » وتؤمّه - سبحانه - عن تصورهم الباطل السقيم !

وبهذا التزيه لله سبحانه عن الشرك والشركاء تختم هذه الحملة للتلاحقة الخطى ، القوة
الإيقاع . وقد انكشفت كل شبهة ، ودحضت كل حجة ، ووقف القوم أمام الحقيقة العارية
مجردين من كل عنبر ومن كل دليل . عندئذ يقدمهم على حقيقتهم معاندين مكابرين يمارون فى
الحق الواضح ، متمسكين بأدنى شبهة من بعيد :

« وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا : سحب مركوم » . .

أى إنه إذا أرسل عليهم العذاب فى صورة قطعة من السماء تسقط عليهم وفيها الهلاك ، قالوا

وهم يرونها تسقط : « سبحانه مركوم » . . فيه لاء والحياة ! عنادا منهم أن يسلموا بالحق ، ولو كان السيف على رقابهم كما يقولون ! ولعله يشير بهذا إلى قصة عاد . وقولهم حين رأوا سحابة اللوت والهمار : « عارض مطرنا » . . حيث كان الرد : « بل هو ما استجلبتم به : ربح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها » . .

وعند هذا الحد من تصوير عنادهم ومكابرتهم في الحق ، ولو كان فوق رؤوسهم الهلاك ، يتجه بالخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لينفض يده من أمرهم ، ويدعهم اليوم الذي ورد ذكره ووصفه في أول السورة . وللعذاب الذي ينتظرهم من قبله . وأن يصبر لحكم ربه الذي يمهز ويرعاه ويسكلؤه . وأن يسبح بحمد ربه في الصباح حين يقوم ، ومن الليل ، وعند إديار النجوم .

« فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون . يوم لا ينفي عنهم شيئا ولا هم ينصرون . وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون . واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ، وسبح بحمد ربك حين تقوم . ومن الليل فسبحه وإديار النجوم » . .

وهو شوط جديدي في الحملة يبدأ بالتهديد ، بذلك اليوم الرعب ، يوم ينفخ في الصور فيصعقون . - قبيل البعث والنشور - يوم لا ينفعهم تدبير ولا ينصرهم نصير . فإذا كانوا اليوم يكيدون ويدبرون ، فهم في ذلك اليوم لا ينفي عنهم كيد ولا تدبير . على أن لم قبل ذلك اليوم عذابا - يتركه مجهولا ولكن أكثرهم لا يعلمون .

ويفرغ بهذا التهديد الأخير من أمر المكذبين الظالمين ، الذين طاردتهم هذه الطاردة الطويلة . المنفعة ، لينتهي بهم إلى موقف المهد الذي ينتظره العذاب من بيد ومن قريب . . يفرغ منه لينتفض إلى النبي الكريم الذي تطاول عليه للتناولون ، وتقول عليه للقولون ، يلتفت إليه - صلى الله عليه وسلم - يوجهه إلى الصبر على هذا العناء ، وهذا التكذيب ، وهذا التطاول ؛ والصبر على طريق الدعوة الشاق الطويل . تاركا الأمر لحكم الله يفعل به ما يشاء : « واصبر لحكم ربك » . .

ومع التوجيه إلى الصبر إيدان بالإعزاز الرباني ، والعناية الإلهية ، والأنس الحبيب الذي يسمح على مشقات الطريق مسحا ، ويحصل الصبر عليها أمرا محببا ، وهو الوسيلة إلى هذا الإعزاز الكريم :

« واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا » ..

وياله من تعبير ! وياله من تصور ! وياله من تقدير !
إنها مرتبة لم يبلغها قط إنسان . هذه المرتبة التي يسورها هذا التميز الفريد في القرآن كله .
حتى بين التميزات المشابهة .

لقد قيل لموسى عليه السلام : « وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى » .. وقيل له : « وألقيت عليك حبة منى ولصنع على عيني » .. وقيل له : « واصطنتك لنفسى » ..
وكلها تعبيرات تدل على مقامات رفيعة . ولكنه قيل لحمد - صلى الله عليه وسلم - : « فإنك بأعيننا » وهو تشير فيه إعزاز خاص ، وأنس خاص . وهو يلقي ظلا فريدا أرق وأشف من كل ظل .. ولأيمالك التعبير البشرى أن يترجم هذا التميز الخاص . فحسبنا أن نشير إلى ظلاله ، وأن نعيش في هذه الظلال .

ومع هذا الإنسان هداية إلى طريق الصلة الدائمة به : « وسبح بحمد ربك حين تقوم . ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم » .. فقل مدار اليوم . عند القطة من النوم . وفي ثنايا الليل . وعند إدبار النجوم في الفجر . هنالك مجال الاستمتاع بهذا الإنسان الحبيب . والتسبيح زاد وأنس ومناجاة للقلوب . فكيف بقلب المحب الحبيب القريب ???

سُورَةُ النِّجْمِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَاتُهَا ٦٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ * إِذْ يَفُشِّي السُّدْرَةَ مَا يَفُشِّي * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ .

« أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ * أَلَمْ يَكُنَّ الْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذْ قَسَمَ خَبْرُهَا * إِنَّ هِيَ إِلَّا أُنثَىٰ سَمِعْتُمُوهَا أَنْتُمْ * وَأَبَاكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا * مِنْ سُلْطَانٍ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ، وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ * أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَنَىٰ ؟ * فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ * وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُفْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ * إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ التَّلَاقِيكَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ * وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَإِنْ الظَّنَّ لَا يُفْنِي مِنَ الْخَلْقِ شَيْئًا .

« فَأَعْرِضْ عَنْ تَوَلَّيَ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِبَيْنِ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِبَيْنِ أَهْتَدَى * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ * الَّذِينَ يَحْتَنِبُونَ كَبَآئِرَ الْأَلَمِ وَالْفَوَاحِشِ - إِلَّا اللَّعَمَ - إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ، هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ، وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ، هُوَ أَعْلَمُ بِبَيْنِ أُنْقَى .

« أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى * وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْثَى ؟ * أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ؟ * أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِنْرَاهِمَ الَّذِي وَفَّى * أَلَا تَذَرُوْا وَادِرَةً وَزَرَ أُخْرَى * وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَى * ثُمَّ يُخْرَاهُ فِجْرَاهُ الْأَوَّلَى ؟ * وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ أَلْتَنْتَهُ ؟ * وَأَنْهُ هُوَ أَصْحَكَ وَأَبْكَى ؟ * وَأَنْهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ؟ * وَأَنْهُ خَلَقَ الْزَوْجَيْنِ الْأَذَكَرَ وَالْأُنْثَى * مِنْ نُّطْقَةٍ إِذَا تُنْقَى ؟ * وَأَنْ عَلَيْهِ النُّشْأَةُ الْآخِرَى ؟ * وَأَنْهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ؟ * وَأَنْهُ هُوَ رَبُّ الشُّعْرَى ؟ * وَأَنْهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى * وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى * وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْفَى * وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى * فَفَشَّاهَا مَا مَشَى ؟ * فَبَأَى آلَاءُ رَبِّكَ تَتَّارَى ؟ * هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذِيرِ الْأُولَى * أَرَفَتِ الْآرَافَةَ * لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ * أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ؟ * وَتَضَحَّكُونَ وَلَا تَتَكَبَّرُونَ * وَأَنْتُمْ سَادِدُونَ ؟ * فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا . . . » .

هذه السورة في عمومها كأنها منظومة موسيقية علوية ، منمعة ، يسرى التغميم في بنائها اللفظي كما يسرى في إيقاع فواصلها للوزونة المقفاة . ويلحظ هذا التغميم في السورة بصفة عامة ؛

ويبدو القصد فيه واضحا في بعض المواضع ؛ وقد زيدت لفظة أو اختيرت قافية ، لنضمن سلامة النظم ودقة إيقاعه - إلى جانب للمقاصد التي تؤديه في السياق كما هي عادة التعبير القرآني - مثل ذلك قوله : « أفرايتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى » .. فلو قال ومناة الأخرى ينكسر الوزن . ولو قال : ومناة الثالثة قطع يتمطل إيقاع القافية . ولكل كلمة قيمتها في معنى المبرة . ولكن مراعاة الوزن والقافية كذلك ملحوظة . ومثلها كلمة « إذن » في وزن الآتين بعدها : « ألكم الله ذكر وله الأثنى ؟ تلك إذن قصة ضيزى ! » فكلمة « إذن » ضرورة للوزن . وإن كانت - مع هذا - تؤدي غرضا فيا في المبرة ... وهكذا .

ذلك الإيقاع ذولون موسيقى خاص . لون يلحظ فيه النعوج والانسياب . وبخاصة في القطع الأول والقطع الأخير من السورة . وهو يتناسق بتموجه وانسيابه مع الصور والظلال الطليقة للفرقة في للقطع الأول . ومع اللعاني واللسات العلوية في للقطع الأخير . وما بينها عما هو قريب منها في الجو والموضوع .

والصور والظلال في للقطع الأول، تنبع من المجال العلوى الذى تقع فيه الأحداث النورانية والشاهد الربانية التى يصفها هذا للقطع . ومن الحركات الطليقة للروح الأمين وهو يترأى للرسول الكريم .. والصور والظلال والحركات وللشاهد والجو الروحى الصاحب ، تستمد وتمد ذلك الإيقاع التيميرى وتمتزج به ، وتتناسق معه ، وتترأى فيه ، فى توافق منغم عجيب . ثم يمد ذلك البقى جو السورة كله ، ويترك آثاره فى مقاطعها التالية ، حتى تختم بإيقاع موح شديد الإيجاء مؤثر عميق التأثير . ترتعش له كل ذرة فى الكيان البشرى وترتف معه وتستجيب .



وموضوع السورة الذى تعالجه هو موضوع السور المكية على الإطلاق: العقيدة بموضوعاتها الرئيسية : الوحي والوحدانية والآخرة . والسورة تتناول للوضوع من زاوية معينة تجه إلى بيان صدق الوحي بهذه العقيدة ووثاقته ، ووهن عقيدة الشرك وتهافت أساسها الوهمى الموهون ؛ وللقطع الأول فى السورة يستهدف بيان حقيقة الوحي وطبيعته ، ويصف مشهدين من مشاهد ، وثبتت صحته وواقعيته فى ظل هذين للشهدين ؛ ويؤكد تلقى الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن جبريل - عليه السلام - تلقى رؤية وتمكن ودقة ، وإطلاعه على آيات ربه الكبرى .

ويتحدث القطع الثانى عن آلهتهم للدعاة: اللات والعزى ومناة . وأوهامهم عن اللائحة .
 وأساطيرهم حول بنوتها لله . واعتقادهم فى هذا كله على الظن الذى لا يبنى من الحق شيئا . بينما
 الرسول - صلى الله عليه وسلم - يدعوهم إلى مادعاهم إليه عن تثبيت ورؤية ويقين .
 والقطع الثالث يلقن الرسول - صلى الله عليه وسلم - الإعراض عمن يتولى عن ذكر الله ويشغل
 نفسه بالدنيا وحدها ، ويقف عند هذا الحد لا يلم وراءه شيئا . ويشير إلى الآخرة وما فيها من
 جزاء يقوم على عمل الخلق ، وعلى علم الله بهم ، منذ أنشأهم من الأرض ، ومنذ كانوا أجنة
 فى بطون أمهاتهم . فهو أعلم بهم من أنفسهم ، وعلى أساس هذا العلم المستيقن - لا الظن والوهم -
 يكون حسابهم وجزاؤهم ، ويصير أمرهم فى نهاية اللطف

والقطع الرابع والأخير يستعرض أصول العقيدة - كما هى منذ أقدم الرسالات - من فردية
 التبعة ، ودقة الحساب ، وعدالة الجزاء . ومن انتهاء الخلق إلى ربهم التصرف فى أمرهم كله
 تصرف المشيئة المطلقة . ومع هذا لفتة إلى مصارع القابرين للكذابين . نغم بالإيقاع الأخير :
 « هذا نذير من النذر الأول . أزقت الآزفة . ليس لها من دون الله كاشفة . أفمن هذا الحديث
 تعجبون وتضحكون ، ولا تبسكون ، وأتم سامدون ؟ فاسجدوا لله واعبدوا » . . حيث يلتقى
 المطلع والختام فى الإيحاء والصور والظلال والإيقاع المام .

« والنجم إذا هوى . ماضل صاحبكم وماغوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى
 يوحى . علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى ، فكان قاب
 قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب القواد ما رأى . أفتأرونه على ما يرى ؟
 ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ ينشئ السدرة ما ينشئ .
 مازع البصر وماطئى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى » ..

فى هذا المطلع نميش لحظات فى ذلك الأفق الوضئ الطليق المرفرف الذى عاش فيه قلب محمد
 - صلوات الله وسلامه عليه - ونرف بأجحة النور المنطلقة إلى ذلك اللائ الأعلى ؛ ونستمع إلى
 الإيقاع الرخى للنساب ، فى جرس العبارة وفى ظلالها وإيحائها على السواء .

نميش لحظات مع قلب محمد - صلى الله عليه وسلم - مكشوفة عنه الحجب ، مزاحة عنه
 الأستار . يتلقى من اللائ الأعلى . يسمع ويرى ، ويحفظ ما وصى . وهى لحظات خص بها ذلك
 القلب المصطفى ؛ ولكن الله بمن على عباده ، فيصف لهم هذه اللحظات وصفا موجيا مؤثرا ، ينقل

أصداؤها وظلالها وإيحاءها إلى قلوبهم . يصف لهم رحلة هذا القلب المصني ، في رحاب اللام الأظلى . يصفها لهم خطوة خطوة ، ومشهدا مشهدا ، وحالة حالة ، حتى لكأنهم كانوا شاهديها . ويبدأ الوصف للوحي بقسم من الله سبحانه : « والنجم إذا هوى » . . . وحركة تالوازل السجم ثم هويه ودنوه ، أشبه بمشهد جبريل القسم عليه : « وهو بالأفق الأعلى » . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى » . . . وهكذا يبدأ التناسق والتوافق في المشهد والحركة والظل والإيقاع منذ اللحظة الأولى .

« والنجم إذا هوى » . . . وقد رويت تفسيرات مختلفة للنجم المقصود في هذا القسم . وأقرب ما يرد على ذهننا أنها إشارة إلى الشعري ، التي كان بعضهم يبدوها . والتي ورد ذكرها في السورة فيما بعد في قوله : « وأنه هو رب الشعري » . . . وقد كان للشعري من اهتمام الأقدمين حظ كبير . وبما هو معروف أن قدماء المصريين كانوا يوقتون فيضان النيل بعبور الشعري بالفلك الأعلى . ويرصدونها من أجل هذا ويرقبون حركاتها . ولها شأن في أساطير الفرس وأساطير العرب على السواء . فالأقرب أن تكون هذه الإشارة هنا إليها . ويكون اختيار مشهد هوى النجم مقصودا للتناسق الذي أشرنا إليه . ولعلنا نرى في الإيحاء بأن النجم منها يكن عظيما هائلا فإنه يهوى ويتغير مقامه . فلا يليق أن يكون مبدوا . فالعبود الثبات والارتفاع والدوام . ذلك هو القسم . فأما القسم عليه ، فهو أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - مع الوحي الذي يحدثهم عنه :

« ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى » . . .
فصاحبكم راشد غير ضال . مهتد غير غاو : مخلص غير مفروض . مبلغ بالحق عن الحق غير واهم ولا مغتر ولا مبتدع . ولا ناطق عن الهوى فيما ييلفكم من الرسالة . إن هو إلا وحي يوحى . وهو ييلفكم ما يوحى إليه صادقا آمنا .

هذا الوحي معروف حامله . مستقيم طريقه . مشهودة رحلته . رآه الرسول - صلى الله عليه وسلم - رأي العين والقلب ، فلم يكن واهما ولا مخدوعا :

« علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى » . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى . أفباركته على ما يرى ؟ .. والشديد القوى ذو المرة « أى القوة » هو جبريل - عليه السلام - وهو الذي علم صاحبكم ما بلغه إليك . وهذا هو الطريق ، وهذه هي الرحلة ، مشهودة بدقاقتها : استوى وهو

بالأنفى الأعلى . حيث رآه محمد - صلى الله عليه وسلم - وكان ذلك في مبدأ الوحي . حين رآه على صورته التي خلقه الله عليها ، يد الأنفى بخلق الهائل . ثم دنا منه فدخل نازلا مقتربا إليه . فكان أقرب ما يكون منه . على بعد ما بين القوسين أو أدنى - وهو تعبير عن منتهى القرب - فأوحى إلى عبد الله ما أوحى . بهذا الإجمال والفضيل والتحويل .

فبى رؤية عن قرب بعد التردى عن بعد . وهو وحى وتلميح ومشاهدة ويقين .
وهى حال لا يتأتى معها كذب فى الرؤية ، ولا تختمل عماراة أو مجادلة : « ما كذب القواد ما رأى . أفتبارونه على ما يرى ؟ » . . ورؤية القواد أصدق وأثبت ، لأنها تنفى خداع النظر . فقد رأى فثبت فاستيقن فزاده أنه للالك ، حامل الوحي ، رسول ربه إليه ، ليعلمه ويكلفه .
يلبغ ما يعلم . واتشى للراء والجدال ، لما عاد لها مكان بعد تثبت القلب ويقين القواد .
وليس هذه هى المرة الوحيدة التى رآه فيها على صورته . فقد تكررت مرة أخرى :
« ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدره المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يمشى السدرة ما يشى . مازاغ البصر وما طنى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى » .

وكان ذلك فى ليلة الإسراء والمعراج - على الراجح من الروايات - فقد دنا منه - وهو على هيئته التى خلقه الله بها مرة أخرى « عند سدره المنتهى » . : والسدرة كما يعرف من اللفظ شجرة . فأما أنها سدرة المنتهى . فقد يعنى هذا أنها التى ينتهى إليها اللطاف . لجنة المأوى عندها . أو التى انتهت إليها رحلة المعراج . أو التى انتهت إليها محبة جبريل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيث وقف هو وصمد محمد - صلى الله عليه وسلم - درجة أخرى أقرب إلى عرش ربه وأدنى . . وكله غيب من غيب الله ، أطلع عليه عبده المصطفى ، ولم يرد إلينا عنه إلا هذا . وكله أمر فوق طاقتنا أن ندرك كيفيته . فلا يدركها الإنسان إلا بعيشة من خالقه وخالق الملائكة ، العلم بخصائص الإنسان وخصائص الملائكة . .

وبذكر ما لابس هذه الرؤية عند سدره المنتهى . زيادة فى التوكيد واليقين : « إذ يمشى السدرة ما يمشى » . . مما لا يفصله ولا يحدده . فقد كان أهول وأضخم من الوصف والتحديد . وكان ذلك كله حقا يقينا : « مازاغ البصر وما طنى » . . فلم يكن زغلة عين ، ولا تجاوز رؤية . إنما هى المشاهدة الواضحة المحققة ، التى لا تختمل شك ولا ظنا . وقد عاين فيها من آيات ربه الكبرى ، واتصل قلبه بالحقيقة عارية مباشرة مكشوفة .

فالأمر إذن - أمر الوحي - أمر عيان مشهود . ورؤية محققة . ويقين جازم . واتصال

مباشر . ومعرفة مؤكدة . ومحنة محسوسة . ورحلة واقعية . بكل تفصيلاتها ومراجعتها . وعلى هذا اليقين تقوم دعوة «صاحبكم» الذي تسكرون عليه وتكذبونه وتشككون في صدق الوحي إليه . وهو صاحبكم الذي عرفتموه وخبرتموه . وما هو بغير رب عنكم فتجلبوه . وربّه يصدقه ويقسم على صدقه . ويقص عليكم كيف أوحى إليه . وفي أى الظروف . وعلى يد من وكيف لاقاه . وابن رآه !

ذلك هو الأمر المستيقن ، الذى يدعوم إليه محمد - صلى الله عليه وسلم - فأمامهم فعلام يستندون في عبادتهم وآلهتهم وأساطيرهم ؟ علام يستندون في عبادتهم للات والعزى ومناة؟ وفي ادعائهم الغامض أنهم ملائكة ، وأن للملائكة بنات الله ؟ وأن لمن شفاعته ترتجى عند الله ؟ إلى أى بيعة ؟ وإلى أية حجة ؟ وإلى أى سلطان يرتكبون في هذه الأوهام ؟ هذا ما يبالغه القطع الثانى في السورة :

« أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى . ألم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذن قسمة حيزى ! إن هى إلا أسماء سميتوهن أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى . أم للإنسان مأتى ؟ فقله الآخرة والأولى . وكم من ملك في السجوات لا تغنى شفاعتهم شيئا ، إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى . إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون اللاتئكة تسمية الأنثى . وما لهم به من علم ، إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لا يبنى من الحق شيئا .. »

وكانت « اللات » صخرة بيضاء منقوشة ، وعليها بيت بالطائف له أستار وسدنة ، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف وهم تقيف ومن تابها ، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب عدا قريش لأن عندهم الكعبة بيت إبراهيم عليه السلام . ويظن أن اسمها « اللات » مؤنث لفظ الجلالة « الله » . سبحانه وتعالى .

وكانت «العزى» شجرة عليها بناء وأستار بنخله - وهى بين مكة والطائف - وكانت قريش تعظمها . كما قال أبو سفيان يوم أحد . لنا العزى ولا عزى لكم . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم » . ويظن أن اسمها « العزى » مؤنث « العزى » ..

وكانت « مناة » بالمثل عند قديد بين مكة والمدينة. وكانت خزاعة والأوس والحزرج فيه جاهليتهم يعظمونها ، ويهلون منها للحج إلى الكعبة .
وكان بالجزيرة كثير من هذه للمبودات تعظمها القبائل المختلفة . ولكن هذه الثلاثة كانت أعظمها .

والظنون أن هذه المعبودات كانت رموزا للملائكة . يستبرهن العرب إنانا ويقولون : إنهن بنات الله . ومن هنا جاءت عبادتها ، والذي يقع غالباً أن ينسب الأصل ، ثم تصبح هذه الرموز معبودات بذاتها عند جمهرة العباد . ولاتبقى إلا قلة متتورة هي التي تذكر أصل الأسطورة !
فما ذكر الله هذه المعبودات الثلاثة معجبا منها ومن عبادتها كما تفيد صيغة السؤال ولفظه :
« أفرأيت اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى ؟ » ..
والتمجيب والتشهير واضح في افتتاح السؤال : « أفرأيت ؟ » وفي الحديث عن مناة . .
الثالثة الأخرى . .

لما ذكر الله هذه المعبودات عقب عليها باستنكار دعواهم أن لله الإناث وأن لهم الذكور :
« ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذن قسمة ضيزى » ..
بما يوحى بأن لهذه المعبودات صلة بأسطورة أنوثة للملائكة ، ونسبتها إلى الله سبحانه . مما يرجح ما ذكرناه عنها . وقد كانوا هم يكرهون ولادة البنات لهم . ومع هذا لم يستحيوا أن يجعلوا للملائكة إنانا - وهم لا يعلمون عنهم شيئاً يلزمهم بهذا التصور . وأن ينسبوا هؤلاء الإناث إلى الله !

والله - سبحانه - يأخذهم هنا بتصوراتهم وأساطيرهم ؛ ويسخر منها ومنهم : « ألكم الذكر وله الأنثى ؟ » .. إنها إذن قسمة غير عادلة قسمتكم بين أنفسكم وبين الله ! « تلك إذن قسمة ضيزى ! » ..

والسألة كلها وهم لا أساس له من العلم ولا من الواقع . ولا حجة فيها ولا دليل :
« إن هي إلا أسماء يسميها أتم وأباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس . ولقد جاءهم من ربهم الهدى » !

هذه الأسماء . اللات . العزى . مناة .. وغيرها . وتسميتها آلهة وتسميتها ملائكة . وتسمية للملائكة إنانا . وتسمية الإناث بنات الله . . . كلها أسماء لا مدلول لها ، ولا حقيقة وراءها .

ولم يجعل الله لكم حجة فيها . وكل ما لم يقرره الله فلا قوة فيه ولا سلطان له . لأنه لا حقيقة له .
والحقيقة نقل . وللحقيقة قوة . وللحقيقة سلطان . فأما الأباطيل فهي خفيفة لا وزن لها . ضعيفة
لا قوة لها . مهينة لا سلطان فيها .

وفي منتصف الآية يتركهم وأوهامهم وأساطيرهم ، ويترك خطابهم ، ويلفت عنهم كأنهم لا وجود
لهم ، ويتحدث عنهم بصيغة الغائب : « إن يتيمون إلا الظن وما تهوى الأنفس » . فلا حجة
ولا علم ولا يقين . إنما هو الظن يقيمون عليه العقيدة ، والهوى يستمدون منه الدليل . والعقيدة
لا مجال فيها للظن والهوى ؛ ولا بد فيها من اليقين القاطع والتجرد من الهوى والبرض .. وهم
لم يتبعوا الظن والهوى ولم عذر أو علة : « ولقد جاءهم من ربهم الهدى » . فاقطع العذر
وبطل التعلل !

ومضى انتهى الأمر إلى شهوة النفس وهواها فلن يستقيم أمر ، ولن يجدى هدى ؛ لأن العلة
هنا ليست خفاء الحق ، ولا ضعف الدليل . إنما هي الهوى الجامع الذي يريد ، ثم يبحث بعد
ذلك عن مبرر لما يريد ! وهى شر حالة تصاب بها النفس فلا ينفعها الهدى ، ولا يقنعها الدليل ؛
ومن ثم يسأل في استسكار :
« أم للإنسان ما تمنى ؟ » ..

فكل ما يتمنى يتحول إلى حقيقة وكل ما يهوى ينقلب إلى واقع ! والأمر ليس كذلك . فإن
الحق حق والواقع واقع . وهوى النفس ومناها لا يغيران ولا يبدلان في الحقائق . إنما يضل
الإنسان بهواه ، ويهلك بتمناه . وهو أضل من أن يغير أو يبدل في طبائع الأشياء . وإنما الأمر
كله لله يتصرف فيه كما يشاء في الدنيا وفي الآخرة سواء :
« فله الآخرة والأولى » ..

ولأننى أن نلاحظ هنا تقديم الآخرة على الأولى . لمرأاة قافية السورة وإيقاعها . إلى جانب
النكتة اللغوية للنصودة بتقديم الآخرة على الأولى . كما هى طبيعة الأسلوب القرآنى في الجمع
بين أداء المعنى وتنعيم الإيقاع . دون إخلال بهذاضى حساب ذلك ! شأنه شأن كل ما هو من معن
الله . فالجلال فى الكون كله يتناسق مع الوظيفة ويؤاخيها !
وإذا خلس الأمر كله لله فى الآخرة والأولى . فإن أوهام للشركين عن شفاعة الآلهة الدعاة
— من اللائكة — لهم عند الله . كما قالوا : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » .. إن هذه

الأوهام لأصل لها . فالثلاثكة الحققة في السماء لآتمالك الشفاعة لإلحين يأذن الله في شيء منها :
« وكُم من ملك في السماوات لا تنفى شفاعتهم شيئا . إلامن بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » . . .

ومن ثم تسقط دعواهم من أساسها . فوق ما فيها من بطلان تولى تنفيذه في الآيات السابقة .
وتتجرد العقيدة من كل غش أو شبهة . فالأمر لله في الآخرة والأولى . وفى الإنسان لا تغير من الحق الواقع شيئا . والشفاعة لا تقبل إلا بأذن من الله ورضى . فالأمر إليه في النهاية . والآنجاه إليه وحده في الآخرة والأولى .

وفي نهاية الفقرة يناقش للمرة الأخيرة أوهام للتركين - الذين لا يؤمنون بالآخرة - عن الملائكة ؛ ويكشف عن أساسها الواهى ، الذى لا يبنى أن تقوم عليه عقيدة أصلا :
« إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون للملائكة تسمية الأنثى . وما لهم به من علم . إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لا يبنى عن الحق شيئا » . . .

وهذا التقيب الأخير يوحى بملاقة اللات والمزى ومناة بأسطورة أنوثة للملائكة ونسبتهم إلى الله سبحانه ، وهى أسطورة واهية ، لا يتبعون فيها إلا الظن . فليس لهم من وسيلة لأن يعلموا شيئا مستيقنا عن طبيعة الملائكة . فأما نسبتهم إلى الله . فهى الباطل الذى لا دليل عليه إلا اللوم الباطل ، وكل هذا لا يبنى عن الحق ، ولا يقوم مقامه فى شيء . الحق الذى يتركونه ويستغنون عنه بالأوهام والظنون !



وحيث يبلغ إلى هذا الحد من بيان وهن عقيدة الشرك وتهافتها عند الذين لا يؤمنون بالآخرة ، ويشركون بالله ، وينسبون له البنات ويسمون للملائكة تسمية الأنثى ، يتجه بالحطاب إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليحمل شأنهم ويعرض عنهم ، ويدع أمرهم لله الذى يعلم السوء والحسن ، ويمجزى للهدى والضال ، ويملك أمر السماوات والأرض ، وأمر الدنيا والآخرة ، ويحاسب بالعدل لا يظلم أحدا ، ويتجاوز عن الذنوب التى لا يصر عليها فاعلوها . وهو الخبير بالنوايا والطوايا ، لأنه خالق البشر اللطع على حقيقتهم فى أطوار حياتهم جميعا :

« فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا . ذلك مبلغهم من العلم . إن وبك هو أعلم بمن مثل عن سيئه وهو أعلم بمن اهتدى . والله مافى السماوات وما فى الأرض .

ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويمزي الذين أحسنوا بالحقى . الذين يمتنون كبار الإنم والقواحش - إلا الله - إن ربك واسع المغفرة . هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ، وإذ أتم أجنة فى بطون أمهاتكم . فلا تزكوا أنفسكم . هو أعلم بمن اتقى » .

هذا الأمر بالإعراض عمن تولى عن ذكر الله ، ولم يؤمن بالآخرة ، ولم يرد إلا الحياة الدنيا . موجه ابتداء إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليجل شأن أولئك الشركين الذين سبق الحديث فى الدورة عن أساطيرهم وأوهامهم وعدم إيمانهم بالآخرة .

وهو موجه بد ذلك إلى كل مسلم يواجهه من يتولى عن ذكر الله ويعرض عن الإيمان به ؛ ويجعل وجهته الحياة الدنيا وحدها ، لا ينظر إلى شىء وراءها ، ولا يؤمن بالآخرة ولا يحسب حسابها . ويرى أن حياة الإنسان على هذه الأرض هى غاية وجوده ، لا غاية بعدها ؛ وقيم منهجه فى الحياة على هذا الاعتبار ، يفصل ضمير الإنسان عن الشعور بالله يدبر أمره ، ويحاسبه على عمله ، بعد رحلة الأرض المحدودة . وأقرب من تتمثل فيه هذه الصفة فى زماننا هذا هم أصحاب المذاهب للادية .

والمؤمن بالله وبالآخرة لا يستطيع أن يشغل بالله - فضلا على أن يامل أو يبايش - من يمرض عن ذكر الله ، وينى الآخرة من حسابها . لأن لكل منها منهجا فى الحياة لبلنقيان فى خطوة واحدة من خطواته ، ولا فى نقطة واحدة من نقاطه . وجميع مقاييس الحياة ، وجميع قيمها ، وجميع أهدافها ، تختلف فى تصور كل منها . فلا يمكن إذن أن يتماونا فى الحياة أى تعاون ، ولا أن يشتركا فى أى نشاط على هذه الأرض . مع هذا الاختلاف الرئيسى فى تصور قيم الحياة وأهدافها ومناهج النشاط فيها ، وغاية هذا النشاط . ومادام التعاون والمشاركة متعذرين لما داعى الاهتمام والاحتفال ؟ إن اللؤمن يبعث حين يحفل شأن هؤلاء الذين يمرضون عن ذكر الله ولا يريدون إلا الحياة الدنيا ، ويتفق طاقته التى وهب الله إياها فى غير موضعها .

على أن للإعراض اتجاهها آخر ، هو التبرين من شأن هذه الفئة . فئة الذين لا يؤمنون بالله ؛ ولا يتقنون شيئا وراء الحياة الدنيا . فيها كان شأنهم فهم محجوبون عن الحقيقة ، قاصرون عن إدراكها ، واقفون وراء الأسوار . أسوار الحياة الدنيا . « ذلك مبليهم من العلم » . وهو : يلج تأفه بها بدا عظيما . قاصر منها بدا شاملا . مضلل منها بدا هاديا . وما يمكن أن يعلم شيئا ذاقية من يقف بقلبه وحسه وعقله عند حدود هذه الأرض . ووراءها - حتى فى رأى العين -

عالم هائل لم يخلق نفسه . ووجوده هكذا أمر ترفضه البداهة . ولم يوجد عبثا متى كان له خالق .
وإنه لبث أن تكون الحياة الدنيا هي نهاية هذا الخلق الهائل وغايته . . فإدراك حقيقة هذا
الكون من أى طرف من أطرافها كفى بالإيمان بالخالق . وكفى كذلك بالإيمان بالآخرة .
فيا للمبث عن هذا الخالق العظيم الذى يدع هذا الكون الكبير .

ومن ثم يجب الإعراض عن تولى عن ذكر الله ويقف عند حدود الدنيا ، الإعراض على
سبيل صيانة الاهتمام أن يبدل في غير موضعه . والإعراض على سبيل التهوين والاحتقار لمن هذا
بلغ علمه . ونحن مأمورون بهذا إن أردنا أن نتلقى أمر الله لنطيعه . لالتقول كما قالت يهود :
سمنا وعسينا . . والياذ بالله من هذا !

« إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى » ..

وقد علم أن هؤلاء ضالون . فلم يرد لثيبه ولألسنته من أمته أن يشغلوا أنفسهم بشأن
الضالين . ولأن أصحابهم . ولأن يحفلهم . ولأن يمدعوا في ظاهر علمهم للضل القاصر ،
الذى يقف عند حدود الحياة الدنيا . ويحول بين الإدراك البشرى والحقيقة الخالصة ، التى تقود
من يدركها إلى الإيمان بالله ، والإيمان بالآخرة ، وتتخطى به حدود هذه الأرض القريبة ،
وهذه الحياة الدنيا المحدودة .

وإن العلم الذى يلقنه هؤلاء القاصرون الضالون ليدو في أعين العوام وأشباههم . عوام
القلب والإدراك والحس . شيئا عظيما ذا فاعلية وأثر في واقع الحياة الدنيا . ولكن هذا لا ينفى
صفة الضلال عنهم في النهاية ، ولاصفة الجهل والقصور . حقيقة الارتباط بين هذا الوجود
وخالقه . وحقيقة الارتباط بين عمل الإنسان وجزائه . هاتان الحقيقتان ضرورتان لكل علم
حق . وبدونها يبقى العلم قدورا لا تؤثر في حياة الإنسان ولا ترقىها ولا ترفعها . وقيمة كل علم
مرهونة بأثره في النفس وفي ارتباطات البشر الأدبية . وإلا فهو تقدم في الآلات واستكس في
الآدميين . وما أبأس من علم هذا الذى ترتقى فيه الآلات على حساب الآدميين !!

وشعور الإنسان بأن له خالقا خلقه وخلق هذا الكون كله ، وفق ناموس واحد
متناسق . يغير من شعوره بالحياة ، وشعوره بما حوله وبمن حوله ؛ ويجعل لوجوده قيمة وهدفا
وغاية أكبر وأشمل وأرفع ، لأن وجوده مرتبط بهذا الكون كله ؛ فهو أكبر من ذاته
للمدودة الأيام . وأكبر من أسرته للمدودة الأفراد . وأكبر من قومه ، وأكبر من وطنه ،

وأكبر من طبقته التي يطنطن بها أصحاب اللذاهب المادية الجديدة . وأرفع من اهتمامات هذه التشكيلات جميعا !

وشعور الإنسان بأن خالقه محاسبه في الآخرة وبجوابه . يغير من تصوراته ومن موازينه ومن حوافزه ومن أهدافه . ويربط الحاسة الأخلاقية في نفسه بعصره كله ، فيزيدها قوة وفاعلية . لأن هلاكه أو نجاته مرهونة بيقظة هذه الحاسة وتأثيرها في نيته وعمله . ومن ثم يقوى « الإنسان » وسيطر على تصرفات هذا الكائن . لأن الرقيب الحارس قد استيقظ ! ولأن الحساب الختامي ينتظره هناك . ومن الناحية الأخرى فهو مطمئن إلى الخير واثق من انتصاره في الحساب الختامي . حق لو رآه ينهزم في الأرض في بعض الجولات ! وهو مكافئ دائماً أن ينصر الخير ويكافح في سبيله سواء هزم في هذه الأرض أو انتصر لأن الجزاء النهائي هناك ! إنها مسألة كبيرة هذا الإيمان بالله والإيمان بالآخرة . مسألة أساسية في حياة البشر . إنها حاجة أكبر من حاجات الطعام والشراب والكساء . وإنها إما أن تكون فيكون « الإنسان » وإما ألا تكون فهو حيوان من ذلك الحيوان !

وحين تفرق المايير والأهداف والغايات وتصور الحياة كلها هذا الاختلاف ، فلا مجال حينئذ إلى مشاركة أو تعامل أو حتى تعارف ينشأ عنه قسط من الاهتمام .

ومن ثم لا يمكن أن تقوم علاقة أو صفة أو شركة أو تعاون ، أو أخذ وعطاء ، أو اهتمام واحتفال بين مؤمن بالله ، وآخر أعرض عن ذكره ولم يرد إلا الحياة الدنيا . وكل قول غير هذا فهو محال ومراء ، يخالف عن أمر الله : « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا » ..

« والله ما في السماوات وما في الأرض . ليعجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين آمنوا ما حسنوا بالحسنى » ..

وهذا التقرير للملكية الله - وحده - لما في السماوات وما في الأرض ، بمنع قضية الآخرة قوة وتأثيرا . فالتى جعل الآخرة وقدرها هو الذى يملك ما في السماوات وما في الأرض وحده ، فهو القادر على الجزاء ، المختص به ، السالك لأسبابه . ومن شأن هذه الملكية أن تحقق الجزاء الكامل العادل : « ليعجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » ..

ثم يحمد الذين أحسنوا هؤلاء ، والذين يجزيهم بالحسنى .. فهم :

« الذين يحننون كبار الإثم والقواحي . إلا اللهم » ..

وكبار الإثم هي كبار المعاصي . والقواحي كل ما عظم من الذنب وغش . والله مختلف الأقوال فيه . فابن كثير يقول : وهذا استثناء منقطع لأن الله من صفات الذنوب ومحقرات الأعمال . قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : ما رأيت شيئا أشبه بالله مما قال أبو هريرة ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن الله تعالى إذا كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لأحالة . فزنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق ، والنفس تحنى وتشتى ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » (١) .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن ثور ، حدثنا معمر ، عن الأعمش ، عن أبي الضحى أن ابن مسعود قال : زنا العين النظر ، وزنا الشفتين التقيل ، وزنا اليدين البطش ، وزنا الرجلين المشي . ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه . فإن تقدم بفرجه كان زانيا وإلا فهو الله . وكذا قال مسروق والشعي .

وقال عبد الرحمن ابن نافع الذي يقال له ابن لبابة الطائفي ، قال : سألت أبا هريرة عن قول الله : « إلا اللهم » قال : القبلة والنظرة والمغزاة والباشرة . فإذا مس الحتان الحتان فقد وجب النسل . وهو الزنا .

فهذه أقوال متقاربة في تعريف الله .

وهناك أقوال أخرى :

قال علي ابن طلحة عن ابن عباس : « إلا الله » إلا ما سلف . وكذا قال زيد ابن أسلم . وقال ابن جرير : حدثنا ابن لثقي ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن منصور ، عن مجاهد ، أنه قال في هذه الآية : « إلا الله » قال : الذي يلم بالذنوب ثم يده .

وقال ابن جرير : حدثني سليمان ابن عبد الجبار : حدثنا أبو عاصم ، حدثنا زكريا عن ابن إسحاق ، عن عمرو ابن دينار ، عن عطاء ، عن ابن عباس : « الذين يحننون كبار الإثم والقواحي إلا الله » . قال : هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب . وقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إن تضر الله تضر جما وأي عبد لك ما ألما ؟

(١) أخرجه في الصحيحين من حديث عبد الرزاق .

وهكذا رواه الترمذي عن أحمد ابن عثمان البصري عن أبي عاصم النبيل . ثم قال : هذا حديث صحيح حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث زكريا ابن إسحاق . وكذا قال البزار لا نعلمه يروى متصلا إلا من هذا الوجه .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد ابن عبد الله ابن يزيد . حدثنا يزيد ابن زريع . حدثنا يونس ، عن الحسن ، عن أبي هريرة - رضى الله عنه - (أراه رفعه) في « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم » . قال : اللمة من الزنا ثم يتوب ولا يعود . واللمة من السرقة ثم يتوب ولا يعود . واللمة من شرب الخمر ثم يتوب ولا يعود . قال : فذلك الإلمام . . . وروى مثل هذا موقوفا على الحسن .

فهذه طائفة أخرى من الأقوال تحدد معنى اللمم تحديدا غير الأول .
والذي نراه أن هذا القول الأخير أكثر تناسبا مع قوله تعالى بمد ذلك : « إن ربك واسع المغفرة » . . فذكر سمة المغفرة يناسب أن يكون اللمم هو الإتيان بتلك الكبائر والفواحش ، ثم التوبة . ويكون الاستثناء غير منقطع . ويكون الذين أحسنوا هم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش . إلا أن يعموا في شيء منها ثم يعودوا سريرا ولا يلجوا ولا يصروا . كما قال الله سبحانه : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم - ومن يغفر الذنوب إلا الله - ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » . . ومضى هؤلاء « للتعين » ووعدهم مغفرة وجنة عرضها السماوات والأرض ^(١) . . فهذا هو الأقرب إلى رحمة الله ومغفرته الواسعة .

وختم الآية بأن هذا الجزاء بالسوء وبالحسن مستند إلى علم الله بحقيقة دخائل الناس في أطوارهم كلها .

« هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ، وإذا أنتم أجنة في بطون أمهاتكم » . .
فهو العلم السابق على ظاهر أفعالهم . العلم بالملق بحقيقتهم الثابتة ، التي لا يملونها هم ، ولا يعرفها إلا الذي خلقهم . علم كان وهو ينشئ أصلهم من الأرض وهم بمد في عالم التيب . وكان وهم أجنة في بطون أمهاتهم لم يروا النور بمد . علم بالحقيقة قبل الظاهر . وبالطبيعة قبل العمل .

(١) سورة آل عمران [١٣٣ - ١٣٦] .

ومن كانت هذه طبيعة علمه يسكون من اللغو — بل من سوء الأدب — أن يعرفه إنسان بنفسه، وأن يعلمه — سبحانه — بحقيقته ! وأن يثنى على نفسه أمامه يقول له : أنا كذا وأنا كذا :
 « فلا تركوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » . .
 فما هو بحاجة إلى أن تدلوه على أنفسكم ، ولا أن تزنوا له أعمالكم ؟ فمنده العلم الكامل .
 وعنده الميزان الدقيق . وجزاء العدل . وقوله الفصل . وإليه يرجع الأمر كله .

بعد ذلك يجيء القطع الأخير في السورة . في إيقاع كامل التنعيم . أشبه بإيقاع المقطع الأول .
 يقرر الحقائق الأساسية للعقيدة كما هي ثابتة منذ إبراهيم صاحب الخليفة الأولى . ويسرف البشر بخالقهم ، بتعليمهم بتشيته القاعة المبدعة للوثة في حياتهم . ويرض آثارها واحدا واحدا بصورة تلس الوجدان البشري . وتذكره وتهزه هذا عميقا . . حتى إذا كان الختام وكان الإيقاع الأخير تلقته الشاعر مرتجفة مرتعشة متأثرة مستجيبة :

« أفرأيت الذي تولى ، وأعطى قليلا وكدي ؟ أعنده علم الغيب فهو يرى ؟ أم لم ينبأ بما في صحف موسى ، وإبراهيم الذي وفى . ألا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأولي . وأن إلى ربك المنتهى . وأنه هو أضحك وأبكى . وأنه هو أمات وأحيا . وأنه خلق الزوجين الله كرا والأنثى من نطفة إذا تمنى . وأن عليه النشأة الأخرى ، وأنه هو أغنى وأقنى . وأنه هو رب السمى . وأنه أهلك عادا الأولى . وثمود فما أبقى . وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى . وللؤفكة أهوى . ففشاها ما غشى . فبأى آلاء ربك تنارى ؟

« هذا نذير من النذر الأولى . أذفت الألفة . ليس لها من دون الله كاشفة . أفئن هذا الحديث تمجيون ، وتضحكون ولا تبسكون ، وأنتم سامدون ؟
 « فاسجدوا لله واعبدوا » . .

وذلك « الذى تولى ، وأعطى قليلا وكدي » . . الذى يجب الله من أمره الغريب ، تذكر بعض الروايات أنه فرد معين مقصود ، أشفق قليلا في سبيل الله ، ثم اشطع عن البذل خوفا من القمر . ويحمد الزمخشرى في تفسيره « الكشف » شخصه أنه عثمان ابن عفان — رضى الله عنه — ويدكر في ذلك قصة ، لا يستند فيها إلى شيء ، ولا يقبلها من يعرف عثمان — رضى الله عنه —

وطيعته وبذله الكثير الطويل في سبيل الله بلاتوقف وبإحساب كذلك ؟ وعقيدته في الله وتصوره لثبته العمل وفرديته (١) .

وقد يكون المقصود شخصا بذاته . وقد يكون نموذجاً من الناس سواء . فالذي يتولى عن هذا التهج ، وينزل من ماله أو من نفسه لهذه العقيدة ثم يكدي — أى يضعف عن المواصلة ويكف — أمره عجيب ، يستحق التعجب . ويتخذ القرآن من حاله مناسبة لمرض حقائق العقيدة وتوضيحها .

« أئنه علم التيب فهو يرى ؟ » . .

والتيب لله . لا يراه أحد سواء . فلا يأمن الإنسان ماخيه فيه ؟ وعليه أن يواصل عمله وبذله ، وأن يمشى حذراً موفياً طوال حياته؛ ولا لينك ثم ينقطع ، ولا ضمان له في التيب المجهول إلا لحدوه وعمله ووفائه ، ورجاؤه بهذا كله في مغفرة الله وقبوله .

« أم لم يئبأ بما في مصف موسى ، وإبراهيم الذي وفي ... » . .

وهذا الدين قديم ، موصولة أوائله وأواخره ، ثابتة أصوله وقواعده ، يصدق بضه بعضاً على توالى الرسالات والرسل ، وتباعد السكان والزمان . فهو في مصف موسى . وهو في ملة إبراهيم قبل موسى . إبراهيم الذي وفى . وفى بكل شيء . وفى وفاء مطلقاً استحق بهذا الوصف اللطيق . ويذكر الوفاء هنا في مقابل الإكداء والانتقطاع ، ويذكر بهذه الصيغة (وفى) بالتشديد تنبيهاً للإيقاع النعم وللغافاة المطردة .

فإذا في مصف موسى ، وإبراهيم الذي وفى ؟ فيها :

« الأثر وزرة وذو أخرى » ..

فلا تعمل نفس حمل أخرى ؟ لا تخفيا عن نفس ولا تتجلا على أخرى . فلا تملك نفس أن تتخفف من حملها ووزرها . ولا تملك نفس أن تتطوع فتحمل عن نفس شيئاً

(١) قال : « روى أن هئان — رضى الله عنه — كان يمشى ماله في الخير . فقال له عبد الله ابن سعد ابن أبي سرح — وهو أخوه من الرضاعة — يوشك أن لا يبق لك شيء . فقال هئان : إن لى ذنوباً وخطايا . وإن أطلب بما أسئتم رضى الله تعالى ، وأرجو عفو . فقال عبد الله : أعطنى ثالثك برجلها وأنا أعمل عنك ذنوبك كلها ! فأعطاه وأشهد عليه ، وأسكت من الطلاء . فنزلت ! » . . . وهى رواية ظاهرة البطلان . فما حكمنا بـ تصور هئان !

(* — فى ظلال القرآن [٢٧])

« وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » ..

كذلك . فإي عسب للإنسان إلا كسبه وسعيه وعمله . لا يزداد عليه شيء من عمل غيره . ولا ينقص منه شيء لئله غيره . وهذه الحياة الدنيا هي الفرصة للعطاء له ليعمل ويسعى . فإذا مات ذهبت الفرصة وانقطع العمل . إلامانص عليه حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في قوله : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : من ولد صالح يدعو له . أو صدقة جارية من بعده . أو علم ينتفع به » ^(١) .. وهذه الثلاثة في حقيقتها من عمله . ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعي - رحمه الله - ومن اتبعه أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الوتر ، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم . ولهذا لم يندب إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمته ، ولا حثهم عليه ، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إجماع ، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة - رضي الله عنهم - ولو كان خيرا لبقونا إليه . وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء . فأما الدعاء والصدقة فذلك مجمع على وصولها ومنعوص من الشارع عليها ^(٢) ..

« وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى » ..

فلن يضيع شيء من السعي والعمل والكسب ؛ ولن يغيب شيء عن علم الله وميزانه الدقيق . وسينال كل امرئ جزاء سعيه وإفيا كاملا لا نقص فيه ولا ظلم . وكذلك يتحدد مبدأ فردية التبعة ، إلى جانب عدالة الجزاء . فتتحقق للإنسان قبحته الإنسانية . القائمة على اعتباره مخلوقا راشدا مسؤولا مؤتمنا على نفسه ؛ كريمة تاح له الفرصة للعمل ثم يؤخذ بما عمل . وتحقق له كذلك الطمأنينة على عدالة الجزاء . عدالة مطلقة لا يميل بها المحوى ، ولا يقدّم بها القصور ، ولا ينقص منها الجهل بمخاتق الأمور .

« وأن إلى ربك المنتهى » ..

فلا طريق إلا الطريق الذي ينتهي إليه . ولا ملجأ من دونه . ولا مأوى إلا داره . في نعيم أو جحيم . . . ولهذا الحقيقة قيمتها وأثرها في تكييف مشاعر الإنسان وتصوره . فحين يحس أن المنتهى إلى الله . منتهى كل شيء . وكل أمر . وكل أحد . فإنه يستشعر من أول الطريق نهايته التي لا مفر منها ولا محص عنها . ويصوغ نفسه وعمله وفق هذه الحقيقة ؛ أو يحاول في هذا ما يستطيع . ويظل قلبه ونظره معلقين بتلك النهاية منذ أول الطريق !

(١) أخرجه مسلم في صحيحه - بإسناده - عن أبي هريرة .

(٢) ابن كثير في التفسير .

وبعد ما يصل السياق بالقلب البشرى إلى نهاية اللطاف بكر راجعا به إلى الحياة : يريه فيها آثار مشيئة الله . في كل مرحلة ، وفي كل حال :

« وأنه هو أضحك وأبكى » ..

وتحت هذا النص تكمن حقائق كثيرة . ومن خلاله تنبثق صور وظلال موحية مشيرة ..
أضحك وأبكى .. فأودع هذا الإنسان خاصية الضحك وخاصية البكاء . وهما سر من أسرار التكوين البشرى لا يدري أحد كيف هما ، ولا كيف تجمعا في هذا الجهاز المركب اللقد ، الذى لا يقل تركيبه وتعقيده النفس عن تركيبه وتعقيده العضو . والذى تتداخل المؤثرات النفسية وللمؤثرات العضوية فيه وتتشابكان وتتفاعلان في إحداث الضحك وإحداث البكاء .

وأضحك وأبكى .. فأنشأ للإنسان دواعى الضحك ودواعى البكاء . وجعله - وفق أسرار معقدة فيه - يضحك لهذا ويبكى لهذا . وقد يضحك غدا بما أبكاه اليوم . ويبكى اليوم بما أضحكه بالأمس . في غير جنون ولا ذهول إغماهى الحالات النفسية الثقيلة . وللوازين والدواعى والدوافع والاعتبارات التى لا تثبت في شعوره على حال !

وأضحك وأبكى .. فجعل في اللحظة الواحدة ضاحكين وباكين . كل حسب المؤثرات الواقعة عليه . وقد يضحك فريق بما يبكى منه فريق . لأن وقعه على هؤلاء غير وقعه على أولئك .. وهو هو في ذاته . ولكنه بلاساته بيد من بيد !

وأضحك وأبكى . من الأمر الواحد صاحبه نفسه . يضحك اليوم من الأمر ثم تواجهه عاقبه غدا أو جرائره فإذا هو باك . يتمنى أن لم يكن فعل وأن لم يكن ضحك . وكمن من ضاحك في الدنيا باك في الآخرة حيث لا ينفع البكاء !

هذه الصور والظلال وللشاعر والأحوال .. وغيرها كثير تنبثق من خلال النص القصير ، وتترامى للحس والشعور . وتظل حشود منها تنبثق من خلاله كلما زاد رصيد النفس من التجارب ؛ وكلما تجلعت عوامل الضحك والبكاء في النفوس - وهذا هو الإعجاز في صورة من صوره الكثيرة في هذا القرآن .

« وأنه هو أمات وأحيا » ..

وكذلك تنبثق من هذا النص صور لاعداد لها في الحس .

أمات وأحيا.. أنشأ الموت والحياة ، كما قال في سورة أخرى : « الذى خلق الموت والحياة » .
وهما أمران معروفان كل المرفة يوقعها المتكرر . ولكنها خافيان كل الخفاء حين يحاول البشر
أن يعرفوا طبيعتها وسرها الخافى على الأحياء .. فما الموت ؟ وما الحياة ؟ ما حقيقة حين يتجاوز
الإنسان لفظها وشكلها الذى يراه ؟ كيف دبت الحياة فى الكائن الحى ؟ ماهى ؟ ومن أين
جاءت ؟ وكيف تلبست بهذا الكائن فكان ؟ وكيف سارت فى طريقها الذى سارت فيه بهذا
الكائن أو بهذه الكائنات الأحياء ؟ وما الموت ؟ وكيف كان .. قبل ديبب الحياة . وبعد مفارقتها
للأحياء ؟ إنه السر الخافى وراء الستر السبل ، بيد الله !

أمات وأحيا .. وتنبثق ملايين الصور من الموت والحياة . فى عوالم الأحياء كلها . فى اللحظة
الواحدة . فى هذه اللحظة . كم ملايين الملايين من الأحياء مانت . وكم ملايين الملايين بدأت
رحلة الحياة . ودب فيها هذا السر من حيث لاتعلم ومن حيث لا يعلم أحد إلا الله ! وكم من ميتات
وقعت فلذا هى ذاتها بواعث حياة ! وكم من هذه الصور يترأى على مدار القرون ، حين
يستغرق الخيال فى استعراض الماضى الطويل ، الذى كان قبل أن يكون الإنسان كله على هذا
الكوكب . وننعم ما يمله الله فى غير هذا الكوكب من أنواع الموت والحياة التى لاخطر على
بال الإنسان !

إنها حشود من الصور وحشود ، تطلقها هذه الكلمات القلائل ، قفز القلب البشرى من
أحماته . فلا يتألك نفسه ولا يتأسك تحت إيقاعاتها للنوعة الأصداء !
« وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى » . .

وهى الحقيقة الماثلة الواقمة المتكررة فى كل لحظة . فينساها الإنسان لتكرارها أمام
عينه ، وهى أعجب من كل حجية تبدها شطحات الخيال !

نطفة تمنى .. تراق .. إفراز من إفرازات هذا الجسد الإنسانى الكثيرة كالعرق والدمع
والخاط ! فلذا هى بعد فترة مقدورة فى تدبير الله .. إذا هى ماذا ؟ إذا هى إنسان ! وإذا هذا
الإنسان ذكر وأنثى ؟ كيف ؟ كيف تمت هذه الحجية التى لم تكن — لولا وقوعه — تخطر على
الخيال ؛ وأين كان هذا الإنسان المركب الشديد التركيب ، المقعد الشديد التقيد ؟ أين كان كلنا
فى النقطة الزاخرة من تلك النطفة . بل فى واحد من ملايين من أجزائها الكثيرة ؟ أين كان
كلنا بمنظمه ولحمه وجلده ، وعروقه وشعره وأظفاره . وسماته وشيأته وملاجه . وخلاصته وطباعه

واستعداداته ؟ ! أين في هذه الخلية لليكروسكوبية السابحة هي وملايين من أمثالها في النقطة الواحدة من تلك النطفة التي تمنى ؟ ! وأين على وجه التخصيص كانت خصائص الذكر وخصائص الأنثى في تلك الخلية . تلك التي انتبخت وأعلنت عن نفسها في الجنين في نهاية اللطاف ؟ !

وأى قلب بشرى يقف أمام هذه الحقيقة الماثلة العجيبة . ثم يتألك أو يتأسك . فضلا على أن يمجّد ويتبجّع ، ويقول : إنها وقعت هكذا والسلام ! وسارت في طريقها هكذا والسلام ! واهتدت إلى خطها للرسوم هكذا والسلام ! أو يتعالم فيقول : إنها سارت هذه السيرة بحكم ماركب فيها من استعداد لإعادة نوعها ، شأنها شأن سائر الأحياء الزودة بهذا الاستعداد ! فهذا التفسير يحتاج بدوره إلى تفسير . فمن ذا أودعها هذا الاستعداد ؟ من ذا أودعها الرغبة الكامنة في حفظ نوعها بإعادته مرة أخرى ؟ ومن ذا أودعها القدرة على إعادته وهي ضعيفة مثيلة ؟ ومن ذا رسم لها الطريق لتسير فيه على هدى ، وتحقق هذه الرغبة الكامنة ؟ ومن ذا أودع فيها خصائص نوعها لتبيدها ؟ وما رغبتها هي وما مصلحتها في إعادة نوعها بهذه الخصائص ؟ لولا أن هنالك إرادة مدبرة من وراءها تريد أمرا ، وتقدر عليه ، وترسم له الطريق ؟ !

ومن النشأة الأولى . وهي واقعة مكرورة لا ينكرها منكر ، يتجه مباشرة إلى النشأة الأخرى .

« وأن عليه النشأة الأخرى » . .

والنشأة الأخرى غيب . ولكن عليه من النشأة الأولى دليل . دليل على إمكان الوقوع . فالذي خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى ، قادر - ولا شك - على إعادة الخلق من عظام ورفات . فليست العظام والرفات بأهون من الماء للراق ! ودليل على حكمة الوقوع . فهذا التدبير الخفي الذي يقود الخلية الحية الصغيرة في طريقها الطويل الشاق حتى تكون ذكرا أو أنثى . هذا التدبير لا بد أن يكون مداه أبعد من رحلة الأرض التي لا يتم فيها شيء كامل ؛ ولا يحد المحسن جزاء إحسانه كاملا ، ولا السوء جزاء إساءته كاملا كذلك . لأن في حساب هذا التدبير نشأة أخرى يبلغ فيها كل شيء تمامه . فدلالة النشأة الأولى على النشأة الأخرى مزدوجة . ومن هنا جاء ذكرها هكذا قبل النشأة الأخرى . .

وفي النشأة الأولى . وفي النشأة الأخرى . ينشئ الله من يشاء من عباده ويُقيّنه :

« وأنه هو أغنى وأقنى » . .

أغنى من عباده من شاء في الدنيا بأنواع النى وهى شقى . غنى المال . وغنى الصحة . وغنى
الندرية . وغنى النفس . وغنى السكر . وغنى الصلة بالله والزيادة الذى ليس مثله زاد .

وأغنى من عباده من شاء في الآخرة من غنى الآخرة !
وأغنى من شاء من عباده من كل ما يقتضى في الدنيا كذلك وفي الآخرة !
والخلق قراء محلون . لا يفتنون ولا يفتنون إلا من خزائن الله . فهو الذى أغنى . وهو
الذى أغنى . وهى لمة من واقع ما يعرفون وما تملق به أنظارهم وقلوبهم هنا وهناك . ليتطلعوا
إلى المصدر الوحيد . ويتجهوا إلى الخزائن العامرة وحدها ، وغيرها خواء !
« وأنه هو رب السمى » ..

والسمى نجم أثقل من الشمس بمئتين مرة ، ونوره خمسون ضعف نور الشمس . وهى
أبعد من الشمس بمليون ضعف بعد الشمس عنا .

وقد كان هناك من يبد هذا النجم . وكان هناك من يرمده كنجم ذى شأن . فقيرين أن الله
هو رب السمى له مكانه في السورة التى تبدأ بالقسم بالنجم إذا هوى ؟ وتحدث عن الرحلة إلى
الملاأ الأعلى ؟ كما تستهدف تقرير عقيدة التوحيد ، ونفى عقيدة الشرك الواهية المتهافة .
وبهذا تنتهى تلك الجولة الجديدة في الأنفس والآفاق ، لتبدأ بعدها جولة في مصارع الغابرين ،
بعد ما جاءتهم النذر فكذبوا بها كما يكذب للشركون . وهى جولة مع قدرة الله ومشيتته
وأثارها في الأمم قبلهم واحدة واحدة .

« وأنه أهلك عادا الأولى . وعمود فآ أبقى . وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى .
والمؤفكة أهوى . فغشاها ما غشى . فبأى آلاء ربك تنارى ؟ »

إنها جولة سرية . تألف من وقفة قصيرة على مصرع كل أمة ، ولمسة عفيفة تغز
الشعور وخزا .

وعاد وعمود وقوم نوح يعرفهم قارئ القرآن في مواضع شتى ! والمؤفكة هى أمة لوط .
من الإفك والبهتان والضلال .. وقد أهواها في الهاوية وخسف بها « فغشاها ما غشى » .. بهذا
التجهيل والتضخيم والتهويل ، الذى تترامى من خلاله صور الدمار والحسف والتسكيل ، الذى
يشمل كل شئ ، ويشاء فلايين !

« فبأى آلاء ربك تنارى ؟ » ..

فلقد كانت إذن تلك المصارع آلاء الله وأفضالا . ألم يهلك الشر ؟ ألم يغدق على الباطل قيمته فإذا هو زاهق ؟ ألم يترك فيها آيات لمن يتدبر ويصبر ؟ ألم تست هذه كلها آلاء . فبآل آلاء ربك تتبارى ! الخطاب لكل أحد . ولكل قلب . ولكل من يتدبر صنع الله فيرى النعمة حتى في البلى !

وعلى مصارع الغابرين للكافرين بالنذر - بعد استعراض مظاهر المشيئة وآثارها في الأنفس والآفاق - يلقي بالإشعاع الأخير قويا عميقا عنيقا . كأنه صيحة الخطر قبيل الطامة الكبرى : « هذا نذير من النذر الأولى . أذنت الآزفة . ليس لها من دون الله كاشفة » .

هذا الرسول الذي تتبارون في رسالته وفي نذارته . هذا نذير من النذر الأولى التي أعقبها ما أعقبها ! وقد أذنت الآزفة . واقتربت كاسحة جارفة . وهي الطامة والقارعة التي جاء هذا النذير يحذركم إياها . أو هو هول العذاب الذي لا يعلم إلا الله نوعه وموعده . ولا يملك إلا الله كشفه ودفعه : « ليس لها من دون الله كاشفة » ..

وبينما الخطر الداهم قريب . والنذير الناصح يدعوكم إلى النجاة . إذا أتم سادرون لاهون لا تقدررون الموقف ولا تحقيقون .

« أفئن هذا الحديث تسجبون ؟ وتضحكون ولا تبكون ؟ وأتم سامدون ... » ..

وهذا الحديث جد عظيم يلقي على كاهل الناس واجبات ضخمة وفي الوقت ذاته يقودهم إلى النهج الكامل . فم يجبون ؟ وم يضحكون ؟ وهذا الجد الصارم ، وهذه التبعات الكبيرة ، وما ينتظر الناس من حساب على حياتهم في الأرض .. كله يجعل البكاء أجدر بالموقف الجد ، وما وراءه من الهول والكرب ..

وهنا يرسلها صيحة مدوية ، ويصرخ في آذانهم وقلوبهم . ويهتف بهم إلى ما ينبغي أن يتداركوا به أنفسهم ، وهم على حافة الهاوية :

« فاسجدوا لله واعبدوا » .

وإنها لصيحة مزلة مذهلة في هذا السياق ، وفي هذه الظلال ، وبمد هذا التمجيد الطويل ، الذي ترعش له القلوب :

ومن ثم سجدوا .. سجدوا وهم مشركون . وهم يمارون في الوحي والقرآن . وهم يجادلون في الله والرسول !

سجدوا تحت هذه المطارق الهائلة التي وقعت على قلوبهم والرسول - صلى الله عليه وسلم - يتلو هذه السورة عليهم . وفيهم السمنون والشركون . ويسجد فيسجد الجميع . مسلمين ومشركون . لا يعلكون أن يقاوموا وقع هذا القرآن ؟ ولا أن يتأسكوا لهذا السلطان . . ثم أقاموا بمد فترة فلذا هم في ذهول من سجودهم كذهولهم وهم يسجدون ! بهذا تواترت الروايات . ثم افرقت في تحليل هذا الحادث الغريب . وما هو في الحقيقة بالغريب . فهو تأثير هذا القرآن العجيب ووقعه الهائل في القلوب !

هذا الحادث الذي تواترت به الروايات . حادث سجود الشركين مع المسلمين . كان يحتاج عندي إلى تحليل . قبل أن تقع لي تجربة شعورية خاصة علته في نفسي ، وأوضحت لي سببه الأصل .

وكنيت قد قرأت تلك الروايات المقررة عما سمي بحديث الترانيق ، الذي أورده ابن سعد في طبقاته ، وابن جرير الطبري في تاريخه . وبعض المفسرين عند تفسيرهم لقوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا أتى ألقى الشيطان في أمنيته ، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ، ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم . . . الخ » . . . وهي الروايات التي قال فيها ابن كثير - جزاء الله خيرا - « ولكنها من طرق كلها مرسله . ولم أرها مسندة من وجه صحيح » . وأكثر هذه الروايات تفصيلا وأقلها إغراقا في الخرافة والافتراء على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رواية ابن أبي حاتم . قال : حدثنا موسى ابن أبي موسى الكوفي ، حدثنا محمد ابن إسحاق الشيباني ، حدثنا محمد ابن فليح ، عن موسى ابن عقبة ، عن ابن شهاب . قال : أنزلت سورة النجم ، وكان للمشركون يقولون : لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقرناه وأصحابه ؟ ولكنه لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذي يذكر آلهتنا من الشتم والشر . وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد اشتد عليه ماناه وأصحابه من أذاهم وتكذيبهم ، وأحزنه ضلالهم ؟ فكان يتمنى هدام . فلما أنزل الله سورة النجم قال : « أفرايتم اللات والعزى ، ومناة الثلاثة الأخرى ؟ » ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الله الطواغيت فقال : وإنهم لمن الترانيق العلى ، وإن شفاعتهم لى التي ترجى . . وكان ذلك من سجع الشيطان وقتنه . . فوقت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك بمكة . وذلت بها ألسنتهم . وتباشروا

بها . وقالوا : إن محمدا قد رجع إلى دينه الأول ودين قومه . . فلما بلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - آخر النجم سجد ، وسجد كل من حضره من مسلم أو مشرك . غير أن الوليد ابن المغيرة كان رجلا كبيرا فرقع ملء كفه نرابا فسجد عليه . فسجد القرقيان كلاهما من جماعتهم في السجود لسجود رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأما المسلمون فسجدوا لسجود الشركين معهم على غير إيعان ولا يقين . ولم يكن المسلمون سمعوا إلى الشيطان في مسامح الشركين . . فاطمأنت أنفسهم - أي للشركون - لما ألقى الشيطان في أمانة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحديثهم به الشيطان أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد قرأها في السورة ، فسجدوا لمعظم آلتهم . فقتت تلك الكلمة في الناس وأظهرها الشيطان حتى بلغت أرض الحبشة ومن بها من المسلمين : عثمان ابن مظعون وأصحابه . وتعذبوا أن أهل مكة قد أسلوا كلهم ، وصلوا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبلغهم سجود الوليد ابن المغيرة على التراب على كفه ، وحدثوا أن المسلمين قد آمنوا بمكة ، فأقبلوا سراعا ، وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان ، وأحكم الله آياته ، وحفظه من القرية . وقال : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي . . الخ » . فلما بين الله قضاءه وبرأه من سجع الشيطان ، انقلب للشركون بضلالتهم وعداوتهم على المسلمين ، واشتدوا عليهم » . انتهى

وهناك روايات أخرى أجراً على الاقتراء تنسب قولة الترائيق . . تلك . . إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتعلل هذا برغبته - حاشاه صلى الله عليه وسلم - في مراعاة قریش ومهادتها !!!

وقد رفضت منذ الوهلة الأولى تلك الروايات جميعا . . فهي فضلا عن مجافاتها لعصمة النبوة وحفظ الله كرم من الميث والتحرif ، فإن سياق السورة ذاته ينفيها نفيًا قاطعا . إذ أنه تصدى لتوهين عقيدة الشركين في هذه الآلهة وأساطيرهم حولها . فلا مجال لإدخال هاتين البارتين في سياق السورة بحال . حتى على قول من قال : إن الشيطان ألقى بها في أسماع الشركين دون المسلمين . فهو لاء للشركون كانوا عريا يتدوقون لغتهم . وحين يسمعون هاتين البارتين القمحتين . ويسمعون بعدها : « ألكم الله كره له الأنتى ؟ تلك إذن قسمة ضيزى . إن هي إلا أسماء يسميها أتم وآباؤكم ، ما أنزل الله بها من سلطان . . الخ » . ويسمعون بعد ذلك : « إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون لللائكة تسمية الأنتى وما لهم به من علم . إن يتبعون إلا الظن

وإن الظن لا يبغي من الحق شيئا» .. ويسمعون قبله : «وكم من ملك في السواوات لا تفتي شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى» .. حين يسمعون هذا السياق كله فلأنهم لا يسجدون مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأن الكلام لا يستقيم . والثناء على آلهتهم وتقرير أن لها شفاعا ترغى لا يستقيم . وهم لم يكونوا أغبياء كغفاه الذين اقتصروا هذه الروايات ، التي تلقفها منهم للمستشرقون مغرضين أوجاهلين !

لغير هذا السبب إذن سجد المشركون . ولغير هذا السبب عاد المهاجرون من الحبشة ثم عادوا إليها بعد حين مع آخرين .

وليس هنا مجال تحقيق سبب عودة المهاجرين ، ثم عودتهم إلى الحبشة مع آخرين .. فأما أمر السجود فهو الذي تصدى له في هذه المناسبة ..

لقد بقيت فترة أبحث عن السبب الممكن لهذا السجود . ويخطر لي احتمال أنه لم يقع ؛ وإنها هي رواية ذكرت لتعليل عودة المهاجرين من الحبشة بعد نحو شهرين أو ثلاثة . وهو أمر يحتاج إلى التعليل .

وبيئنا أنا كذلك وقتت لي تلك التجربة الشعورية الخاصة التي أثرت إليها من قبل ..

كنت بين رقعة نسمر حيناً طرق أسمعنا صوت قارئ للقرآن من قريب ، تلاو سورة النجم . فانقطع بيننا الحديث ، لنستمع ونصت للقرآن الكريم . وكان صوت القارئ مؤثراً وهو يترتل القرآن ترتيلاً حسناً .

وشيثاً فشيثاً عشت معه فيما يتلوه . عشت مع قلب محمد - صلى الله عليه وسلم - في رحلته إلى اللاأ الأعلى . عشت معه وهو يشهد جبريل - عليه السلام - في صورته اللائكية التي خلقه الله عليها . ذلك الحادث الصيب للدهش حين يتدبره الإنسان ويحاول تخيله ! وعشت معه وهو في رحلته المأبوة الطليقة . عند سدرة المنتهى . وجنة المأوى . عشت معه بقدر ما يسعني خيالي ، وتحلق بي رؤاى ، وقدر ما تنطبق مشاعري وأحاسيسى ..

وتابته في الإحساس بهاتف أساطير المشركين حول اللائكة وعبادتها وبنوتها وأنوتها .. إلى آخر هذه الأوهام الخرفة للضحكة ، التي تنهاوى عند اللمة الأولى !

ووقتت أمام الكائن البشري ينشأ من الأرض ، وأمام الأجنة في بطون الأمهات . وعلم الله يتابعها ويحيط بها .

وارتجف كياني تحت وقع اللمعات المتتابعة في اللقطع الأخير من السورة . التيب المحجوب لا يراه إلا الله . والعمل المكتوب لا يند ولا يغيب عن الحساب والجزاء . وللتشي إلى الله في نهاية كل طريق يسلكه العبيد . والحشود الفاضحة والحشود البالية . وحشود اللوثى . وحشود الأحياء . والنطفة تهتدى في الظلمات إلى طريقها ، وتخطو خطواتها وتبرز أسرارها فإذا هي ذكر أو أنثى . والنشأة الأخرى . ومصارع الغابرين . وللؤغكة أهوى ففشاها ماغشى ! واستممت إلى صوت النذير الأخير قبل الكارثة الداهية : « هذا نذير من النذر الأولى . أذفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة » ..

ثم جاءت الصيحة الأخيرة . واهتز كياني كله أمام التبكيت الرعب : « أفئن هذا الحديث تمسجون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون ؟ » .

فلما سمعت : « فاسجدوا لله واعبدوا » .. كانت الرجفة قد سرت من قلبي حقاً إلى أوصالي . واستحالت رجفة عضلية مادية ذات مظهر مادي ، لم أملك مقاومته . فظل جسمي كله يتخلىج ، ولأعمالك أن أبتنه ، ولأن أ كفف دموعاً هاتمة ، لأملك احتباسها مع الجهد والمحاولة ! وادركت في هذه اللحظة أن حادث السجود صحيح . وأن تبليغ قريب . إنه كامن في ذلك السلطان العجيب لهذا القرآن ، وهذه الإيقاعات المزلزلة في سياق هذه السورة . ولم تكن هذه أول مرة أقرأ فيها سورة النجم أو أسمها . ولكنني في هذه المرة كان لها هذا الوقع ، وكانت منى هذه الاستجابة . . وذلك سر القرآن . . فهناك لحظات خاصة موعودة غير مرقوبة تسمى الآية أو السورة فيها موضع الاستجابة ؛ وتقع اللحمة التي تصل القلب بمصدر القوة فيها والتأثير . فيكون منها ما يكون !

لحظة كهذه مست قلوب الحاضرين يومها جميعاً . ومحمد - صلى الله عليه وسلم - يقرأ هذه السورة يقرأها بكيانه كله . ويمشي في صورها التي عاشها من قبل بشخصه . وتتصب كل هذه القوة الكامنة في السورة من خلال صوت محمد - صلى الله عليه وسلم - في أعصاب السامعين . فيرتجفون ويسمعون : « فاسجدوا لله واعبدوا » ويسجد محمد والمسلمون . . فيسجدون . .

ولقد يقال : إنك تفتيس على لحظة مرت بك ، وتجربة عانيتها أنت . وأنت مسلم . تمتد بهذا القرآن ، وله في نفسك تأثير خاص . . وأولئك كانوا مشركين يرفضون الإيمان ويرفضون القرآن !

ولكن هنالك اعتبارين لها وزنها في مواجهة هذا الذي يقال :

الاعتبار الأول : أن الذي كان يقرأ السورة كان هو محمد - صلى الله عليه وسلم - النبي . الذي تلقى هذا القرآن مباشرة من مصدره . وعاشه وعاش به . وأحبه حتى لكان ينقل خطاه إذا سمع من يرتله داخل داره ، ويقف إلى جانب الباب يسمع له حتى ينتهي ! وفي هذه السورة بالذات كان يمشي لحظات عاشها في اللإ الأعلى . وعاشها مع الروح الأمين وهو يرامطى صورته الأولى . . فأما أنا فقد كنت أسمع السورة من قارئ . والفارق ولا شك هائل !

والاعتبار الثاني : أن أولئك للشركيين لم تكن قلوبهم ناجية من الرعدة والرجفة ، وهم يستمعون إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - إنما كان الناد المصطنع هو الذي يحول بينهم وبين الإذعان . . والحادثان التاليان شاهد على ما كان يحال قلوبهم من الارتعاش .

روى ابن عساکر في ترجمة عتبة ابن أبي لهب ، من طريق محمد ابن اسحاق ، عن عثمان ابن عروة ، ابن الزبير ، عن أبيه ، عن هناد ابن الأسود ، قال : كان أبو لهب وابنه عتبة قد تجهزوا إلى الشام ، فتجهزت معها ، فقال ابنه عتبة : والله لأنطلقن إلى محمد ، ولأؤذنه في ربه (سبحانه وتعالى) . فأنطلق حتى أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - . فقال : يا محمد . هو يكفر بالذي دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى . . فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « اللهم سلط عليه كلبا من كلابك » . . ثم انصرف عنه ، فرجع إلى أبيه ، فقال : يا بني ، ما قلت له ؟ فذكر له ما قاله . فقال : فما قال لك ؟ قال : اللهم سلط عليه كلبا من كلابك . قال : يا بني والله ما آمن عليك دعاه ! فسرنا حتى نزلنا أبرام - وهي في سدة - ونزلنا إلى صومعة راهب . فقال الراهب : يا مشر العرب ، ما أنزلكم هذه البلاد ؟ فأتها يسرح فيها الأسد كما تسرح الغنم ! فقال أبو لهب : إنكم قد عرقتم كبر سنى وحتى ؟ وإن هذا الرجل قد دعا على ابني دعوة والله ما آمنها عليه ، فاجموا متاعكم إلى هذه الصومعة ، وافرشوا لابني عليها ، ثم افرشوا حولها . فقلنا . فجاء الأسد فشم وجوهنا ، فلما لم يجد ما يريد تقيض فوثب وثبة فوق التاع ، فشم وجهه . ثم هزمه هزمة ففسخ رأسه . فقال أبو لهب : قد عرفت أنه لا ينفلت عن دعوة محمد !

هذا هو الحادث الأول صاحبه أبو لهب . أشد المخاصمين لمحمد - صلى الله عليه وسلم - النواوئين له ، المؤلفين عليه هو وبيته . للدعوة عليه في القرآن هو وبيته : « تبت يدا أبي لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى نارا ذات لهب . وأمرأته حاملة الحطب . في جيدها

جبل من مسد . . وذلك شعوره الحقيقي تجاه محمد وقول محمد . وتلك ارتجافة قلبه ومفاصله أمام دعوة محمد - صلى الله عليه وسلم - على ابنه .

والحدث الثاني: صاحبه عتبة ابن أبي ربيعة . وقد أرسلته قريش إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - يفاوضه في السكف عن هذا الذي فرق قريشا وعاب آلهتهم ، على أن يكون له منهم ما يريد من مال أو رياسة أو زواج . فلما انتهى من عرضه قال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أفرغت يا أبا الوليد ؟ » قال : نعم . قال : « فاستمع مني » . قال : أقبل . قال : « بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عريا لقوم يملكون . بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون » . . ثم مضى حتى قوله تعالى : « فإن أعرضوا قل : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » . . عندئذ هب عتبة يمسك بضم النبي - صلى الله عليه وسلم - في زعر وهو يقول : ناشدتك الرحم أن تكف . وعاد إلى قريش يقص عليهم الأمر . ويقتب عليه يقول : وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب ، غشيت أن ينزل بكم العذاب ^(١) .

فهذا شعور رجل لم يكن قد أسلم . والارتجاف فيه ظاهر . والتأثر للكيوت أمام العناد . واللكابة ظاهر .

ومثل هؤلاء إذا استمعوا إلى سورة النجم من محمد - صلى الله عليه وسلم - فأقرب ما يحتمل أن تصادف قلوبهم لحظة الاستجابة التي لا يملكون أنفسهم إزاءها . وأن يؤخذوا بسلطان هذا القرآن فيسجدوا مع الساجدين . . بلاغرائيق ولاغيرها من روايات اللقرتين

سُورَةُ التَّحْرِيمِ وآياتها ٥٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« أَفْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعْتِرٌ *
وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ *
حِكْمَةٌ بِاللَّيْفَةِ فَمَا تُنْفِ الثُّنْدُرُ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُوا الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُسْكَرُ * خُسُفًا
أَبْصَارُهُمْ يَمْرُؤُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَيْفَ أَخَذَهُمْ جَوَادُ مُنْقَشِرٍ * مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ، يَقُولُ
الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَاسِرٌ .

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا: بَجُنُونٌ وَازْدُجِرْ * فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي
مَغْلُوبٌ فَأَنْتَقِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ
حَتَّى أَمْرٌ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوَاحِ وَدُسِرَ * فَجَرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءُ لِمَنْ كَانَ
كُفِرَ * وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذِرٍ * * وَلَقَدْ
يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟

« كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذِرٍ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي
يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَعِيرٍ * تَتْرَعُ النَّاسُ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي
وَنُذِرٍ * * وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟

« كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ * فَقَالُوا: أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا تَتَّبِعُهُ ؟ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ *

أَلَيْسَ الَّذِي كُذِّبَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا؟ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ * سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ *
 إِنَّا مُرْسِلُو النَّافَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَبِعْهُمْ وَأَصْطَبِرْ * وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ، كُلُّ
 شَرْبٍ مُحْتَضَرٌ * فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرٌ؟ * إِنَّا
 أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيِّحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَيْمَةِ الْمُحْتَظِرِ * وَلَقَدْ بَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلَّذِ كُذِّبَ
 فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ؟

« كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ *
 نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا، كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ * وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتُنَا فَتَارَوُا بِالَّذِ *
 وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ صَافِيهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ، فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِيرٌ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً
 عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ * فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِيرٌ * وَلَقَدْ بَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلَّذِ كُذِّبَ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ؟
 * وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ * كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ
 مُقْتَدِرٍ .

« أَكْبَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَادِكُمْ؟ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ؟ * أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ
 مُنْتَصِرُونَ؟ * سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الذُّبُرَ * بَلَى السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمُ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ *
 إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، ذُوقُوا مَسَّ
 سَقَرٍ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ * وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ * وَلَقَدْ
 أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ؟ * وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ
 وَكَبِيرٍ مُسْتَظَرٌّ .

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ .

هذه السورة من مطلعها إلى ختامها حملة رعية مفزعة عنيفة على قلوب للكافرين بالند،
 بقدر ما هي طمانينة عميقة وثيقة للقلوب للزومة المصدقة . وهي مقسمة إلى حلقات متتابعة، كل

حلقة منها مشهد من مشاهد التعذيب للكافرين ، يأخذ السياق في ختامها بالحس البشري فيضغه ويهزه ويقول له : « فكيف كان عذابى ونذرى ؟ » . ثم يرسله بعد الضغط والهز ويقول له : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟ » .

وعتويات السورة للوضوعية واردة في سور مكية شق . فهي مشهد من مشاهد القيامة في الطلع ، ومشهد من هذه للشاهد في الختام . وبينها عرض سريع لمصارع قوم نوح . وعاد ونمود . وقوم لوط . وفرعون ومثله . وكلها موضوعات تزخر بها السور المكية في صور شق . .

ولكن هذه للوضوعات ذاتها تعرض في هذه السورة عرضا خاصا ، يحيلها جديدة كل الجدة . فهي تعرض عذبة عاصفة ، وحامية قاصمة ؟ يفيض منها الهول ، ويتأثر حولها الرعب ، ويظلمها الدمار والفرع والانهار !

وأخص ما يميزها في سياق السورة أن كلا منها يمثل حلقة عذاب رهيبة سريعة لاهثة مكروية . يشهدها المكذبون ، وكأنما يشهدون أنفسهم فيها ، وعسوان إيقاعات سيالها . فإذا انتهت الحلقة وبدأوا يستردون أنفسهم اللاهثة للكرورة عاجلتهم حلقة جديدة أشد هولاً ورعباً .. وهكذا حتى تنتهي الحلقات السبعة في هذا الجو للفرع الجانق . فيتل الشهد الأخير في السورة . وإذا هو جو آخر ، ذو ظلال أخرى . وإذا هو الأمن والطمأنينة والسكينة . إنه مشهد التقيين : « إن التقيين في جنات ونهر . في مقعد صدق عند مليك مقتدر » . : في وسط ذلك الهول الراجف ، والفرع للزلزل ، والعذاب للهيئ للكافرين : « يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر » . .

فأين وأين ؟ مشهد من مشهد ؟ ومقام من مقام ؟ وقوم من قوم ؟ ومصير من مصير ؟

« اقربت الساعة وإنشق القمر . وإن يروا آية يمرضوا ويقولوا : سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر . ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر . حكمة بالغة فإتقى النذر . فتول عنهم يوم يدعو الداع إلى شيء نكر . خشا أبصارهم يخرجون من الأبدان كأنهم جراد منتشر . مهطمين إلى الداع يقول الكافرون : هذا يوم عسر » . .

مطلع باهر مثير ، على حادث كوني كبير ، وإرهاص بحادث أكبر . لا يقاس إليه ذلك الحدث الكوني الكبير :

« اقتربت الساعة وانشق القمر » . .

فإله من إرهاس ١ وإله من خبر . ولقد رأوا الحدث الأول فلم يبق إلا أن ينتظروا الحدث الأكبر .

والروايات عن انشقاق القمر ورؤية العرب له في حالة انشقاقه أخبار متواترة . تتفق كلها في إثبات وقوع الحادث ، وتختلف في رواية هيئته تفصيلا وإجمالا :

من رواية أنس ابن مالك - رضى الله عنه - . . قال الإمام أحمد : حدثنا معمر ، عن قتادة ، عن أنس ابن مالك قال : سألت أهل مكة النبي - صلى الله عليه وسلم - آية . فانشق القمر بمكة مرتين فقال : « اقتربت الساعة وانشق القمر » . . وقال البخاري : حدثني عبد الله ابن عبد الوهاب . حدثنا بشر ابن الفضل ، حدثنا سعيد ابن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن أنس ابن مالك . أن أهل مكة سألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يرهم آية . فأرأى القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما . وأخرجه الشيخان من طرق أخرى عن قتادة عن أنس . .

ومن رواية جبير ابن مطعم - رضى الله عنه - . . قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن كثير ، حدثنا سليمان ابن كثير ، عن حصين ابن عبد الرحمن ، عن محمد بن جبير ابن مطعم ، عن أبيه قال : انشق القمر على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فصارت فرقتين . فرقة على هذا الجبل وفرقة على هذا الجبل ، فقالوا : سحرنا محمد ، فقالوا : إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم . . نفرد به أحمد من هذا الوجه . . وأسنده البيهقي في الدلائل من طريق محمد ابن كثير عن أخيه سليمان ابن كثير ، عن حصين ابن عبد الرحمن . . ورواه ابن جرير والبيهقي من طرق أخرى عن جبير ابن مطعم كذلك .

ومن رواية عبد الله ابن عباس - رضى الله عنه - . . قال البخاري : حدثنا يحيى ابن كثير ، حدثنا بكر ، عن جعفر ، عن عراك ابن مالك ، عن عبيد الله ابن عبد الله ابن عتبة ، عن ابن عباس ، قال : انشق القمر في زمان النبي - صلى الله عليه وسلم - . . ورواه البخاري أيضا ومسلم من طريق آخر عن عراك بسنده السابق إلى ابن عباس . . وروى ابن جرير من طريق أخرى إلى علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال : قد مضى ذلك ، كان قبل الهجرة ، انشق القمر حتى رأوا شقيه . . وروى الموفى عن ابن عباس نحو هذا . . وقال الطبراني بسند آخر

عن عكرمة عن ابن عباس قال: كشف القمر على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا: سحر القمر ، فزلت : « اقربت الساعة وانشق القمر - إلى قوله : مستمر » .

ومن رواية عبد الله ابن عمر - رضى الله عنها - : قال الحافظ أبو بكر البهقي : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، وأبو بكر أحمد ابن الحسن القاضي ، قالا : حدثنا أبو العباس الأصم ، حدثنا العباس ابن محمد الدوري ، حدثنا وهب ابن جرير ، عن شعبة ، عن الأعمش ، عن مجاهد ، عن عبد الله ابن عمر في قوله تعالى : « اقربت الساعة وانشق القمر » قال : وقد كان ذلك على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - انشق فلقين قلقة من دون الجبل وفلقة خلف الجبل . فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « اللهم اشهد » . . وهكذا رواه مسلم والترمذي من طرق عن شعبة عن الأعمش عن مجاهد ..

ومن رواية عبد الله ابن مسعود - رضى الله عنه - : قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ، عن أبي معمر ، عن ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شقتين حتى نظروا إليه ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « اشهدوا » . وهكذا رواه البخاري ومسلم من حديث سفيان ابن عيينة . وأخرجاه كذلك من حديث الأعمش عن إبراهيم عن أبي معمر عبد الله ابن سحيرة ، عن ابن مسعود . وقال البخاري : قال أبو داود الطيالسي : حدثنا أبو عوانة ، عن المغيرة ، عن أبي الضحى ، عن مسروق عن عبد الله ابن مسعود ، قال : انشق القمر على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالت قريش : هذا سحر ابن أبي كبشة . قال : فقالوا : انظروا ما يأتيكم من السفار ، فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم . قال : فجاء السفار فقالوا ذلك . . وروى البهقي من طريق أخرى عن مسروق عن عبد الله ابن مسعود ، بما يقرب من هذا .

فهذه روايات متواترة من طرق شتى عن وقوع هذا الحادث ، وتحديد مكانه في مكة - باستثناء رواية لم تذكرها عن عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه ، أنه كان في منى - وتحديد زمانه في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - قبل الهجرة . وتحديد هيئته في معظم الروايات أنه انشق فلقين ، وفي رواية واحدة أنه كشف (أى خسف) . . فالحادث ثابت من هذه الروايات المتواترة المجددة للسكان والزمان والهيئة .

وهو حادث واجه به القرآن للمشركين في حينه ؛ ولم يرو عنهم تكذيب لوقوعه ؛ فلا بد أن

يكون قد وقع فعلا بصورة يتعذر معها التكذيب ، ولو على سبيل المراء الذي كانوا يمارونه في الآيات ، لو وجدوا منفذا للتكذيب . وكل ما روى عنهم أنهم قالوا : سحرنا ، ولكنهم هم أنفسهم اختبروا الأمر ، فعرفوا أنه ليس بسحر ؛ فلئن كان قد سحرهم فإنه لا يسحر المسافرين خارج مكة الذين رأوا الحوادث وشهدوا به حين سئلوا عنه .

ثبت لنا كله في الرواية التي تقول : إن للشركيين سألوا النبي - صلى الله عليه وسلم - آية . فانشق القمر . فإن هذه الرواية تصطدم مع مفهوم نص قرآني مدلوله أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يرسل بخوارق من نوع الخوارق التي جاءت مع الرسل قبله ، لسبب معين : « ومانعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون » (١) . . ففهوم هذه الآية أن حكمة الله اقتضت منع الآيات - أي الخوارق - لما كان من تكذيب الأولين بها .

وفي كل مناسبة طلب للشركيين آية من الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان الرد يفيد أن هذا الأمر خارج عن حدود وظيفته ، وأنه ليس إلا بشرا رسولا . وكان يردهم إلى القرآن يتحداهم به بوصفه معجزة هذا الدين الوحيدة : « قل : لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ، فأبى أكثر الناس إلا كفورا . وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تجري . أو تسقط السماء - كازعمت - علينا كسفا ، أو تأتي بالله ولللائكة قبلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه . قل : سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا » (٢) .

فالقول بأن انشقاق القمر كان استجابة لطلب للشركيين آية - أي خارقة - يبدو بعيدا عن مفهوم النصوص القرآنية ؛ وعن اتجاه هذه الرسالة الأخيرة إلى مخاطبة القلب البشري بالقرآن وحده ، وما فيه من إعجاز ظاهر ؛ ثم توجيه هذا القلب - عن طريق القرآن - إلى آيات الله القائمة في الأنفس والآفاق ، وفي أحداث التاريخ سواء . . فأما ما وقع فعلا للرسول - صلى الله عليه وسلم - من خوارق شهدت بها روايات صحيحة فكان إكراما من الله لعبده ، لا دليلا لإثبات رسالته ..

ومن ثم ثبت الحادث - حادث انشقاق القمر - بالنص القرآني وبالروايات للتواتر التي تحدد مكان الحادث وزمانه وهيئة . وتوقف في تمليله الذي ذكرته بعض الروايات . ونكتفي بإشارة القرآن إليه مع الإشارة إلى اقتراب الساعة . باعتبار هذه الإشارة لسة للقلب البشرى ليستيقظ ويستجيب . .

وانشقاق القمر إذن كان آية كونية يوجه القرآن القلوب والأنظار إليها ، كما يوجهها دائماً إلى الآيات الكونية الأخرى ؛ ويسجب من أمرهم وموقفهم إزاءها ، كما يسجب من مواقفهم تجاه آيات الله الكونية الأخرى .

إن الخوارق الحسية قد تدعش القلب البشرى في طفولته ، قبل أن يتبها لإدراك الآيات الكونية القائمة الدائمة ، والتأثير بإيقاعها الثابت الهادئ . وكل الخوارق التي ظهرت على أيدي الرسل - صلوات الله عليهم - قبل أن تبلغ البشرية الرشد والنضوج يوجد في الكون ما هو أكبر منها وأضخم ، وإن كان لا يستثير الحس البدائي كما تستثيره تلك الخوارق !

ولنفرض أن انشقاق القمر جاء آية خارقة . . فإن القمر في ذاته آية أكبر ! هذا الكوكب بحجمه ، ووضعه ، وشكله ، وطبيعته ، ومنازله ، ودوره ، وآثاره في حياة الأرض ، وقيامه هكذا في الفضاء بشير عمود . هذه هي الآية الكبرى القائمة الدائمة حيال الأبصار وحيال القلوب ، توقع إيقاعها وتلقي ظلالها ، وتقوم أمام الحس شاهداً على الهدرة المبدعة التي يصعب إنكارها إلا عناداً أو مرأى !

وقد جاء القرآن ليقف القلب البشرى في مواجهة الكون كله ؛ وما فيه من آيات الله القائمة الثابتة ؛ ويصله بهذا الكون وآيات الله فيه في كل لحظة ؛ لا مرة عارضة في زمان محدود ، يشهدها جيل من الناس في مكان محدود .

إن الكون كله هو مجال النظر والتأمل في آيات الله التي لا تنفد ، ولا تذهب ، ولا تخب . وهو بجملته آية . وكل صغيرة فيه وكبيرة آية . والقلب البشرى مدعو في كل لحظة لمشاهدة الخوارق القائمة الدائمة ، والاستماع إلى شهادتها القاصلة الحاسمة ؛ والاستمتاع كذلك بسجائب الإبداع الممتعة ، التي يلتقي فيها الجمال بالكمال ، والتي تستجيبش انفعال الدهش والحيرة مع وجدان الإيمان والافتقار الهادئ العميق .

وفي مطلع هذه السورة نحيى تلك الإشارة إلى اقتراب الساعة وانشقاق القمر إيقاعاً يهز

القلب البشرى هذا . وهو يتوقع الساعة التي اقتربت ، ويتأمل الآية التي وقعت ، ويتصور أحداث الساعة في ظل هذا الحدث الكوني الذي رآه المخاطبون بهذا الإيحاء للثير .

وفي موضوع اقتراب الساعة روى الإمام أحمد . قال : حدثنا حسين ، حدثنا محمد بن مطوف ، عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد ، قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - يقول : « بشت أنا والساعة هكذا » وأشار بأصبعه السبابة والوسطى^(١)

ومع اقتراب الموعد للرهبوب ، ووقوع الحادث الكوني للثير ، وقيام الآيات التي يرونها في صور شتى .. فإن تلك القلوب كانت تليق في الفناد ، وتصطحق الضلال ، ولا تأثر بالوعيد كلاتأثر بإيقاع الآيات الكثيرة الكافية للغة والكف عن التكذيب :

« وإن يروا آية يرضوا ويقولوا : سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر . ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ، حكمة بالغة فما تغى النذر » .

ولقد أعرضوا وقالوا : سحرنا ، وهم يرون آية الله في انشقاق القمر . وكان هذا رأيهم مع آية القرآن . فقالوا : سحر يؤثر . فهذا قولهم كما رأوا آية . ولما كانت الآيات متوالية متواصلة ، فقد قالوا : إنه سحر مستمر لا ينقطع ، معرضين عن تدبر طبيعة الآيات وحقيقتها ، معرضين كذلك عن دلالتها وشهادتها ، وكذبوا بالآيات وشهادتها . كذبوا اتباعاً لأهوائهم لاستناداً إلى حجة ، ولا ارتكناً إلى دليل ، ولا تدبراً للحق الثابت المستقر في كل ما حولهم في هذا الوجود ..

« وكل أمر مستقر » .. فكل شيء في موضعه في هذا الوجود الكبير . وكل أمر في مكانه الثابت الذي لا يتزعزع ولا يضطرب . فأمر هذا الكون يقوم على الثبات والاستقرار ، لا على الهوى والتقلب ، وللزجاج التغير ؛ أوللصادفة العابرة والارتجال العارض .. كل شيء في موضعه وفي زمانه ، وكل أمر في مكانه وفي إبانه . والاستقرار يحكم كل شيء من حولهم ، ويتجلى في كل شيء : في دورة الأفلاك ، وفي سنن الحياة . وفي أطوار النبات والحیوان . وفي الظواهر الثابتة للأشياء والمواد . لابل في انتظام وظائف أجسامهم وأعضائهم التي لاسلطان لهم عليها . والتي لاتخضع للأهواء ؛ وبينما هذا الاستقرار يحيط بهم ويسيطر على كل شيء من حولهم ، ويتجلى في كل أمر من بين أيديهم ومن خلفهم .. إذا هم وحدهم مضطربون تتجاذبهم الأهواء ؛

(١) وأخرجه الشيخان من حديث أبي حازم سلمة ابن دينار .

« ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر » .. أنباء الآيات الكونية التي صرّفها الله لهم في هذا القرآن ؛ وأنباء المكذّبين قبلهم ومصارعهم ، وأنباء الآخرة التي صورها القرآن لهم . . . وكان في هذا كله زاجر وراعى لمن يزدجر ويرتفع . وكان فيه من حكمة الله ما يبلغ القلوب ويوجهها إلى تدبيره الحكيم . ولكن القلوب الطموسة لاتفتح لرؤية الآيات ، والاتضاع بالأنبياء ، واليقظة على صوت النذير بمد النذير : « حكمة بالغة فما تنفى النذر » . إنا هو الإيمان هبة الله للقلب التّهيء للإيمان ، للمستحق لهذا الإنعام !

وعند هذا الحد من تصوير إعراضهم وإصرارهم ، وعدم انتفاعهم بالأنبياء ، وقلة جدوى النذر مع هؤلاء . يتوجه الخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم للإعراض عنهم وتركهم يلاقون اليوم الذي لا يخفون النذر باقترابه ، وهم يرون انشقاق القمر بين يدي مجيئه : « فتول عنهم يوم يدعو الداع إلى شيء نكر . خشما أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر . مهطعين إلى الداع يقول الكافرون : هذا يوم عسر » . .

وهو مشهد من مشاهد ذلك اليوم ، يناسب هوله وشدة ظلال السورة كلها ؛ ويتناسق مع الإرهاص باقتراب الساعة ، ومع الإنبياء بانشقاق القمر ، ومع الإيقاع اللوسقي في السورة كذلك !

« وهو متقارب سريع . وهو مع سرعته شاخص متحرك ، مكتمل السمات والحركات : هذه جموع خارجة من الأجداث في لحظة واحدة كأنهم جراد منتشر (ومشهد الجراد المهبود يساعد على تصور للنظر المروض) وهذه الجموع خاشعة أبصارها من الدل والهول ، وهى تسرع في سيرها نحو الداعى ، الذى يدعوها لأمر غريب نكير شديد لآتمرفه ولا تطمئن إليه . . وفى أثناء هذا التجمع والختوض والإسراع يقول الكافرون : « هذا يوم عسر » . . وهى قولة الكروب المهبود ، التى يخرج لواجه الأمر الصمب الرعب ا » (١)

فهذا هو اليوم الذى اقرب ، وهم عنه معرضون ، وبه يكذبون . فتول عنهم يوم يحى ، ودعمهم لصيرهم فيه وهو هذا الصير الرعب الخيف !

وبعد هذا الإيقاع الخيف في مطلع السورة ؛ والشهد للكروب الذى يشمل المكذّبين في

(١) مأخوذ بصرف خفيف من كتاب « مشاهد القيامة في القرآن » .

يوم القيامة . . يأخذ في عرض مشاهد التنكيل والتعذيب الذى أصاب بالقلل أجيال للكاذبين قبلهم ، وعرض مصارع الأمم التى سلكت من قبل مسلكتهم ، بادئا بقوم نوح :

« كذبت قبلهم قوم نوح ، فكذبوا عبدا ، وقالوا : مجنون ، وازدجر . فدعاه أبى مغلوب ، فانتصر . ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وجفنا الأرض عيونا ، فالتقى الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات ألواح ودسر . تحرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر . ولقد تركناها آية فهل من مدكر ؟ فكيف كان عذابى ونذر ؟ ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدكر ؟ » ..

« كذبت قبلهم قوم نوح » . . بالرسالة والآيات « فكذبوا عبدا » .. نوحا « وقالوا : مجنون » . . كما قالت : قريش ظالمة عن محمد - صلى الله عليه وسلم - وهددوه بالرجم ، وآذوه بالسخرية ، وطالبوه أن يكف عنهم ونهره بنف : « وازدجر » . . بدلا من أن ينجروا هم ويرعووا !

عندئذ عاد نوح إلى ربه الذى أرسله وكلفه مهمة التبليغ . عاد لينهى إليه ما انتهى إليه أمره مع قومه ، وما انتهى إليه جهده وعمله ، وما انتهت إليه طاقته ووسعه . ويدع له الأمر بعد أن لم تعد لديه طاقة لم ينلها ، وبعد أن لم تبق له حيلة ولا حول :

« فدعاه أبى مغلوب . فانتصر » ..

انتهت طاقى . انتهى جهدى . انتهت قوى . وغلبت على أمرى . « أبى مغلوب فانتصر » .. انتصر أنت ياربى . انتصر لدعوتك . انتصر لحقك . انتصر لتهجك . انتصر أنت فالأمر أمرك ، والدعوة دعوتك . وقد انتهى دورى !

وما تكاد هذه الكلمة تقال ؟ وما يكاد الرسول يلم الأمر لصاحبه الجليل القهار ، حتى تشير اليد القادرة القاهرة إلى عجلة الكون الهائلة الساحقة .. فتدور دورتها للدوية المجلجلة :

« ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وجفنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر » .. وهى حركة كونية ضخمة غامرة تصورها الفاظ وعبارات مختارة . تبدأ بإسناد الفعل إلى الله مباشرة : « ففتحنا » فيحس القارىء بدالجبار تفتح « أبواب السماء » .. بهذا اللفظ وبهذا الجمع . « بماء منهمر » . . غزير متوال . وبالقوة ذاتها وبالحركة نفسها : « وجفنا الأرض عيونا » .. وهو تمييز يرسم مشهد التفجر وكأنه ينبثق من الأرض كلها ، وكأنما الأرض كلها قد استحالَت عيونا .

والتي الماء المنهمر من السماء بالماء للضجر من الأرض .. « على أمر قد قدر .. » التيا على أمر مقدر ، فيها على اتفاق لتنفيذ هذا الأمر المقدر . طامئان للأمر ، محققان للقدر .

حتى إذا صار طوفانا يطم ويم ، ويضر وجه الأرض ، ويطوى الدنس الذي ينشئ هذا الوجه . وقد ينشئ الرسول من تطهيره ، وغلب على أمره في علاجه . امتدت اليد القوية الرحمة إلى الرسول الذي دعا دعوته ، فتحرك لها الكون كله . امتدت له هذه اليد بالنجاة وبالتكريم : « وحملناه على ذات ألواح ودسر . نجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر » . .

وظاهر من العبارة تخفيف السفينة وتعتيم أمرها . فهي ذات ألواح ودسر (١) . توصف ولاتذكر لفخامتها وقيمتها . وهي تجري في رعاية الله بملاحظة أعيته . « جزاء لمن كان كفر » . ووجدوا زاد دجر . وهو جزاء يمسح بالرعاية على الجفاء ، وبالتكريم على الاستهزاء . ويصور مدى القوة التي يملك رصيدها من يغلب في سبيل الله . ومن يبذل طاقته ، ثم يعود إليه يسلم له أمره وأمر الدعوة ويدع له أن ينتصر . . إن قوى الكون الهائلة كلها في خدمته وفي نصرته . والله من ورثها بجبروته وقدرته .

وطى مشهد الانتصار المائل الكامل ؟ والمحق الحاسم الشامل ، يتوجه إلى القلوب التي شهدت للشهد كأنها تراه . يتوجه إليها بلغة التعتيب ، لملها بتأثر وتستجيب : « ولقد تركناها آية فهل من مدكر ؟ » . .

هذه الواقعة بملاستها للعروفة . تركناها آية للأجيال . « فهل من مدكر ؟ » يتذكر ويشتر ؟

ثم سؤال لإيقاظ القلوب إلى هول المذاب وصدق النذير :

« فكيف كان عذابي ونذر ؟ » . .

ولقد كان كما صوره القرآن . كان عذابا مدمرا جبارا . وكان نذيرا صادقا بهذا المذاب . وهذا هو القرآن حاضر ، سهل التناول ، ميسر الإدراك ، فيه جاذبية ليقرا ويتدبر . فيه جاذبية الصدق والبساطة ، ومواقفة القطرة ، واستجاشة الطبع ، لاتنفذ عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد . وكلما تدبره القلب عاد منه بزيادة جديد . وكلما صحته النفس زادت له ألفة وبه أنسا : « ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدكر ؟ » . .

وهذا هو التعقيب الذى يتكرر ، بمد كل مشهد يصور . . ويقف السياق عنده بالقلب
البشرى يدعو دعوة هادئة إلى التذكر والتدبر ، بمد أن يمرض عليه حلقة من العذاب الأليم
الذى حل بالمكذبين .

« كذبت عاد ، فكيف كان عذابى ونذر ؟ إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس
مستمر ، نزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر . فكيف كان عذابى ونذر ؟ ولقد يسرنا القرآن
للذكر فهل من مدكر ؟ » ..

وهذه هي الحلقة الثانية ، أو الشاهد الثانى من مشاهد التعذيب العنيف ، والصراع الذى يقف
عليه بمد وقفته على مصرع قوم نوح . أول الهلكين .

يدؤه بالإخبار عن تكذيب عاد . وقبل أن يكلل الآية يسأل سؤال التعجب والتهويل :
« فكيف كان عذابى ونذر ؟ » . كيف كان بمد تكذيب عاد ؟ ثم يجيب . .

كان كما يصفه ذلك الوصف الحاطف الرعب :

« إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر . نزع الناس كأنهم أعجاز نخل
منقعر » . . والريح الصرصر : الباردة العنيفة . وجرس اللفظ يصور نوع الريح . والنحس :
الشؤم . وأى نحس يصيب قوما أشد عما أصاب عاد . والريح نزعهم وتجذبهم - وعظمهم :
تدعهم كأنهم أعجاز نخل مهشعة مقالوعة من قهورها ؟ !

والشاهد مفزع خفيف ، وعاصف عنيف . والريح التى أرسلت على عاد « هى من جند الله »
وهى قوة من قوى هذا الكون ، من خلق الله ، تسير وفق التاموس الكونى الذى اختاره ؟
وهو يسلطها على من يشاء ، بينما هى ماضية فى طريقها مع ذلك التاموس ، بلا تمارض بين خط
سيرها الكونى ، وأدائها لما تؤمر به وفق مشيئة الله . صاحب الأمر وصاحب التاموس :

« فكيف كان عذابى ونذر ؟ » ..

يكررها بمد عرض للشهد . وللشاهد هو الجواب !

ثم يختم الحلقة بالتعقيب المكرر فى السورة وفق نسقها الخاص :

« ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟ » ..

ثم يمضى إلى الشهد التالى فى السياق وفى التاريخ :

« كذبت ثمود بالنذر . قالوا : أئبرا منا واحدا نتبعه ؟ إنا إذن لنى ضلال وسمر . ألقى الله كره عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب أشر . سيعلمون غدا من الكذاب الأشر . إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقمهم واصطبر . ونبئهم أن الماء قسمة بينهم ، كل شرب محضر . فنادوا صاحبهم فضاطى فمقر . فكيف كان عذابى ونذر ؟ إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر . ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدكر ؟ » ..

و ثمود كانت القبيلة التى خلفت عاداً فى القوة والتمكين فى جزيرة العرب . . كانت عاد فى الجنوب وكانت ثمود فى الشمال . وكذبت ثمود بالنذر كما كذبت عاد ، غير معتبرة بمصرعها المشهور للملوم فى أنحاء الجزيرة .

« قالوا : أئبرا منا واحدا نتبعه ؟ إنا إذن لنى ضلال وسمر . ألقى الله كره عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب أشر » ..

وهى الشبهة المسكورة التى تحيك فى صدور للكذابين جيلا بعد جيل : « ألقى الله كره عليه من بيننا ؟ » كما أنها هى الكبرياء الجوفاء التى لاتنظر إلى حقيقة الدعوة ، إنما تنظر إلى شخص الداعية : « أئبرا منا واحدا نتبعه ؟ » ا

وماذا فى أن يختار الله واحدا من عباده .. والله أعلم حيث يجعل رسالته .. فليلق عليه الذكر - أى الوحي وما يحمله من توجيهات للتذكر والتدبر - ماذا فى هذا الاختيار لمبد من عباده يعلم منه تهيؤ واستمداه . وهو خالق الخلق . وهو منزل الذكر ؟ إنها شبهة واهية لا تقوم إلا فى النفوس للتحرفة . النفوس التى لاتريد أن تنظر فى الدعوة لترى مقدار ما فيها من الحق والصدق ؟ ولكن إلى الداعية فتستكبر عن اتباع فرد من البشر ، مخافة أن يكون فى اتباعها له إثاره وتعتيم . وهى تستكبر عن الإذعان والتسليم .

ومن ثم يقولون لأنفسهم : « أئبرا منا واحدا نتبعه ؟ إنا إذن لنى ضلال وسمر » .. أى لواقع منا هذا الأمر المستنكر ! وأهجب شئ أن يصفوا أنفسهم بالضلال لو اتبعوا الهدى ! وأن يحسبوا أنفسهم فى سر - لافى سمر واحد - إذا هم فاءوا إلى ظلال الإيمان !

ومن ثم يتهمون رسولهم الذى اختاره الله ليؤدبهم فى طريق الحق والقصد . يتهمون به بالكذب والطمع : « بل هو كذاب أشر » . . كذاب لم يلق عليه الله كره . أشر : شديد الطمع فى اختصاص نفسه بالمكانة ! وهو الاتهام الذى يواجه به كل داعية . اتهامه بأنه يتخذ الدعوة

ستارا لتحقيق مآرب ومصالح . وهى دعوى للعلموسين الذين لا يدركون دوافع النفوس ومحركات القلوب .

وبينا يجرى السياق على أسلوب الحكاية لقصة غبرت في التاريخ . . يلتفت فجأة وكأنما الأمر حاضر . والأحداث جارية . فيتحدث عما سيكون . ويهدد بهذا الذى سيكون :

« سيعلمون غدا من الكذاب الأشر » .

وهذه إحدى طرق العرض القرآنية للقصة . وهى طريقة تنفخ روح الحياة الواقعية في القصة ، وتهيلها من حكاية تحكى ، إلى واقعة تعرض على الأنظار ، يترقب النظارة أحداثها الآن ، ويرقبونها في مقلب الزمان !

« سيعلمون غدا من الكذاب الأشر » . . وسيكشف لهم القدر عن الحقيقة . وإن يكونوا بمنجاة من وقع هذه الحقيقة . فستكشف عن البلاء للدمر للكذاب الأشر !

« إنا مرسلو الناقة فتنة لهم . فارتقبهم واصطبر . ونبئهم أن الماء قسمة بينهم . كل شرب محضر » . .

ويقف القارئ يترقب ماسيقع ، عندما يرسل الله الناقة فتنة لهم ، وامتحانا بميزان حقيقتهم . ويقف الرسول - رسولهم عليه السلام - مرتقبا ماسيقع ، مؤتمرا بأمر ربه في الاصطبار عليهم حتى تقع الفتنة ويتم الامتحان . ومعه التلميحات . . أن الماء في القبيلة قسمة بينهم وبين الناقة - ولا بد أنها كانت ناقة خاصة ذات خصائص معينة تجعلها آية وعلامة - فيوم لها و يوم لهم - تحضر يومها ويحضرون يومهم . وتناول شربها وينالون شربهم .

ثم يعود السياق إلى أسلوب الحكاية . فيقص ماكان بعد ذلك منهم :

« فنادوا صاحبهم فتماطى فقر » ..

وصاحبهم هو أحد الرهط الفاسدين في المدينة ، الذين قال عنهم في سورة النمل : « وكان في المدينة تسمة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون » . . وهو الذى قال عنه في سورة الشمس : « إذ انبعث أشعائها » ..

وقيل : إنه تماطى الخرف فسكر ليصير جريئا على الفعلة التى هو مقدم عليها . وهى عقرا الناقة التى أرسلها الله آية لهم ؛ وحذرهم رسولهم أن يمسوها بسوء فيأخذهم عذاب أليم .. « فنادوا صاحبهم فتماطى فقر » وتمت الفتنة ووقع البلاء .

« فكيف كان عذابي ونذري ؟ » ..

وهو سؤال التجيب والتهويل . قبل ذكر ما حل من العذاب بمد النذير :

« إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر » ..

ولا يفصل القرآن هذه الصيحة . وإن كانت في موضع آخر في سورة « فصلت » توصف بأنها صاعقة : « فإن تولوا قل : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » . . وقد تكون كلمة صاعقة وصفا للصيحة . فهي صيحة صاعقة . وقد تكون تعبيرا عن حقيقتها . فتكون الصيحة والصاعقة شيئا واحدا . وقد تكون الصيحة هي موت الصاعقة . أو تكون الصاعقة أظرا من آثار الصيحة التي لا ندرى من صاحبها .

وعلى أية حال فقد أرسلت على القوم صيحة واحدة ، فعملت بهم ما فعلت ، مما جعلهم « كهشيم المحتظر » . . والمحتظر صانع الخليفة . وهو يصنعها من أعواد جافة . فهم صاروا كالأعواد الجافة حين تيبس وتتحطم وتصبح هشيا . أو أن المحتظر يجمع لما شئته شيئا تأكله من الأعواد الجافة والشب الناشف . وقد صار القوم كهذا الهشيم بمد الصيحة الواحدة ! وهو مشهد مفعج مفرع . يمرض ردا على التعالي والتكبر . فإذا التماثلون المتكبرون هشيم . وهشيم مهين . كهشيم المحتظر !

وأمام هذا المشهد الغيف الخيف ، يرد قلوبهم إلى القرآن ليتذكروا ويتدبروا . وهو ميسر للتذكر والتدبر :

« ولقد يسرنا القرآن للذكر . فهل من مدكر ؟ » ..

ويسدل الستار على المشيم المهيمن . وفي العين منه مشهد . وفي القلب منه أثر . والقرآن يدعو من يذكر ويتفكر ...

ثم يرفع الستار عن حلقة جديدة تالية - بعد ذلك - في التاريخ ، في محيط الجزيرة العربية كذلك :

« كذبت قوم لوط بالنذر . إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر . نعمة من عندنا . كذلك نجزي من شكر . ولقد أنذرهم بطشتنا فآثروا بالنذر . ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر . ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر . فذوقوا عذابي ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟ » ..

وقصة قوم لوط وردت مفصلة في مواضع أخرى . والمقصود برضاها ليس هو تفضيلها . إنما هي العبرة من عاقبة التكذيب ، والأخذ الأليم الشديد . ومن ثم تبدأ بذكر ما وقع منهم من تكذيب بالنذر : « كذبت قوم لوط بالنذر » . . . وعلى إثر هذه الإشارة يصف هازلهم بهم من النكال :

« إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر . نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر » ..

والحاصب : الريح تحمل الحجارة . وفي مواضع أخرى ورد أنه أرسل إليهم حجارة من طين . ولفظة الحاصب ذات جرس كأنه وقع الحجارة ، وفيه شدة وعنف تناسب جو الشهد . ولم ينج إلا آل لوط - إلا أمرا تنة - نعمة من عند الله جزاء إيمانهم وشكرهم . . كذلك نجزي من شكر » . فنجيه وننعم عليه في وسط للهلك والمخاوف .

والآن وقد عرض القصة من طرفها : طرف التكذيب وطرف الأخذ الشديد . فإنه يعود لشيء من التفصيل فيما وقع بين الطرفين .. وهذه إحدى طرق الرمز القرآنية للقصة حين يراد إبراز إحصاءات معينة من إيرادها في هذا النسق ^(١) . هذه التفصيلات هي :

« ولقد أنذرهم بطشتنا قناروا بالنذر . ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم ، فذوقوا عذابى ونذر . ولقد صبحهم بكرة عذاب مستمر » ..

وطالما أنذر لوط قومه عاقبة للشكر الشاذ الذى كانوا يأتونه ، قناروا بالنذر ، وشكوا فيها وارتابوا ، وتبادلوا الشك والارتباب فيما بينهم وتداولوه ، وجادلوا نبيهم فيه . وبلغ منهم الفجور والاستهتار أن راودوه هو نفسه عن ضيفه من اللائكة - وقد حسبهم غلمانا صابحا فهاج سمارهم الشاذ الملوث القدر ١ وساوروا لوطا يريدون الاعتداء للشكر على ضيفه ، غير محتملين ولا مستحيين ، ولا متحرجين من انتهاك حرمة نبيهم الذى حذرهم وأنذرهم عاقبة هذا الشذوذ القدر للرئيس .

عندئذ تدخلت يد القدرة ، وتحرك اللائكة لأداء ما كلفوه وجاءوا من أجله : « فطمسنا أعينهم » فلم يمدوا يرون شيئا ولا أحدا ؛ ولم يمدوا يقدرين على مساورة لوط ولا الإمساك بضيفه ١ والإشارة إلى طمس أعينهم لا ترد إلا في هذا اللوح بهذا الوضوح . ففي موضع آخر

(١) إرجع فصل : « القصة في القرآن » في كتاب : « التصوير الفني في القرآن » .

ورد : « قالوا : يالوط إنا ربك لن يصلوا إليك » .. فزاد هنا ذكر الحالة التي صارت تمنعهم من أن يصلوا إليه . وهي انطاس الميون ا

وبينا السياق يجرى مجرى الحكاية ، إذ يابه حاضرمشهود ، وإذا الخطاب يوجه إلى الغدنيين : « فذوقوا عذابي ونذر » .. فهذا هو العذاب الذي حذرتهم منه ، وهذه هي النذر التي تماريتم فيها ا

وكان طمس الميون في الساء .. في انتظار الصباح الذي قدره الله لأخدمهم جميعا :

« ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر » ..

وهو ذلك العذاب الذي يحل بذكره في السياق . وهو الحاصب الذي طهر الأرض من تلك اللوثة ومن ذلك الفساد .

ومرة أخرى تغير طريقة العرض ، ويستحضر للشهد كأنه اللحظة واقع . وينادى المذبون وهم يمانون العذاب :

« فذوقوا عذابي ونذر » III

ثم يجرى التقيب المألوف ، عقب الشهد العنيف :

« ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » ؟

وتختم هذه الحلقات بحلقة خارج الجزيرة ، ومصرع من المصارع المشهورة المذكورة . في إشارة سريعة خاطفة :

« ولقد جاء آل فرعون النذر . كذبوا بآياتنا كلها ، فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر » ..

وهكذا تختم قصة فرعون وملئه في طرفها : مجيء النذر لآل فرعون وتكذيبهم بالآيات

التي جاءهم بها رسولهم . وأخدمهم بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر . والإشارة إلى العزة والاعتدار

تلقى ظلال الشدة في الأخذ ؛ وفيها تعريض بمزة فرعون واقتداره على البني والظلم . فقد ضاعت

العزة الباطلة ، وسقط الاقتدار للوهوم . وأخذنه الله — هو وآله — أخذ عزيز حقا مقتدر صدقا .

أخدمهم أخذا شديدا يناسب ما كانوا عليه من ظلم وغشم وبطش وجبروت .

وعلى هذه الحلقة الأخيرة على مصرع فرعون الجبار . يسدل الستار . .

والآن . وقد أسدل الستار على آخر مشهد من مشاهد المذاب والنكال . والمكذبون يشهدون ؟ ويتلقى حسهم إيقاع هذه للشاهد .. الآن والمصارع التالية حاضرة في خيالهم ، ضاغطة على حسهم .. الآن يتوجه إليهم بالخطاب ؟ يحذرهم مصرعا كهذه المصارع . وينذرهم ماهو أدهى وأفظع :

« أ كفاركم خير من أولئكم ؟ أم لكم براءة في الزير ؟ أم يقولون : نحن جميع منتصر ؟ سيهزم الجميع ويولون الدبر . بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر . إن المجرمين في ضلال وسمر . يوم يسحبون في النار على وجوههم : ذوقوا مس سقر . إنا كل شيء خلقناه بقدر . وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر . ولقد أهلكنا أشياءكم فهل من مذكر . وكل شيء فلوله في الزير . وكل صغير وكبير مستطر » . .

إنه الإنذار بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة ؛ وإسقاط كل شبهة وكل شك في صدق هذا الإنذار . وسد كل نفرة وكل طمع في الهرب والفكاك ؛ أو المبالطة في الحساب والفرار من الجزاء ؛ تلك كانت مصارع المكذبين . فما ينعم أنتم من مثل ذلك المصير ؟ « أ كفاركم خير من أولئكم ؟ » .. وما ميزة كفاركم على أولئكم ؟ « أم لكم براءة في الزير » .. تشهد بها الصحف المنزلة ، فتعفوا إذن من جرائم الكفر والتكذيب ؟ لا هذه ولا تلك . فلستم خيرا من أولئكم ، وليست لكم براءة في الصحف المنزلة ، وليس هنالك إلا لقاء المصير الذي لقيه الكفار من قبلكم في الصورة التي يقدرها الله لكم .

ثم يلتفت عن خطابهم إلى خطاب عام ، يجب فيه من أمرهم :

« أم يقولون : نحن جميع منتصر » .

وذلك حين يرون جميعهم فتعجبهم قوتهم ، ويفترون بتجمعهم ، فيقولون : إنا منتصرون
لاهازم لنا ولا غالب ؟

هنا يمثلها عليهم مدونة قاضية حاسمة :

« سيهزم الجميع ويولون الدبر » . .

فلا يصممهم بتجمعهم ، ولا تصرهم قوتهم . والذي يمثلها عليهم هو القهار الجبار . . ولقد كان ذلك . كما لا يد أن يكون ا

قال البخاري بإسناده إلى ابن عباس - : أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال وهو في قبة

له يوم بدر : « أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم في الأرض أبداً » . فأخذ أبو بكر رضي الله عنه يده ، وقال : حسبك يا رسول الله ألححت على ربك اغفرج وهو يثب في الدرع ، وهو يقول : « سيزم الجمع ويولون الدبر . . . » .

وفي رواية لابن أبي حاتم بإسناده إلى عكرمة ، قال : لما نزلت « سيزم الجمع ويولون الدبر » قال عمر : أي جمع يهزم ؟ أي أي جمع يثب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم - يثب في الدرع ، وهو يقول : « سيزم الجمع ويولون الدبر » . فسمعت تأويلها يومئذ !

وكانت هذه زعة الدنيا . ولكنها ليست هي الأخيرة . وليست هي الأشد والأدهى ؛ فهو يضرب عن ذكرها لذكر الأخرى :

« بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر » . .

أدهى وأمر من كل عذاب رأوه أو يرونه في هذه الأرض . وأدهى وأمر من كل مشهد رأوه مرسوماً في أمر . من الطوفان ، إلى الصرصر . إلى الصاعقة . إلى الحاصب . إلى أخذ فرعون . وآله أخذ عزيز مقتدر !

ثم يفصل كيف هي أدهى وأمر . يفصل هذا في مشهد عنيف من مشاهد القيامة :

« إن المجرمين في ضلال وسمر . يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مسقر » . .

في ضلال يندب المقول والنفوس ، وفي سمر تكوى الجلود والأبدان . . في مقابل ما كانوا يقولون هم وأمثالهم من قبل : « أيسرا منا واحداً نتبعه ؟ إنا لئن لقي ضلال وسمر » . ليعرفوا أين يكون الضلال وأين تكون السمر !

وهم يسحبون في النار على وجوههم في عنف وتحقير ، في مقابل الاعتزاز بالقوة والاستكبار . وهم يزدادون عذاباً بالإيلايم النفس ، الذي كأنما يشهد اللحظة حاضراً معروضا على الأصابع . والأنظار : « ذوقوا مسقر » !

وفي ظل هذا المشهد المروع الزلزل يتجه بالبيان إلى الناس كافة ، وإلى القوم خاصة . ليقر في قلوبهم حقيقة قدر الله وحكته وتدييره . .

إن ذلك الأخذ في الدنيا ، وهذا العذاب في الآخرة . وما كان قبلها من رسالات ونذر ، ومن قرآن وزبر . وما حول ذلك كله من خلق ووجود وتصريف لهذا الوجود . .

إن ذلك كله ، وكل صغيرة وكبيرة مخلوقة بقدر ، مصروفة بقصد ، مدبرة بحكمة . لا شيء جزاف . لا شيء عبث . لا شيء مصادفة . لا شيء ارتجال :
« إنا كل شيء خلقناه بقدر » .

كل شيء .. كل صغير وكل كبير . كل ناطق وكل صامت . كل متحرك وكل ساكن . كل ماض وكل حاضر . كل معلوم وكل مجهول . كل شيء .. خلقناه بقدر ..
قدر يحدد حقيقته . ويحدد صفته . ويحدد مقداره . ويحدد زمانه . ويحدد مكانه . ويحدد ارتباطه بسائر ما حوله من أشياء . وتأثيره في كيان هذا الوجود .

وإن هذا النص القرآني القصير اليسير يشير إلى حقيقة ضخمة هائلة شاملة ، مصداقها هذا الوجود كله . حقيقة يدركها القلب جملة وهو يواجه هذا الوجود ، ويتجاوب معه ، ويتلقى عنه ، ويحس أنه خليفة متناسقة تناسقا دقيقا . كل شيء فيه بقدر يحقق هذا التناسق للطلق ، الذي ينطبع ظله في القلب جملة وهو يواجه هذا الوجود .

ثم يبلغ البحث والرؤية والتجربة من إدراك هذه الحقيقة القدر الذي تهبه هذه الوسائل ، ويطنقه العقل البشري ، ويملك معرفته عن هذا الطريق . ووراء هذا القدر يبقى دائما ما هو أعظم وأكبر ، تدركه الفطرة وينطبع فيها بتأثير الإجماع الكوني للتناسق فيها ، وهي ذاتها بعض هذا الكون للتناسق المخلوق كل شيء فيه بقدر .

ولقد وصل العلم الحديث إلى أطراف من هذه الحقيقة ، فيما يملك أن يدرك منها بوسائله المهيأة له .. وصل في إدراك التناسق بين أبعاد النجوم والكواكب وأحجامها وكتلتها وجاذبيتها بعضها لبعض إلى حد أن يحدد المساء مواقع كواكب لم يروها بعد ؟ لأن التناسق يقتضي وجودها في الواضع التي حددها . فوجودها في هذه اللواقع هو الذي يفسر ظواهر معينة في حركة الكواكب التي رصدوها .. ثم يتحقق هذا الذي فرضوه . ويدل تحقيقه على الدقة المتناهية في توزيع هذه الأجرام ، في هذا الفضاء الهائل ، بهذه النسب للقذرة ، التي لا يتناولها خلل أو اضطراب !

ووصل في إدراك التناسق في وضع هذه الأرض التي نعيش عليها ، لتكون صالحة لنوع الحياة التي قدر الله أن تكون فيها إلى حد أن اقتراض أي اختلال في أية نسبة من نسبها يؤدي (٧ - في ظلال القرآن [٢٧])

بهذه الحياة كلها ، أو لايسمح أصلاً بقيامها . فنجح هذه الأرض ، وكتلتها ، وبمدها عن الشمس . وكتلة هذه الشمس ، ودرجة حرارتها . وميل الأرض على محورها بهذا القدر ، وسرعتها في دورتها حول نفسها وحول الشمس . وبعد القمر عن الأرض . وحجمه وكتلته . وتوزيع الماء واليابس في هذه الأرض ... إلى آلاف من هذه النسب للقدره تقديراً ، لو وقع الاختلال في أى منها لتبدل كل شيء ؟ ولكانت هي النهاية للقدره لعمر هذه الحياة على هذه الأرض !

ووصل في إدراك التناسق بين عدد كبير من الضوابط التي تضبط الحياة ؟ وتنسق بين الأحياء والظروف المحيطة بها ؟ وبين بعضها وبعض . . إلى حد يعطى فكرة عن تلك الحقيقة العميقة والكبيرة التي تشير إليها الآية . فالنسبة بين عوامل الحياة والبقاء وعوامل الموت والفناء في البيئة وفي طبيعة الأحياء محفوظة دائماً بالقدر الذي يسمح بنشأة الحياة وبقائها وامتدادها . وفي الوقت ذاته يحيد من انتشارها إلى الحد الذي لا تكتفي الظروف للمياة للأحياء ، في وقت ما ، لإعائتهم وإعاشتهم !

ولعله من المفيد أن نشير إشارة سرية إلى شيء من هذا التوازن في علاقات بعض الأحياء ببعض . إذ كنا قد أشرنا بشيء من التفصيل في سور أخرى إلى التناسق في بناء الكون ، وفي ظروف الأرض (١) ..

« إن الجوارح التي تتغذى بصغار الطيور قليلة العدد ، لأنها قليلة البيض ، قليلة التفريخ ، فضلاً على أنها لا تبيض إلا في مواطن خاصة محدودة . وهي في مقابل هذا طويلة الأعمار . ولو كانت مع عمرها الطويل ، كثيرة الفراخ مستطيمة الحياة في كل موطن ، لفضت على صغار الطيور وأفنتها على كثرتها وكثرة تفريخها . أوقلت من أعدادها الكبيرة اللازمة بدورها لطعام هذه الجوارح وسواها من بني الإنسان ، وللقيام بأدوارها الأخرى ، ووظائفها الكثيرة في هذه الأرض !

بناث الطير أكثرها فراخاً وأم الصقر يقلات تزور
وذلك للحكمة التي قدرها الله كآرائنا ، كي تتبادل عوامل البقاء وعوامل الفناء بين الجوارح والبنات !

والدبابه تبيض ملايين البويضات . ولكنها لا تعيش إلا أسبوعين . ولو كانت تعيش بضعة أعوام ، تبيض فيها بهذه النسبة لتعطى اللباب وجه الأرض بتناجه ولضدت حياة كثير من الأجناس

- وأولها الإنسان - مستحيلة على وجه هذه الأرض. ولكن عجلة التوازن التي لا تختل ، في يد القدرة التي تدبر هذا الكون ، وازنت بين كثرة النسل وقصر العمر فكان هذا الذي نراه !
والليكروبات - وهى أكثر الأحياء عددا ، وأسرعها تكاثرا ، وأشدها فتكا - هى كذلك أضعف الأحياء مقاومة وأقصرها عمرا . تموت بملايين للملايين من البرد ، ومن الحر ، ومن الضوء ، ومن أحماض للمعدات ، ومن أمصال الدم ، ومن عوامل أخرى كثيرة . ولا تغلب إلا على عدد محدود من الحيوان والإنسان . ولو كانت قوية للمقاومة أو طويلة العمر لاسمرت الحياة والأحياء !

وكل حى من الأحياء مزود بسلاح يتقى به هجمات أعدائه ويغالب به خطر الفناء . وتختلف هذه الأسلحة وتتنوع . ففكرة المدد سلاح . وقوة البطش سلاح . وبينها ألوان وأنواع ..
الحيات الصغيرة مزودة بالسم أو بالسرعة للهرب من أعدائها . والثمايين الكبيرة مزودة بقوة العضل ، ومن ثم يندر فيها السام !

والخنفساء - وهى قليلة الحيلة - مزودة بجاذبية ذات رائحة كريهة ، تصبها على كل من يلسها ، وقاية من الأعداء !

والظباء مزودة بسرعة الجرى والقفز ، والأسود مزودة بقوة البأس والاقتراس !
وهكذا كل حى من الأحياء الصغار والكبار على السواء .

وكل حى مزود كذلك بالخصائص والوسائل التي يحصل بها على طعامه ، والتي ينفع معها بهذا اللون من الطعام .. الإنسان والحيوان والطيور وأدنا أنواع الأحياء سواء ..

البوضة بمد تلقحها بالحيوان للنوى تلتصق بالرحم . وهى مزودة بحماية أكله ، تمزق جدار الرحم حولها وتحوله إلى بركة من الدم للناسب لامتصاصها ونموها ! والحبل اليرى الذي يربط الجنين بأمه ليتغذى منها حتى يتم وضعه ، روعى في تكوينه ما يحقق الغرض الذى تكون من أجله ، دون إطالة قد تسبب تخمر الغذاء فيه ، أو قصر قد يؤدي إلى اندفاع الغذاء إليه بما قد يؤذيه » (١) .

« والثدى يفرز في نهاية الحبل وبدء الوضع سائلا أبيض مائلا إلى الاصفرار . ومن عجيب صنع الله أن هذا السائل عبارة عن مواد كيمياوية ذاتية تقى الطفل من عدوى الأمراض . وفى اليوم

(١) من كتاب : الله والعالم والحديث للأستاذ عبد الرزاق نوفل ص ٤٦-٤٧ .

التالى لليلاد يبدأ اللبن في التكوين . ومن تدبير اللدبر الأعظم أن يزداد مقدار اللبن الذى يفرزه الثدي يوما بعد يوم ، حتى يصل إلى حوالى لتر ونصف في اليوم بعد سنة ، بينما لا يزيد كميته في الأيام الأولى على بضع أوقيات . ولا يقف الإعجاز عند كمية اللبن التى تزيد على حسب زيادة الطفل ؛ بل إن تركيب اللبن كذلك تتغير مكوناته ، وتركيز مواده ، فهو يكاد يكون ماء به القليل من النشويات والسكريات في أول الأمر ، ثم تتركز مكوناته فزيد نسبته النشوية والسكرية والدهنية فترة بعد أخرى ، بل يوما بعد يوم بما يوافق أنسجة وأجهزة الطفل للمستمر النمو ^(١)

وتتبع الأجهزة المختلفة في تكوين الإنسان ، ووظائفها ، وطريقة عملها ، ودور كل منها في المحافظة على حياته وصحته . . يكشف عن العجب السحاب في دقة التقدير وكال التدبير . ويرينا يد الله وهى تدبر أمر كل فرد . بل كل عضو . بل كل خلية من خلاياه . وعين الله عليه تكلمه وترعاه . ولن نستطيع هنا أن تفصل هذه العجائب فنكتفي بإشارة سريعة إلى التقدير الدقيق في جهاز واحد من هذه الأجهزة . جهاز المدد الصم « تلك للعامل الكيماوية الصغيرة التى تعد الجسم بالتركيبات الكيماوية الضرورية ، والتى يبلغ من قوتها أن جزءا من ألف بليون جزء منها تحدث آثارا خطيرة في جسم الإنسان . وهى مرتبة بحيث أن إفراز كل غدة يكمل إفراز الغدة الأخرى . وكل ما كان يعرف عن هذه الإفرازات أنها معقدة التركيب تمقيدا مدهشا ، وأن أى اختلال في إفرازها يسبب تلقا عاما في الجسم ، يبلغ حد الخطورة . إذا دام هذا الاختلال وقتا قصيرا » ^(٢) .

أما الحيوان فتختلف أجهزته باختلاف أنواعه وبيئاته وملابسات حياته . .

« زودت أفواه الآماد والنمور والذئاب والضباع ، وكل الحيوانات الكاسرة التى تعيش في القلابة ، ولا غذاء لها إلا ما تقتصره من كائنات لا بد من مهاجمتها ، والغلب عليها ، بأنياب قاطمة ، وأسنان حادة ، وأضراس صلبة . ولما كانت في هجومها لا بد أن تستعمل عضلاتها ، فلا رجليها عضلات قوية ، سلحت بأظافر ومخالب حادة ، وحوث معدتها الأحماض والأنزيمات الهاضمة للحوم والغطام » ^(٣) .

(١) المصدر السابق ص ٤٧ - ٤٨

(٢) المصدر السابق ص ٥١ - ٥٢

(٣) المصدر السابق ص ٧١ - ٧٢

فأما الحيوانات المهاجرة للسائنة التي تعيش على الراعى ، فهي تختلف فيما زودت به . .
« وقد صممت أجهزتها المأخوذة بما يتناسب مع البيئة ، فأفواهها واسعة نسبيا ؛ وقد تجردت من الأنياب القوية والأضراس الصلبة . وبدلا منها توجد الأسنان التي تتميز بأنها قاسية قاطعة ؛ فهي تأكل الحشائش والنباتات بسرعة ، وتبتلعها كذلك دفعة واحدة ، حتى يمكنها أن تؤدي للإنسان ما خلقت لأجله من خدمات . وقد أوجدت العناية الخالقة لهذا الصنف أعجب أجهزة الهضم ، فالطعام الذي تأكله ينزل إلى الكرش ، وهو مخزن له ، فإذا ما انتهى عمل الحيوان اليومي وجلس للراحة ، يذهب الطعام إلى تجويف يسمى « القلنسوة » . ثم يرجع إلى الفم ، فيمضغ ثانية مضغا جيدا ، حيث يذهب إلى تجويف ثالث يسمى « أم التلافيف » ، ثم إلى رابع يسمى « الإفنتحة » وكل هذه العملية الطويلة أعدت لحماية الحيوان ، إذ كثيرا ما يكون هدفا لهجوم حيوانات كاسرة في الراعى ، فوجب عليه أن يحصل على غذائه بسرعة ويختفي . ويقول العلم إن عملية الاجترار ضرورية بل وحيوية ، إذ أن العشب من النباتات العسرة الهضم ، لما يحتويه من السيلوز الذي يلف جميع الخلايا النباتية ، ولهضمه يحتاج الحيوان إلى وقت طويل جدا ، فلو لم يكن مجترا ، وبمدته مخزن خاص ، لنضاع وقت طويل في الرعى ، يكاد يكون يوما بأكله ، دون أن يحصل الحيوان على كفايته من الغذاء ، ولأجهد الضلالت في عمليات التناول والضمغ . إنما سرعة الأكل ، ثم تخزينه وإعادةه بعد أن يصيب شيئا من التخمر ، ليبدأ للضمغ والطحن والبلع ، تحقق كافة أغراض الحيوان من عمل وغذاء وحسن هضم . فسبحان للدبر » (١) .

« والطيور الجارحة كالبيوم والحدأة ذات منقار مقوس حاد على شكل خفاف لتمزيق اللحوم . بينما للإوز والبط مناقير عريضة منبسطة منفلطحة كالملرفة ، توائم البحث عن الغذاء في الطين والماء . وعلى جانب المنقار زوائد صغيرة كالأسنان لتساعد على قطع الحشائش .

« أما الدجاج والحمام والطيور التي تلتقط الحب من الأرض فنماذجها قصيرة مدية لتؤدي هذا الغرض . بينما منقار البجعة مثلا طويل طولا ملحوظا ، ويمتد من أسفله كيس يشبه الجراب ليكون كشبكة الصيد . إذ أن السمك هو غذاء البجعة الأساسي .

« ومنقار المهدد وأبو قردان طويل مدبب ، أعد لإثخان للبحث عن الحشرات والديدان ،

التي غالباً ما تكون تحت سطح الأرض . ويقول العلم : إنه يمكن للإنسان أن يعرف غذاء أى طير من النظرة العابرة إلى منقاره . .

« أما باقى الجهاز الهضمى للطير فهو غريب عجيب . فلما لم يعط أسناناً فقد خلقت له حوصلة وقانصة تهضم الطعام . ويلتقط الطير مواد صلبة وحصى لتساعد القانصة على هضم الطعام » (١) .
ويطول بنا الاستعراض ، ونخرج على منهج هذه الظلال ، لورحنا نتبع الأنواع والأجناس الحية على هذا النحو ، فنسرع الخطى إلى « الإميا » وهى ذات الحلية الواحدة ، لئلا نرى يد الله معها ، وعينه عليها ، وهو يقدر لها أمرها تقديراً .

« والإميا كائن حي دقيق الحجم ، يعيش فى البرك والمستنقعات ، وأعلى الأحجار الراسبة فى القاع . ولا يرى بالعين إطلاقاً . وهو يرى بالمجاهر ، كتلة هلامية ، يغير شكلها بتغير الظروف والحاجات . فنمدا تتحرك تدفع بأجزاء من جسمها تكون به زوائد ، تستعملها كالأقدام ، والسير بها إلى المكان المرغوب . ولذا تسمى هذه الزوائد بالأقدام الكاذبة . وإذا وجدت غذاء لها أمسكت به بزائدة أوزانيتين ، وتفرز عليه عصارة هاضمة ، فتقضى بالمقيد منها ، أما الباقي فتطرده من جسمها ، وهى تنفث من كل جسمها بأخذ الأكسوجين من الماء .. فتصور هذا الكائن الذى لا يرى إطلاقاً بالعين ، يعيش ويتحرك ، ويتقضى وينفث ، ويخرج فضلاته ! فإذا ماتم نموه انقسم إلى قسمين ، ليكون كل قسم حيواناً جديداً ..

« وعجائب الحياة فى النبات لا تقل فى إثارة العجب والدهشة عن عجائباتها فى الإنسان والحيوان والطير . والتقدير فيها لا يقل ظهوراً وبروزاً عنه فى تلك الأحياء . « وخلق كل شيء بقدره تقديراً » (٢) . .

على أن الأمر أعظم من هذا كله وأتمثل فى التقدير والتدبير . إن حركة هذا الكون كله بأحداثها ووقائعها وتياراتها مقدره مدبرة صغيرها وكبيرها . كل حركة فى التاريخ ككل انفعال فى نفس فرد ، ككل نفس يخرج من صدر ! إن هذا النفس مقدر فى وقته ، مقدر فى مكانه ، مقدر فى ظروفه كلها ، مرتبط بنظام الوجود وحركة الكون ، محسوب حساباً فى التناسق الكونى ، كالأحداث العظام الضخام !

وهذا المورد البرى الثابت وحده هناك فى الصحراء . . إنه هو الآخر قائم هناك بقدر . وهو

يؤدي وظيفة ترتبط بالوجود كله منذ كان ! وهذه النحلة السارية . وهذه الهبأة الطائرة .
وهذه الحلية السابحة في الماء . كالأفلاك والأجرام الهائلة سواء !
تقدير في الزمان ، وتقدير في المكان ، وتقدير في القدار ، وتقدير في الصورة . وتناسق
مطلق بين جميع اللابسات والأحوال .

من ذا الذي يذكر مثلاً أن زواج يعقوب من امرأة أخرى هي أم يوسف وبنامين أخيه ،
لم يكن حادثاً شخصياً فردياً . إنما كان قدراً مقدوراً ليحدد إخوة يوسف من غير أمه عليه ،
فيأخذوه فيلقوه في الجب - ولا يقتلوه - لتلقطه السيارة . لتبيته . في مصر . لينشأ في قصر
العزیز . لتراوده امرأة العزیز عن نفسه . ليستعلى على الإغراء . ليلقى في السجن . لماذا ؟
ليتلاقى في السجن مع خادمي الملك . ليفسرلها الرؤيا . لماذا ؟ إلى تلك اللحظة لا يوجد جواب !
ويقف ناس من الناس يسألون : لماذا ؟ لماذا يارب يتمدب يوسف ؟ لماذا يارب يتمدب يعقوب ؟
لماذا يفقد هذا التي يصبره من الحزن ؟ ولماذا يسام يوسف الطيب الزكي كل هذا الألم ، للتويع الأشكال ؟
لماذا ؟ . ولأول مرة تجيء أول إجابة بعد أكثر من ربع قرن في العذاب . لأن القدر يمنه
ليتولى أمر مصر وشعبها والشعوب المجاورة في سن القحط السبعة ! ثم ماذا ؟ ثم ليستمد أوبه
وأخوته . ليكون من تسلمهم شعب بن إسرائيل . ليضطهدهم فرعون . لينشأ من بينهم موسى -
وما صاحب حياته من تقدير وتدير - لتنشأ من وراء ذلك كله قضايا وأحداث وتيارات يسبى
العالم فيها اليوم بكيته ! وتؤثر في مجرى حياة العالم جميعه !

ومن ذا الذي يذكر مثلاً أن زواج إبراهيم جد يعقوب من هاجر المصرية لم يكن حادثاً
شخصياً فردياً . إنما كان وماسبقه في حياة إبراهيم من أحداث أدت إلى مغادرته موطنه في العراق
ومروءه بمصر ، ليأخذ منها هاجر ، ثلثه لإسماعيل . ليسكن إسماعيل وأمه عند البيت المحرم .
لينشأ محمد - صلى الله عليه وسلم - من نسل إبراهيم عليه السلام - في هذه الجزيرة . أصح مكان
على وجه الأرض لرسالة الإسلام . ليكون من ذلك كله ذلك الحدث الأكبر في تاريخ
البشرية العام !

إنه قدر الله وراء طرف الحيط البعيد . لكل حادث . ولكل نشأة . ولكل مصر . ووراء
كل قطعة ، وكل خطوة ، وكل تبديل أوتير .

إنه قدر الله النافذ ، الشامل ، الدقيق ، العميق .

وأحياناً يرى البشر طرف الحيط القريب ولا يرون طرفه البعيد . وأحياناً يتناول الزمن بين

البدء والمصير في عمرهم القصير ، فتخفى عليهم حكمة التدبير . فيستعجلون ويقترحون . وقد يسخطون . أو يتطاولون !
والله يعلمهم في هذا القرآن أن كل شيء بقدر ليسلموا الأمر لصاحب الأمر ، وتطمئن قلوبهم وتستريح . ويسيروا مع قدر الله في توافق وفي تناسق ، وفي أنس بصحبة القدر في خطواته المطمئن الثابت الوثيق ..

ومع التقدير والتدبير ، القدرة التي تفعل أعظم الأحداث بأيسر الإشارات :
« وما أمرنا إلا واحدة كلعج بالبصر » ..

فهى إشارة واحدة . أو كلمة واحدة يتم بها كل أمر : الجليل والصغير سواء . وليس هناك جليل ولا صغير . إنما ذلك تقدير البشر للأشياء . وليس هناك زمن ولا ما يبادل لمح البصر . إنما هو تشبيه لتقريب الأمر إلى حس البشر . فالزمن إن هو إلا تصور بشري ناشئ من دورة أرضهم الصغيرة ، ولا وجود له في حساب الله المطلق من هذه التصورات المحدودة . واحدة تنشئ هذا الوجود الهائل . وواحدة تبدل فيه وتغير . وواحدة تذهب به كإشياء الله . وواحدة تحي كل حي . وواحدة تذهب به هنا وهناك . وواحدة تردده إلى الموت . وواحدة تبعثه في صورة من الصور . وواحدة تبحث الخلائق جميعا . وواحدة تجمعهم ليوم الحشر والحساب . وواحدة لا تحتاج إلى جهد ، ولا تحتاج إلى زمن . وواحدة فيها القدرة ومهما التقدير . وكل أمر معها مقدر ميسور .

وبواحدة كان هلاك الكافرين على مدار القرون . وفي هذه يذكرهم بصير أمثالهم من الكافرين :
« ولقد أهلكننا أشياء عظيم من مدكر ؟ وكل شيء فعلوه في الزبر ، وكل صغير وكبير مستطر » .
فهذه مصارع الكافرين ، معروضة في الحلقات التي تضمنتها السورة من قبل .. « فهل من مدكر ؟ » .. يتذكر ويستر ؟
ولم ينته حسابهم بمصارعهم الأليمة ، فورا هم حساب لا يفلت منه شيء : « وكل شيء فعلوه في الزبر » .. مسطر في الصحائف ليوم الحساب : « وكل صغير وكبير مستطر » .. لا ينسى منه شيء وهو مسطور في كتاب !

وعند هذا الحد من العرض والتقيب ، يلتفت السياق إلى صفحة أخرى غير صفحة السكدين .
ويمرض صورة أخرى في ظل وادع أمين . صورة التيقن :

« إن التيقن في جنات ونهر . في مقعد صدق عند ملك مقتدر » ..
ذلك بينا المجرمون في ضلال وسمر . يسجون في النار على وجوههم في مهانة . ويلذعون
بالتأنيب كما يلذعون بالسعير : « ذوقوا مس سقر » ..
وهي صورة للنعم بطرفه : « في جنات ونهر » . « في مقعد صدق عند ملك مقتدر » ..
نسيم الحس والجوارح في تعبير جامع شامل : « في جنات ونهر » يلقى ظلال النماء واليسر
حتى في لفظه الناعم للنساب .. وليس لمجرد إيقاع القافية تجي كلمة « نهر » بفتح الهاء ، بل
كذلك لإلقاء ظل اليسر والنومة في جرس اللفظ وإيقاع التسمير !
ونعيم القلب والروح . نعيم القرب والتكريم : « في مقعد صدق عند ملك مقتدر » ..
فهو مقعد ثابت مطمئن ، قريب كريم ، مأنوس بالقرب ، مطمئن بالتكئين . ذلك أنهم للتقون ..
الخائفون . الترقبون . والله لا يجمع على نفس خوفين : خوفها منه في الدنيا ، وخوفها يوم
القيامة . فمن انشأ في العاجلة أمنه في الآجلة . ومع الأمان في أفزع موطن ، يضمه
بالأنس والتكريم .

* * *

وعند هذا الإيقاع الهادي ، في هذا الظل الآمن ، تنتهي السورة التي حفلت حلقاتها بالقزع
والكرب والأخذ والتسمير . فإذا للظل الآمن والإيقاع الهادي طعم وروح أعماق وأروح ..
وهذه هي الترية الكاملة . تربية العليم الحكيم بمسارب النفوس ومداخل القلوب . وهذا هو
التقدير الدقيق لخالق كل شيء بقدر ، وهو اللطيف الخبير ..

سُورَةُ الرَّحْمٰنِ مَكِّيَّةٌ
وَأَسْمَانُهَا ٧٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« الرَّحْمٰنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ مُحْسَبَانِ *
وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا ، وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ *
وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ * وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ * فِيهَا فَاكِهَةٌ
وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ * وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ؟

« خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ * فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟

« رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟

« مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ؟ * يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ *
وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟

(١) في روايات أنها مدنية وفي روايات أنها مكية . ونحن ترجح مكيتها . ونسبها توضح فيه سمات القرآن
الليكن . شأنها في هذا شأن سورة الرعد ، وفيها الاختلاف ذاته . وقد اعتبرناها مكية عند الحديث عنها
للاسباب ذلتها .

« كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا قَانٍ * وَبَيْنَ يَدَيْهِ وَجْهٌ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ * فَيَأْتِي آلَاءَهُ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ »

« بِنَآئِهِ بَيْنَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ * فَيَأْتِي آلَاءَهُ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ »

« سَتَجِدُنَا كَلِمَةً اتِّفَاقًا * فَيَأْتِي آلَاءَهُ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ * يَنْفَقِرَ الْجَنُّ وَالْإِنْسُ إِذَا اسْتَعْلَمُوا أَن تَنْفُذُوا مِنْ أَفْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَآقَذُوا لَا تَنْفَعُهُمْ إِلَّا بِسُلْطَانٍ * فَيَأْتِي آلَاءَهُ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَبُخَّاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ * فَيَأْتِي آلَاءَهُ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ »

« فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ * فَيَأْتِي آلَاءَهُ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ * فَيَأْتِي آلَاءَهُ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ يُعْرِضُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيَاهِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالْأَوَامِرِ وَالْأَفْئَامِ * فَيَأْتِي آلَاءَهُ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ، يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيرٍ آتٍ * فَيَأْتِي آلَاءَهُ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ »

« وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ * فَيَأْتِي آلَاءَهُ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ * ذَوَاتَا أَفْنَانٍ * فَيَأْتِي آلَاءَهُ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ * فَيَأْتِي آلَاءَهُ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ * فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ رَوْحَانٍ * فَيَأْتِي آلَاءَهُ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ * مُتَكَيِّفِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ، وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ * فَيَأْتِي آلَاءَهُ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ * فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الْغُرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْسٌ قَبْلَهُنَّ وَلَا جَانٌ * فَيَأْتِي آلَاءَهُ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ * كَانَهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ * فَيَأْتِي آلَاءَهُ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ * هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ؟ * فَيَأْتِي آلَاءَهُ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ »

« وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ؟ * فَيَأْتِي آلَاءَهُ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ * مُدْهَمَكَتَانِ * »

قَبَائِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ فِيمَا عَيْنَانِ نَضَاحَتَانِ * قَبَائِ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ؟ فِيمَا فَاكِهَةٌ وَنَحْلٌ وَرُثْمَانٌ * قَبَائِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ فِيمَا
خَيْرَاتِ حِسَانٍ * قَبَائِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ * حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْغِيَامِ *
قَبَائِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ * لَمْ يَعْلَمِشْنِ إِنَّسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ * قَبَائِ آلَاءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ * مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرِي حِسَانٍ * قَبَائِ آلَاءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟

« تَبَارَكَ أَنْتُمْ رَبُّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » .

هذه السورة للكية ذات نسق خاص ملحوظ . إنها إعلان عام في ساحة الوجود الكبير ،
وإعلام بآلاء الله الباهرة الظاهرة . في جيل منحه ، وإبداع خلقه ؟ وفي فيض نعمائه ؟ وفي تديره
الوجود وما فيه ؟ وتوجه الخلائق كلها إلى وجهه الكريم . . وهي إشهاد عام للوجود كله على
التقلين : الإنس والجن المخاطبين بالسورة على السواء ، في ساحة الوجود ، على مشهد من كل
موجود ، مع تحديهما إن كانا يملكان التكذيب بآلاء الله ، تحديا يشكر رغب بيان كل نعمة
من نعمه التي يمددها ويفصلها ويحملها ، الكون كله مفرضا لها ، وساحة الآخرة كذلك .

ورنة الإعلان تتجلى في بناء السورة كله ، وفي إيقاع فواصلها .. تتجلى في إطلاق الصوت
إلى أعلى ، وامتداد التصويت إلى بعيد ؟ كما تتجلى في الطلع الموقظ الذي يستثير الترقب والانتظار
لما يأتي بعد الطلع من أخبار . . الرحمان .. كلمة واحدة . مبتدأ مفردا . . الرحمان كلمة واحدة
في معناها الرحمة ، وفي رتبا الإعلان ، والسورة بعد ذلك يان للسات الرحمة ومعرض
لآلاء الرحمان .

ويبدأ معرض الآلاء بتعليم القرآن بوصفه النة الكبرى على الإنسان . تسبق في الله كخلق
الإنسان ذاته وتعليمه البيان .

ثم يذكر خلق الإنسان ، ومنحه الصفة الإنسانية الكبرى .. البيان ..

ومن ثم يفتح محائف الوجود الناطقة بآلاء الله .. الشمس والقمر والنجم والشجر والسماء

الرفوعة . والبرازن للوضوح . والأرض وما فيها من فاكهة ونخل وحب وريحان . والجن والإنس . والشرقان والغربان . والبحران بينهما برزخ لا يبيان ، وما يخرج منهما وما يجري فيها . فإذا تم عرض هذه الصفائف الكبار . عرض مشهد فئاتها جميعا . مشهد القناء المطلق للخلائق ، في ظل الوجود المطلق لوجه الله الكريم الباقي . الذي إليه تتوجه الخلائق جميعا ، ليتصرف في أمرها بما يشاء .

وفي ظل القناء المطلق والبقاء المطلق يحيى التهديد للروع والتحدى الكوني للجن والإنس :
« سافرغ لكم أيها القتلان . بامشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفوا من أقطار السماوات والأرض فانفوا . لا تنفون إلا بسلطان . فبأي آلاء ربكما تكذبان ، يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنصران . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » . .

ومن ثم يمرض مشهد النهاية . مشهد القيامة . يمرض في صورة كونية . يرتسم فيها مشهد السماء حمراء سائلة ، ومشهد المذاب للمجرمين ، والثواب للمتقين في تطويل وتفصيل .
ثم يحيى الاحتمام المناسب لمرض الآلاء : « تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام » . .

إن السورة كلها إعلان عام في ساحة الوجود الكبير . إعلان ينطلق من اللائ الأعلى ، فتجواب به أرجاء الوجود . ويشهده كل من في الوجود وكل مافي الوجود . .

الرحمان
هذا المطلق للتصود بلفظه ومناه ، وإيقاعه وموسيقاه .

الرحمان
بهذا الرنين الذي تتجاوب أسداؤه الطليقة للديدة للدوية في أرجاء هذا الكون ، وفي جنبات هذا الوجود .

الرحمان
بهذا الإيقاع الساعد الذهاب إلى بريد ، يجلجل في طباق الوجود ، ويخاطب كل موجود ؛
وتلتفت على رتته كل كائن ، وهو ملاء فضاء السماوات والأرض ، ويبلغ إلى كل سمع وكل قلب ..
الرحمان

ويسكت . وتنتهى الآية . ويصمت الوجود كله وينصت ، فى ارتقاب الخبر العظيم . بعد المطلع العظيم .

ثم يحنى الخبر للترقب ، الذى يخفق له ضمير الوجود . . .

« علم القرآن . خلق الإنسان علمه البيان . الشمس والقمر بحسبان . والنجم والشجر يسجدان . والباء رفعها ووضع الميزان . ألا تظنوا فى الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان . والأرض ضمها للأنام . فيها فاكهة والتخل ذات الأكمام . والحب ذوالصفى والريحان . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » .

هذا هو القطع الأول فى بيان آلاء الرحمن . وهذا هو الخبر الأول بعد ذلك الإعلان .. « علم القرآن » . .

هذه النعمة الكبرى التى تتجلى فيها رحمة الرحمن بالإنسان .. القرآن .. الترجمة الصادقة الكاملة لنواميس هذا الوجود . ومنهج الباء للأرض . الذى يصل أهلها بناموس الوجود ؛ ويقيم عقيدتهم وتصوراتهم وموازنهم وقيمهم ونظمهم وأحوالهم على الأساس الثابت الذى يقوم عليه الوجود . فيمنحهم اليسر والطمأنينة والتفاهم والتجاوب مع الناموس .

القرآن الذى يفتح حواسهم ومشاعرهم على هذا الكون الجليل ، كأنما يطالعهم أول مرة ؛ فيجدد إحساسهم بوجودهم الدافئ ، كما يجدد إحساسهم بالكون من حولهم . ويزيد فيمنح كل شئ من حولهم حياة نابضة تتجاوب وتماطف مع البشر ؛ فلذا هم بين أصدقاء ، ورفاق أحياء ، حينما ساروا أو أقاموا ، طوال رحلتهم على هذا الكوكب !

القرآن الذى يقر فى أخلادهم أنهم خلفاء فى الأرض ، وأنهم كرام على الله ، وأنهم حملة الأمانة التى أشفقت منها الداوات والأرض والجبال . فيشعروهم بقيمتهم التى يستمدونها من تحقيق إنسانيتهم العليا ، بوسيلتها الوحيدة .. الإيمان .. الذى يحيى فى أرواحهم نفخة الله . ويحقق نعمته الكبرى على الإنسان .

ومن ثم قدم تعليم القرآن على خلق الإنسان . فيه يتحقق فى هذا الكائن معنى الإنسان . « خلق الإنسان علمه البيان » . .

وندد - مؤقتا - خلق الإنسان ابتداء ، فسيأتى ذكره فى مكانه من السورة بعد قليل . إذ المقصود من ذكره هنا هو ما ناله من تعليمه البيان .

إننا نرى الإنسان ينطق ويعبر ويدين ، ويتفاهم ، ويتجاوب مع الآخرين . . فننى بطوله الألفة عظيمة هذه الحبة ، وضخامة هذه الحارقة ، فإردنا القرآن إليها ، وبوقفنا لتدبرها ، فى مواضع شتى .

فما الإنسان ؟ ما أصله ؟ كيف يبدأ ؟ وكيف يُعلم البيان ؟
إنه هذه الخلية الواحدة التى تبدأ حياتها فى الرحم . خلية ساذجة صغيرة ، ضئيلة ، مهينة . ترى بالمجهر ، ولا تكاد تبين . وهى لا تُبين ! ! !

ولكن هذه الخلية ماثلت أن تكون الجنين . الجنين للمكون من ملايين الخلايا النوعية . عظمية . وغضروفية . وعضلية . وعصية . وجلدية . . ومنها كذلك تتكون الجوارح والحواس ووظائفها للمهشة : السمع . البصر . النبوق . الشم . المس . ثم . ثم الحارقة الكبرى والسر الأعظم الإدراك والبيان ، والشعور والإلهام . . كله من تلك الخلية الواحدة الساذجة الصغيرة الضئيلة المهينة ، التى لا تكاد تبين ، والتى لا تُبين !

كيف ؟ ومن أين ؟ من الرحمان ، وبسبح الرحمان .
فلننظر كيف يكون البيان ؟ : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » . .

إن تكوين جهاز النطق وحده عجيبة لا ينقضى منها العجب . . اللسان والشفقان والفك والأنسان . والخنجرة والقصبه الهوائية والشعب والريثان . . إنها كلها تشترك فى عملية التصويت الآلية وهى حلقة فى سلسلة البيان . وهى على ضخامتها لا تمثل إلا الجانب اليسكانيسكى الآلى فى هذه العملية للمقدمة ، والمتعلقة بمد ذلك بالسمع والمخ والأعصاب . ثم بالعقل الذى لا نعرف عنه إلا اسمه . ولا ندرى شيئا عن ماهيته وحقيقته . بل لا نكاد ندرى شيئا عن عمله وطريقته !

كيف ينطق الناطق باللفظ الواحد ؟
إنها عملية معقدة كثيرة المراحل والخطوات والأجهزة . مجهولة فى بعض المراحل خافية حتى الآن .

إنها تبدأ شعورا بالحاجة إلى النطق بهذا اللفظ لأداء غرض معين . هذا الشعور ينتقل - لاندري كيف - من الإدراك أو العقل أو الروح إلى أداة العمل الحسية . . المخ . . ويقال : إن المخ يصدر أمره عن طريق الأعصاب بالنطق بهذا اللفظ المطلوب . واللفظ ذاته مما علمناه

لإنسان وعرفه معناه . وهنا تطرد الرثة قدرا من الهواء المحتزن فيها ، ليخرج من الشعب إلى القبة الموائية إلى الحجرة وجبالها الصوتية العجيبة التي لا تقاس إليها أوتار أية آلة صوتية صنعها الإنسان ، ولا جميع الآلات الصوتية المختلفة الأنغام ! فيصوت الهواء في الحنجرة صوتا تشكله حسب ما يريد العقل . . . عاليا أو خافتا . سريرا أو بطيئا . خشنا أو ناعما . ضخما أو رقيقا . . إلى آخر أشكال الصوت وصفاته . ومع الحنجرة اللسان والشفان والفك والأسنان ، يمر بها هذا الصوت فيتشكل بضغوط خاصة في مخارج الحروف المختلفة . وفي اللسان خاصة يمر كل حرف بمنطقة منه ذات إقناع معين ، يتم فيه الضغط المعين ، ليصوت الحرف بجرس معين . . . وذلك كله لفظ واحد . . . ووراء العبارة . وللوضوع . والفكرة . والشاعر الساقية واللاحقة . وكل منها عالم عجيب غريب ، ينشأ في هذا الكيان الإنساني العجيب الغريب . بصنعة الرحمان . وفضل الرحمان .



ثم يستطرد في بيان آلاء الرحمان في المرض الكوني العام :

« الشمس والقمر بحسبان » ..

حيث تتجلى دقة التقدير ، في تنسيق التكوين والحركة ، بما يلائم القلب روعة ودهشة ، وشعورا بضخامة هذه الإشارة ، وما في طياتها من حقائق بعيدة الآماد عميقة الأغوار . إن الشمس ليست هي أكبر ما في السماء من أجرام . فثناك في هذا الفضاء الذي لا يعرف البشر له حدودا ، ملايين الملايين من النجوم ، منها الكثير أكبر من الشمس وأشد حرارة وضوءا . فالشمس الجانية أهمل من الشمس بشرين مرة ، ونورها يعادل خمسين ضعف نور الشمس . والباك الرامح حجمه ثمانون ضعف حجم الشمس ونوره ثمانية آلاف ضعف . وسيل أقوى من الشمس بألفين وخمسة مرة ... وهكذا ...

ولكن الشمس هي أم نجم بالنسبة لنا . نحن سكان الكوكب الأرضي الصغير ، الذي يعيش هو وسكانه جميعا على ضوء الشمس وحرارتها وجاذبيتها .

وكذلك القمر وهو تابع صغير للأرض . ولكنه ذو أثر قوى في حياتها . وهو العامل الأم في حركة الجزر وللد في البحار .

وحجم الشمس ، ودرجة حرارتها ، وبمدها عنا ، وسيرها في فلكها . وكذلك حجم القمر

وبعد ودورته .. كلها محسوبة حسابا كاملا الدقة بالقياس إلى آثارها في حياة الأرض . وبالقياس إلى وضعها في الفضاء مع النجوم والكواكب الأخرى ..

وتتناول طرفا من الحساب الدقيق في علاقتهما بكوكبنا الأرض وما عليه من حياة وأحياء .. إن الشمس تبعد عن الأرض باثنين وتسعين ونصف مليون من الأميال . ولو كانت أقرب إلينا من هذا لاحتقرت الأرض أو انصهرت أو استحوالت بخارا يتصاعد في الفضاء ! ولو كانت أبعد منا لأصاب التجمد واللوث ما على الأرض من حياة ! والذي يصل إلينا من حرارة الشمس لا يتجاوز جزءا من مليوني جزء من حرارتها . وهذا القدر الضئيل هو الذي يلائم حياتنا . ولو كانت الشمس بضامتها وإشعاعها هي التي في مكان الشمس منا لتبخرت الكرة الأرضية ، وذهبت بددا !

وكذلك القمر في حجمه وبعد عن الأرض . فلو كان أكبر من هذا لكان للد الذي يحده في بحر الأرض كافيا لعمرها بطوفان يمس كل ما عليها . وكذلك لو كان أقرب مما وضعه الله بحسابه الذي لا يخطئ مقدار شعرة !

وجاذبية الشمس وجاذبية القمر للأرض لها حسابهما في وزن وضعها ، وضبط خطاها في هذا الفضاء الشاسع الرهيب ، الذي تجري فيه مجموعتنا الشمسية كلها بسرعة عشرين ألف ميل في الساعة في اتجاه واحد نحو برج الجبار . ومع هذا لا تلتقي بأى نجم في طريقها على ملايين السنين !

وفي هذا الفضاء الشاسع الرهيب لا يخل مدار نجم بمقدار شعرة ، ولا يخل حساب التوازن والتناسق في حجم ولا حركة .

وصدق الله العظيم .. « الشمس والقمر يحسان » .

« والنجم والشجر يسجدان » ..

وقد كانت الإشارة السابقة إلى الحساب والتقدير في بناء الكون الكبير . فأما هذه فهي إشارة إلى اتجاه هذا الكون وارتباطه . وهي إشارة موحية إلى حقيقة هادية .

إن هذا الوجود مرتبط ارتباط البودية والعبادة بمصدره الأول ، وخالقه للبدع . والنجم والشجر نموذجان منه ، يدلان على اتجاهه كله . وقد فسر بعضهم النجم بأنه النجم الذي في السماء . كما

فسره بعضهم بأنه النبات الذى لا يستوى على سوفة كالشجر . وسواء كان هذا أم كان ذاك فإن مدى الإشارة فى النص واحد . ينتهى إلى حقيقة اتجاه هذا الكون وارتباطه .
والكون خليفة حية ذات روح . روح يختلف مظهرها وشكلها ودرجتها من كائن إلى كائن . ولكنها فى حقيقتها واحدة .

ولقد أدرك القلب البشرى منذ عهود بعيدة حقيقة هذه الحياة السارية فى الكون كله . وحقيقة اتجاه روحه إلى خالقه . أدركها بالإلهام اللدنى فيه . ولكنها كانت تقيم عليه ، وتتوارى عنه كلما حاول اقتناصها بقله للقيد بتجارب الخواص !
ولقد استطاع أخيراً أن يصل إلى أطراف قريبة من حقيقة الوحدة فى بناء الكون . ولكنه لا يزال بعيداً عن الوصول إلى حقيقة روحه الحية عن هذا الطريق !
والعلم يميل اليوم إلى افتراض أن الثرة هى وحدة بناء الكون ؟ وأنها فى حقيقتها مجرد إشعاع . وأن الحركة هى قاعدة الكون ، والخاصية المشتركة بين جميع أفرادها .

فلماذا إذن يشبه الكون بحركته التى هى قاعدته وخاصيته ؟
القرآن يقول : إنه يشبه إلى مبدعه بحركة روحه - وهى الحركة الأميلة لخرقة ظاهره لانتكون إلا تعبيرا عن حركة روحه - وهى الحركة التى تمثلها فى القرآن آيات كثيرة منها هذه : « والنجم والشجر يسجدان » . . . ومنها : « تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فىهن وإن من شئ إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم » . . . ومنها : « ألم تر أن الله يسبح له من فى السماوات والأرض والطير صافات . كل قد علم صلاته وتسبيحه » . .
وتأمل هذه الحقيقة ، ومتابعة الكون فى عبادته وتسبيحه ، مما يمنح القلب البشرى متاعاً عالياً ، وهو يشعر بكل ما حوله حياً يماطقه ويتجه معه إلى خالقه . وهو فى وقته بين أرواح الأشياء كلها ، وهى تدب فيها جيماً ، وتحيلها إخواناً له ورققاء !
إنها إشارة ذات أبعاد وآماد وأعماق . . .

« والسما رفعتها ووضع الميزان . ألا تظنوا فى الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان »

والإشارة إلى السماء - كباقي الإشارات القرآنية إلى مجالى هذا الكون - تقصد إلى تنبيه القلب التأمل ، وإيقاظه من بلاءة الألفة ، وإيقاظه لمظنة هذا الكون وتناسقه وجماله ، وإلى قدرة اليد التى أبدعته وجلالها .

والإشارة إلى السماء - أيا كان مدلول السماء - توجه النظر إلى أهل . إلى هذا الفضاء الهائل السامق الذي لا تبدو له حدود معروفة ؛ والذي تسبح فيه ملايين الملايين من الأجرام الضخمة ، فلا يلقى منها إثنان ، ولا تصطم مجموعة منها بمجموعة . ويبلغ عدد المجموعة أحيانا ألف مليون نجم ، كمجموعة المجرة التي ينتسب إليها عالمنا الشمسي ، وفيها ما هو أصغر من ثمننا وما هو أكبر آلاف المرات . ثمننا التي يبلغ قطرها مليوناً وثلث مليون كيلو متر ١١١ ، وكل هذه النجوم ، وكل هذه المجموعات تجري في الكون بسرعات خفيفة ، ولكنها في هذا الفضاء الهائل ذرات سائحة متباعدة ، لا تلتقي ، ولا تصادم !

وإلى جوار هذه العظمة في رفع هذه السماء الهائلة الوسعة « وضع اللوزان » ميزان الحق . وضعه ثابتاً راسخاً مستقراً . وضعه لتقدير القيم . قيم الأشخاص والأحداث والأشياء . كي لا يغفل تقويمها ، ولا يضطرب وزنها ، ولا يتبع الجهل والقرص والمهوى . وضعه في القطرة ووضعه في هذا النهج الإلهي الذي جاءت به الرسالات وتضمنه القرآن :

وضع اللوزان .. « ألا تطغوا في اللوزان » .. فتغالوا وتغرطوا .. « وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا اللوزان » .. ومن ثم يستقر الوزن بالقسط ، بلا طغيان ولا خسران . ومن ثم يرتبط الحق في الأرض وفي حياة البشر ، ببناء الكون ونظامه . يرتبط بالسماء في مدلولها العلوي حيث ينزل منها وحى الله ونهجه . ومدلولها المنظور حيث تمثل ضخامة الكون وثباته بأمر الله وقدرته .. ويلتقي هذان للدلولان في الحس بإيقاعها وظلالها الموحية .

« والأرض وضعنا للأنعام فيها فاكرة والنخل ذات الأكمام . والحب ذو الصف والرحمان » . ونحن لطول استقرارنا على هذه الأرض ، والفتنا لأوضاعها وظواهرها ، ولوضنا نحن كذلك عليها : نحن لهذا كله لانكاد نحس يد القدرة التي « وضعت » هذه الأرض للأنعام . وجعلت استقرارنا عليها ممكناً وميسوراً إلى الحد الذي لانكاد نشعر به . ولاننتبه إلى ضخامة معنى الاستقرار ، وعظمة نعمة الله علينا فيه - لإيئين الحين والحين حين يثور بركان ، أو يعمور زئزال ، فيؤرجح هذه الأرض للطمثنة من تحتنا ، فتضطرب وتمور . عندئذ نتذكر معنى الاستقرار الذي نستمتع به على هذه الأرض بنعمة الله .

والبشر خلقون أن يتذكروا هذه الحقيقة في كل لحظة ، لو أنهم آلقوا بالهم إلى أن أرضهم هذه التي يركنون إليها ، إن هي إلا هباءة سائحة في فضاء الله الواسع . هباءة تسبح في هذا

القضاء المطلق . تسبح حول نفسها بسرعة نحو ألف ميل في الساعة . وتسبح - مع هذا - حول الشمس بسرعة ستين ألف ميل في الساعة . بينما هي والشمس والمجموعة الشمسية كلها تبعد مجملتها في هذا القضاء بسرعة عشرين ألف ميل في الساعة متجهة في اتجاه واحد نحو يبرج الجبار في السماء !

أجل لو أنهم ألقوا بالهم إلى أنهم محمولون على هذه الهبالة السابعة التي تنهب القضاء نها بهذه السرعة ، معلقة في أجوازه بغير شيء إلا قدرة الله . لظلوا أبدا معلقى القلوب والأبصار ، واجنى الأرواح والأوصال ، لا يركنون إلا للواحد القهار الذى وضع الأرض للأنام ، وأقرم عليها هذا الإقرار !!

ولقد يرلم فيها الحياة ، وهي تدورهم حول نفسها وحول الشمس ، وتركض مع الشمس وتوابها بتلك السرعة المذهلة . وقد فيها أقواتها التي يذكر منها هنا الفاكهة - ويخص منها النخل ذات الأكام - (والسكم كيس الطلع الذى ينشأ منه الثمر) يشير إلى جمال هبتها بجانب فائدة ثمرتها . ويذكر منها الحب ذا الورق والسيقان التي تصف وتصور طامعا للماشية . ويذكر منها الرمحان . النبات ذا الرائحة . . . وهي ألوان من نبات الأرض شتى . منها ماهو طعام للإنسان ومنها ماهو طعام للدواب ، ومنها ماهو روح للناس ومتاع .

وعند هذا القطع من تمداد أنعم الله وآلائه : تعليم القرآن . وخلق الإنسان . وتعليمه البيان . وتنسيق الشمس والقمر بحسبان . ورفع السماء ووضع لليزان . ووضع الأرض للأنام . ومافيا من فاكهة ونخل وحب ورمحان . . عند هذا المقطع يهتف بالجن والإنسان ، في مواجهة الكون وأهل الكون : « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » . . وهو سؤال للتسجيل والإشهاد . فما يملك إنس ولا جان أن يكذب بآلاء الرحمن في مثل هذا اللقاع .

ثم ينتقل من الامتنان عليها بآلاء الله في الكون ، إلى الامتنان عليها بآلائه في ذوات أنفسها ، وفي خاصة وجودها وإنشائها :

« خلق الإنسان من صلصال كالفخار . وخلق الجن من مارج من نار . . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » . .

ونعمة الإيجاد . والإنشاء أصل النعمة . والساقفة بين الوجود وعدم الوجود ابتداء مسافة

لا تقاس أبعادها بأى مقياس مما يألفه البشر . فجميع المقاييس التى فى أيدى البشر أو التى تدركها عقولهم ، هى مقاييس للفارق بين موجود وموجود . أما المسافة بين الوجود وغير الوجود فلا تدركها مدارك البشر بحال ! ونحب الجن كذلك ، فإن لم يخلق مقاييسه مقاييس المخلوقات !

لجن عتق الله على الجن والإنس نعمة الإيجاد والإنشاء ؛ فإبما عتق عليها بالنعمة التى فوق حد الإدراك .

ثم يقرر الحق سبحانه مادة خلق الإنسان والجن ، وهى كذلك من خلق الله . والصلصال : الطين إذا يبس وصار له صوت وصلصلة عند الضرب عليه . وقد تكون هذه حلقة فى سلسلة النشأة من الطين أو من التراب . كما أنها قد تكون تعبيراً عن حقيقة الوحدة بين مادة الإنسان ومادة الأرض فى عناصر التكوين .

« وقد أثبت العلم الحديث أن جسم الإنسان يحتوى من العناصر ما تحويه الأرض . فهو يتكون من الكربون ، والأكسجين ، والهيدروجين ، والفوسفور ، والكبريت ، والآزوت ، والكالسيوم ، والبوتاسيوم ، والصوديوم ، والكلور ، والفلينسيوم ، والحديد ، والنتجين ، والنحاس ، واليود ، والفلورين ، والكوبالت ، والزنك ، والسلكون ، والألمنيوم . وهذه كلها هى العناصر المكونة للتراب . وإن اختلفت نسبها فى إنسان عن الآخر ، وفى الإنسان عن التراب . إلا أن أسنانها واحدة » (١) .

إلا أن هذا الذى أثبتته العلم لا يجوز أن يؤخذ على أنه التفسير الحتمى للنص القرآنى . فقد تكون الحقيقة القرآنية تعنى هذا الذى أثبتته العلم ، أو تعنى شيئاً آخر سواء . وتقتضى إلى صورة أخرى من الصور الكثيرة التى يتحقق بها معنى خلق الإنسان من تراب ، أو طين أو صلصال . والذى ننبه إليه بشدة هو ضرورة عدم قصر النص القرآنى على كشف علمى بشرى ، قابل للخطأ والصواب ، وقابل للتعديل والتبديل ، كما اتسمت معارف الإنسان وكثرت وتحسنت وسائله للمعرفة . فإن بعض المخلصين من الباحثين يسارعون إلى اللطافة بين مدلول النصوص القرآنية والكشوف العلمية - تجريبية أو افتراضية - بنية يان مافى القرآن من إعجاز . فالقرآن معجز سواء طابعت الكشوف العلمية للتأرجحة نصوصه الثابتة أم لم تطابقها . ونصوده أوسع مدلولاً من حصرها فى نطاق تلك الكشوف القابلة دائماً للتبديل والتعديل ، بل للخطأ والصواب

من الأساس ! وكل ما يستفاد من الكشف العلمية في تفسير نصوص القرآن ، هو توسيع مدلولها في تصورنا كما أطلعنا العلم على شيء مما تشير إليه إشارات مجملة من آيات الله في الأنفس والآفاق ، دون أن يحمل النص القرآني على أن مدلوله هو هذا الذي كشفه العلم . إنما جواز أن يكون هذا بعض ما يشير إليه .

فأما خلق الجن من مارج من نار . فمسألة خارجة عن حدود العلوم البشرية . والصادر الواحد فيها هو هذا القرآن . خبر الله الصادق . الذي خلق وهو أعلم بمن خلق . . والمارج : المشتعل المتحرك كاللغة النار مع الرياح ! والجان قدرة على الحياة في هذه الأرض مع الإنس . ولكننا لا ندرى كيف يعيش الجن وقبيله . فأما الأمر المستيقن فهو أنهم مخاطبون بهذا القرآن كما سبق بيانه عند تفسير قوله تعالى : « وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن . » وكما هو الحال هنا في سورة الرحمن .

والخطاب هنا للجن والإنس ، لتذكيرهما بنعمة الوجود . كل من الأصل الذي أنشأه الله منه . وهى النعمة التي تقوم عليها سائر النعم . ومن ثم يقب عليها بتعقيب التسجيل والإشهاد العام : « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » .. ولأنكذب في هذا للقام للشهود !

« رب الشرفين ورب اللعنين . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ »

وهذه الإشارة التي تملأ القلب بفيض غامر من الشعور بوجود الله ، حيثما توجه ، وحيثما تلفت ، وحيثما امتد به النظر حوله في الآفاق .. حيث الشروق وحيث الغروب هناك الله .. ربوبيته ومشيئته وسلطانه ، ونوره وتوجيهه وهدايته ..

والشرفان واللعنران قد يكون المقصود بهما شروق الشمس وشروق القمر . وغروبها كذلك . بمناسبة ذكر الشمس والقمر فيما تقدم من آلاء الله . وقد يكون المقصود مشرق الشمس المختلف في الوضع في الصيف والشتاء ومغربها كذلك .

وعلى أية حال فإن ظلال هذه الإشارة هى الأولى بالالتفات . ظلال الاتجاه إلى الشرق والمغرب ، والشعور بالله هناك ، والإحساس بيمه تحرك الكواكب والأفلاك ، ورؤية نوره وربوبيته في الآفاق هنا وهناك . والرصيد الذي يؤوب به القلب من هذا التأمل والتدبر والنظر في للشارق والمغرب ، وازداد الشعورى الذي تفيض به الجوانح وتدخره الأرواح .

وربوبة الله للشرقين والغربين : بعض آلائه في هذا الكون . ومن ثم يحى التعجب للمهود في السورة ، بعد هذه اللفظة القصيرة : « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » وللشرقان والغربان فوق أنهما من آيات الله هما من آلاء الله على الجن والإنس ، بما يتحقق فيها من الخير لسكان هذه الأرض جميعا . بل من أسباب الحياة التي تنشأ مع الشروق ، وتحتاج كذلك إلى التروب . ولو اختلف أحدهما أو كلاهما لتمطلت أسباب الحياة .

ومن هذه السبعة البعيدة الآفاق يعود إلى الأرض ، وما فيها من ماء ، جلله الله بقدر . قدر في نوعه ، وقدر في تصرفه ، وقدر في الانتفاع به :

« مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ يخرج منها اللؤلؤ والمرجان . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ وله الجوارى المنشآت في البحر كالأعلام . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » ..

والبحران للشار إليها البحر المالح والبحر العذب ، ويشمل الأول البحار والمحيطات ، ويشمل الثاني الأنهار . ومرج البحرين أرسلها وتركها يلتقيان ، ولكنها لا يبغيان ، ولا يتجاوز كل منها حده المقدر ، ووظيفته المقسومة ، وبينها برزخ من طبيعتها من صنع الله .

وتقسم الماء على هذا النحو في الكرة الأرضية لمجموع مصادفة ولا جزافا . فهو مقدر تقديرا عجيبا . للماء للتعين يمر نحو ثلاثة أرباع سطح الكرة الأرضية ويتصل بعضه ببعض ؛ ويشغل اليابس الربع . وهذا القدر الواسع من الماء للمالح هو اللازم بدقة لتطهير جو الأرض وحفظه دائما صالحا للحياة .

« وعلى الرغم من الانبعثات الغازية من الأرض طول الدهور — ومعظمها سام — فإن الهواء باق دون تلوث في الواقع — ودون تغير في نسبته للتوازنة اللازمة لوجود الإنسان . وعجلة الموازنة العظيمة هي تلك الكتلة السميكة من الماء — أى المحيط — » (١)

ومن هذه الكتلة الضخمة الواسعة تنبت الأشجرة تحت حرارة الشمس ؛ وهي التي تمود فتسقط أمطارا يتكون منها الماء العذب في جميع أشكاله . وأعظمها الأنهار . والتوافق بين

(١) عن كتاب الإنسان لا يفت وحده تأليف (أ . كرسى موريسون) رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك ترجمة محمد صالح الفلكي بعنوان : العلم يدعو إلى الإيمان .

سعة المحيط وحرارة الشمس وبرودة طبقات الجو العليا ، والعوامل الفلكية الأخرى هو الذى ينشأ عنه المطر الذى تتكون منه كتلة الماء العذب .

وعلى هذا الماء العذب تقوم الحياة . من نبات وحيوان وإنسان . .

وتصب جميع الأنهار - تقريبا - فى البحار . وهى التى تنقل إليها أملاح الأرض ، فلا تغير طبيعة البحار ولا تبغى عليها . ومستوى سطوح الأنهار أعلى فى العادة من مستوى سطح البحر ، ومن ثم لا يبقى البحر على الأنهار التى تصب فيه ، ولا يضر مجاريها بمائه للبحر ، فيحولها عن وظيفتها وينبى على طبيعتها ! وبينها دائما هذا البرزخ من صنع الله . فلا يغيان . فلا عجب يذكر البحرين ، وما بينهما من برزخ ، فى بحال الآلاء : « فأبى آلاء ربكما تكذبان ؟ » .

ثم يذكر من آلاء الله فى البحرين بعض ما هو قريب منهم فى حياتهم .

« يخرج منها اللؤلؤ والمرجان .. »

واللؤلؤ - فى أصله - حيوان . و « لعل اللؤلؤ أعجب ما فى البحار ، فهو يهبط إلى الأعماق ، وهو داخل صدفة من اللواد الجيرية لقيه من الأخطار ، ويختلف هذا الحيوان عن الكائنات الحية فى تركيبه وطريقة معيشته ، فله شبكة دقيقة كشبكة الصياد ، عجيبة النسج ، تكون كصفاء تسمح بدخول الماء والهواء والغذاء إلى جوفه ، وتحول بين الرمال والحصى وغيرها . وتحت الشبكة أفواه الحيوان ، ولكل فم أربع شفاه . فإذا دخلت ذرة رمل ، أوقطعة حصى ، أو حيوان ضار عنوة إلى الصدفة ، سارع الحيوان إلى إفراز مادة لزجة يغطيها بها : ثم تتجمد مكونة لؤلؤة ! وعلى حسب حجم القدرة التى وصلت يختلف حجم اللؤلؤة ! » (١) ..

« والمرجان من عجائب مخلوقات الله ، يعيش فى البحار على أعماق تتراوح بين خمسة أمتار وثلاث مئة متر ، ويثبت نفسه بطرفه الأسفل بصخر أو عشب . وقطعة منه التى فى أعلى جسمه ، محاطة ببدن من الزوائد يستعملها فى غذائه . فإذا لست فريسة هذه الزوائد ، وكثيرا ما تكون من الأحياء الدقيقة كبراغيث الماء ، أصيبت بالشلل فى الحال ، والتصقت بها ، فتتكش الزوائد وتمتنح نحو الفم ، حيث تدخل القريسة إلى الداخل بقناة ضيقة تشبه مرمى الإنسان .

« ويستكثر هذا الحيوان بخروج خلايا تناسلية منه ، يتم بها إخصاب البويضات ، حيث يتكون الجنين الذى يلجأ إلى صخرة أو عشب يلتصق به ، ويكون حياة منفردة ، شأنه فى ذلك شأن الحيوان الأسلى .

« ومن دلائل قدرة الخالق ، أن حيوان المرجان يتكاثر بطريقة أخرى هي الزرر . وتبقى الأضرار الناتجة متحدة مع الأفراد التي ترزرت منها ، وهكذا تتكون شجرة المرجان التي تكون ذات ساق صلبة . تأخذ في الدقة نحو القروع التي تبلغ غاية الدقة في نهايتها . ويبلغ طول الشجرة المرجانية ثلاثين سنتيمترا . والجزر المرجانية الحية ذات ألوان مختلفة ، نراها في البحار صفراء برتقالية ، أو حمراء قرشلية ، أو زرقاء زمردية ، أو غبراء باهتة .

« والمرجان الأحمر هو المحور الصلب للتبني بعد فناء الأجزاء الحية من الحيوان ، وتكون الهياكل الحجرية مستمرة هائلة .

« ومن هذه المستمرات سلسلة الصخور المرجانية المعروفة باسم الحاجز المرجاني الكبير ، الموجود بالشمال الشرقي لأستراليا . ويبلغ طول هذه السلسلة ، ألفا و ٣٥٠ ميل وعرضها ٥٠ ميلا . وهي مكونة من هذه الكائنات الحية الدقيقة الحجم » (١) .

ومن اللاؤلؤ والمرجان تتخذ حتى غالية الثمن عالية القيمة ، ويمتن الله على عباده بها ، فينب على ذكرهما في السورة ذلك التعقيب المشهود : « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ »

ثم ينتقل إلى الفلك التي تجري في البحار ، كأنها لضخامتها الجبال :

« وله الجوارى للنشآت في البحر كالأعلام » ..

ويجعل هذه الجوارى للنشآت « له » سبحانه وتعالى . فهي تجري بقدرته . ولا يحفظها في خضم البحر وتبج الموج إلا حفظه ولا يقرها على سطحه التناوج إلا كلالته . فهي له سبحانه . وقد كانت - وما زال - من أضخم النعم التي من الله بها . على العباد ، فيسرت لهم من أسباب الحياة والانتقال والرفاهية والكسب ما هو جدير بأن يذكر ولا يشكر . فهو من الضخامة والوضوح بحيث يصعب التكذيب به والإنكار .. « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » .



والآن ينتهي هذا الاستعراض في صفحة الكون للنظور ، وتطوى صفحة الخلق الثاني ، وتتوارى أشباح الخلائق جميعا ، ويفرغ المجال من كل حي ، ويتجلى وجه الكريم الباقي ، متفردا بالبقاء ، متفردا بالجلال ؟ وتستقر في الحس حقيقة البقاء ، وهو يشهد ظلال الفناء :

« كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » ..

وفى ظل هذا النص القرآنى تخفت الأنفاس ، وتخنق الأصوات ، وتسكن الجوارح ... وظل الفناء يشمل كل حى ، ويطوى كل حركة ، ويفمر آفاق السماوات والأرض .. وجلال الوجه الكريم الباقي يظلل النفوس والجوارح ، والزمان والمكان ، ويفمر الوجود كله بالجلال والوقار ..

ولا يملك التعبير البشرى أن يصور الموقف ؟ ولا يملك أن يزيد شيئاً على النص القرآنى ، الذى يسكب فى الجوانح السكون الحاشع ، والجلال الغامر ، والصمت الرهيب ، والذى يرسم مشهد الفناء الخاوى ، وسكون اللوث الخيم بلا حركة ، ولا نأمة فى هذا الكون الذى كان حافلاً بالحركة والحياة . ويرسم فى الوقت ذاته حقيقة البقاء الدائم ، ويطبعمها فى الحس البشرى الذى لا يصر فى تجاربه بمسورة للبقاء الدائم ؟ ولكنه يدرکہا بمسقى فى ذلك النص القرآنى العجيب ! ويعقب على هذه الفسمة العميقة الأثر بنفس التقيب . فيمد استقرار هذه الحقيقة . حقيقة الفناء لسلك من عليها ، وبقاء الوجه الجليل الكريم وحده . يمد استقرار هذه الحقيقة نعمة يواجه بها الجن والإنس فى مرض الآلاء : « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » ..

وإنها النعمة . بل هى أساس النعم كلها جميعاً . فمن حقيقة الوجود الباقي ينبثق كل هذا الخلق ؟ وناموسه ونظامه وخصائصه . كما تستقر سننه وقيمه ومآله وجزاؤه . والحى الباقي هو الذى يخلق ويبدع ، وهو الذى يحفظ ويكلا ، وهو الذى يحاسب ويعجزى . وهو الذى يشرف من أفق البقاء على ساحة الفناء .. فمن حقيقة البقاء إذن تنبثق جميع الآلاء . وما يبرز هذا العالم وما يستقيم أمره إلا ووراء هذه الحقيقة . حقيقة البقاء وراء الفناء .



ومن حقيقة البقاء الدائم وراء الخلق الفانى ، تنبثق حقيقة أخرى .. فكل أبناء الفناء إنما يتجهون فى كل ما يقوم بوجودهم إلى الواحد الأحد القرد الصمد الحى القيوم :

« يسأله من فى السماوات والأرض ، كل يوم هو فى شأن . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » .

يسأله من فى السماوات والأرض ، فهو مناط السؤال ؟ وغيره لآسأل لأنه فأن لا يتعلق به سؤال .. يسألوته وهو وحده الذى يستجيب ، وقاصده وحده هو الذى لا ينجب . وما يتجه أحد إلى سواه إلا حين يضل عن مناط السؤال ومعقد الرجاء ومظنة الجواب . وماذا يملك الفانى للفانى وماذا يملك المحتاج للمحتاج ؟

وهو - سبحانه - كل يوم هو في شأن . وهذا الوجود الذى لا تعرف له حدود، كله منوط بقدره ، متعلق بمشيئته ، وهو قائم بتديره . هذا التدبير الذى يتناول الوجود كله جملة ؛ ويتناول كل فرد فيه على حدة ؛ ويتناول كل عضو وكل خلية وكل ذرة . ويمطى كل شيء خلقه ، كما يعطيه وظيفته ، ثم يلحظه وهو يؤدي وظيفته .

هذا التدبير الذى يتبع ما يذت وما يسقط من ورقة ، وما يمكن من حبة في ظلمات الأرض ، وكل رطب وكل بابس . يتبع الأسماك في بحارها ، والديدان في مساربها ، والحشرات في عجايبها . والوحوش في أوكارها ، والطيور في أعشاشها . وكل بيضة وكل فرخ . وكل جناح . وكل ريشة . وكل خلية في جسم حى .

وصاحب التدبير لا يشغله شأن عن شأن ، ولا يند عن علمه ظاهر ولا خاف . . . ومن هذا الشأن شأن المبادى فى الأرض من أنس وجن . ومن ثم فهو يواجهها بهذه النعمة مواجهة التسجيل والإشهاد : « فبأى آلاء ربكنا تكذبان ؟ » ..

* * *

وبتقرير حقيقة البقاء وراء الفناء ، وما ينبثق منها من حقيقة الاتجاه الكلى إلى الواحد الباقي، وتعلق مشيئته - سبحانه - بشئون الخلائق وتغيرها وتديرها ، فضلا منه ومنه على العباد . . بتقرير هذه الحقيقة الكلية وما ينبثق عنها من حقائق ينتهى الاستعراض الكونى ، ومواجهة الجن والإنس به ؟ ويبدأ مقطع جديد . فيه تهديد وفيه وعيد . تهديد مرعب مفرع ، ووعد مززل مضجع . تمهيدا لمول القيامة الذى يطالع الثقلين فى سياق السورة بمد ذلك :

« سنفزع لكم أيها الثقلان . فبأى آلاء ربكنا تكذبان ؟ يا مفسر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا . لا تنفذون إلا بسلطان . فبأى آلاء ربكنا تكذبان ؟ يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران . فبأى آلاء ربكنا تكذبان ؟ » .. « سنفزع لكم أيها الثقلان » ..

يا اللهم للرب المززل ، الذى لا يثبت له أنس ولا جان . ولا تحف له الجبال الرواسى ولا النجوم والأفلاك !

• الله . جل جلاله . الله القوى القادر ، القهار الجبار ، الكبير التعال . الله - سبحانه - يفرغ لحساب هذين الخلقين الضعيفين الصغيرين : الجن والإنس ، فى وعيد وانتقام !

إنه أمر . إنه هول . إنه فوق كل تصور واحتال !
والله - سبحانه - ليس مشغولاً بفرغ . وإنما هو تقرب الأمر للتصور البشرى . وإيقاع
الوعيد في صورة مذهلة مزلزلة ، تسحق الكيان بمجرد تصورها سحقاً فهذا الوجود كله
نشأ بكلمة . كلمة واحدة . كن فيكون . وتدميره أو سحقه لا يحتاج إلا واحدة كلح بالبصر .
فكيف يكون حال الثقلين ، والله يفرغ لها وحدها ، ليتولاها بالانتقام ! ؟
وفي ظل هذا الهول الرعب يسأل الثقلين للكينين : « فأي آلاء ربكما تكذبان ؟ »
ثم يمضي في الإيقاع للرعب الزلزل ، يتحداها أن ينفذا من أقطار السماوات والأرض :
« ياممشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا .. »
وكيف ؟ وأين ؟
« لاتنفذون إلا بسلطان » .
ولا يملك السلطان إلا صاحب السلطان ..
ومرة أخرى يواجهها بالسؤال : « فأي آلاء ربكما تكذبان ؟ »
وهل بقي في كيانها شيء يكذب أو يهم بمجرد النطق والبيان ! ؟
ولكن الحملة الساحقة تستمر إلى نهايتها ، والتهديد الرعب يلاحقها ، والصبر للردي
يشمل لها :

« يرسل عليكاً شواظ من نار ونحاس فلا تنصران » ..

« فأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » !

إنها صورة من الهول فوق مألوف البشر - وفوق مألوف كل خلق - وفوق تصور البشر
وتصور كل خلق . وهي صورة فريدة ، وردت لها نظائر قليلة في القرآن ، تشبهاً ولا تماثلها .
كما قال تعالى مرة : « فذرني والسكدين أولى النعمة » .. وكما قال : « ذرني ومن خلقت
وحيداً .. وما يزال قوله تعالى : « سنفرغ لكم أيتها القتلان » .. أعنف وأقوى وأرعب وأدهى ..

ومن هنا إلى نهاية السورة تبدأ مشاهد اليوم الآخر . مشهد الاقتراب الكوني يوم القيامة .
وما يقفه من مشاهد الحساب . ومشاهد المذاب والتواب .
ويدأ استعراض هذه المشاهد بمشهد كوني يتناسب مع مطالع السورة ومجالها الكوني :

« فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » .

وردة حمراء ، سائلة كالدهان .. ومجموع الآيات التي وردت في صفة الكون يوم القيامة تشير كلها إلى وقوع دمار كامل في هذه الأفلاك والكواكب ، بعد اغتالتها من النسق الذي يحكمها الآن ، وينسق بين مداراتها وحركاتها . منها هذه الآية . ومنها : « إذا رجت الأرض رجا ، وبست الجبال بسا ، فكانت هباء منبثا » .. ومنها : « فإذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر » .. ومنها : « إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سيرت . وإذا العشار عطلت . وإذا الوحوش حشرت . وإذا البحار سجرت » .. ومنها : « إذا السماء انشطرت ، وإذا الكواكب انتثرت . وإذا البحار فجرت » .. ومنها : « إذا السماء انشقت ، وأذنت لربها وحقت . وإذا الأرض مدت ، وألقت ما فيها وتخلت ، وأذنت لربها وحقت » .. وهذه وغيرها تشير إلى ذلك الحوادث الماثلة الذي سيقع في الكون كله . ولا يعلم حقيقته إلا الله ..

« فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » .. « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » ولا تكذيب عندئذ ولا نكران ..

« فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان » .. وذلك في موقف من مواقف ذلك اليوم الشهود . الذي ستكون فيه مواقف شتى . منها ما يسأل فيه العباد ، ومنها ما لا يسألون فيه عن شيء . ومنها ما تجادل كل نفس عن نفسها ، وما تلقى به التبعة على شركائها ، ومنها ما لا يسمح فيه بكلمة ولا جدال ولا خصام ! فهو يوم طويل مديد . وكل موقف من مواقفه هائل مشهود .

وهنا موقف : لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان . ذلك حين تعرف صفة كل فرد وعمله . وتبدو في الوجوه معالم الشقوة سواداً ، ومعالم النجوة يابضاً ، ويظهر هذا وذاك في سبأ الوجوه . ففي هذا الموقف هل من تكذيب ونكران : « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » !
« يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام » .

وهو مشهد عنيف ومع العنف الهوان . حيث تجمع الأقدام إلى الجباه ، ثم يقذف المجرمون على هذه الهيئة إلى النار .. فهل حينئذ من تكذيب أو نكران ؟
وبينا المشهد مبروض ، والأخذ بالنواصي والأقدام والقذف في النار مستمر ، يلتفت السباقي إلى شهود هذا الاستعراض ، وكأنهم حاضرون عند تلاوة السورة فيقول لهم :

« هذه جهنم التي يكذب بها الجحيمون » .. هذه هي حاضرة معروضة - كما ترون -
« يطوفون بينها وبين حميم آن » .. متناه في الحرارة كأنه الطعام الناضج على النار! وهم يتراوحون
بين جهنم وبين هذا السائل الآتي . انظروا إليهم يطوفون الآن! « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » !
هذه صفة المذاب الأليم . والآن إلى صفة النعم والتكريم :

« ولئن خاف مقام ربه جنان » ..

وللمرة الأولى - فيما مر بنا من سور القرآن - تذكر الجنة . والأظهر أنها ضمن الجنة
الكبيرة للمروفة ! ولكن اختصاصها هنا بالذكر قد يكون لمربيتهما . وسيأتي في سورة الواقعة
أن أصحاب الجنة فريقان كبيران : هما السابقون للقرىون . وأصحاب اليمين . ولكل منهما نعم .
فهنا كذلك نلمح أن هاتين الجنةين هما لفريق ذي مرتبة عالية . وقد يكون فريق السابقين
للمقرين المذكورين في سورة الواقعة . ثم نرى جنتين أخريين من دون هاتين . ونلمح أنهما
لفريق يلي ذلك الفريق . وقد يكون هو فريق أصحاب اليمين .

على أية حال فلنشهد الجنتين الأوليين ، ولنمش فيهما لحظات !

إنهما « ذواتا أفنان » .. والأفنان الأغصان الصغيرة الندية . فيها رياتان نضرتان .

« فيها عينان تجريان » .. هماؤها غزير ، وسهل يسير .

« فيها من كل فاكهة زوجان » .. فقا كهتما منوعة كثيرة وفيرة .

وأهل الجنة ماحلهم ؟ إننا ننظرهم : « متكئين على فرش بطائنها من إستبرق » والإستبرق
المحمل الحرير السميك . فكيف بظواهر هذه الفرش إذا كانت تلك بطائنها ؟

« وجنى الجنتين دان » .. قريب التناول ، لا يتب في قطاف .

ولكن هذا لا يستقصى ما فيها من رفاة ومتاع . فهناك بقية بهيجة لهذا المتاع :

« فهن قاصرات الطرف لم يطمثن إنس قبلهم ولا جان » .. فهن عفيفات الشعور والنظر .
لا تمتد أبصارهن إلى غير أصحابهن ، مصونات لم يمسهن إنس ولا جان .

وهن - بهذا - ناضرات لامعات : « كأنهن الياقوت والمرجان » .

ذلك كله جزاء من خاف مقام ربه ، وعبده كأنه يراه ، شاعرا أن ربه يراه ، فبلغ بذلك
مرتبة الإحسان كما وصفها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا جزاء الإحسان من
عطاء الرحمن :

« هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ »

وفي معرض الإنعام والإحسان ، كان التقيب يحىء في موضعه بعد كل ققرة : « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ »

والآن إلى الفريق الآخر صاحب الجنتين الآخرين .

« ومن دونها جنتان » . . وأوصافهما أدنى من الجنتين السابقتين . فيها :

« مدهامتان » . . أى محضرتان خضرة تميل إلى السواد لما فيها من أعشاب .

« فيها عينان نضاختان » . . تضان بالماء . وهذا دون الجريان !

« فيها فاكهة ونخل ورمان » . . وهناك : « من كل فاكهة زوجان »

« فهن خيرات حسان » . . يسكون بام خيرات أو بتشديدها على الوصف . وتأويله :

الخيرات بالسكون أو الخيرات بالتشديد في الآية التالية :

« حور مقصورات في الخيام » . . وتلقى الخيام ظل البداة . فهو نعيم بدوى أو يمثل

مطالب أهل البداة . . والخور مقصورات . أما حور الجنتين السابقتين فهن قاصرات الطرف .

« لم يطعمهن إنس قبلهم ولا جان » . . فهن يشتركن مع زميلاتهن هناك في الصون والفاف .

أما أهل هاتين الجنتين فهن تنظرهما :

« متسكنين على رفرف خضر وعبقري حسان » . . والرفرف الأبطرة وكأنها من صنع

« عبقري » لتقريب وصفها إلى العرب ، وقد كانوا ينسبون كل عجيب إلى وادى الجن : عبقري !

ولكن التكاآت هناك بطاآتها من إستبرق . وهناك جنى الجنتين دان فهما مرتبتان مختلفتان !

وهنا كذلك كان التقيب بعد كل صفة للجنتين ونسيمها : « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » .

وفي ختام السورة التى استعرضت آلاء الله فى السكون ، وآلاءه فى الخلق ، وآلاءه فى

الآخرة . يحىء الإيقاع الأخير ، تسييحاً باسم الجليل الكريم ، الذى يفى كل حى ، وبقى

وجهه الكريم .

« تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام » . .

أنسب ختام لسورة الرحمان . . .

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ مَكِّيَّةٌ

وَأَيَّاسُهَا ٩٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ * إِذَا رُجَّتِ
الْأَرْضُ رَجًا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا * وَكُنُفٌ أَرْوَاجًا ثَلَاثَةٌ *
فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الشَّمَائَةِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَائَةِ *
وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى *
وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ * عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ * مُتَكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ
عَلَيْهِمْ وَلَدَانُ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا
وَلَا يُزْفُونَ * وَقَفَايَهُمْ بِمَا يَنْتَخِرُونَ * وَلَخَرَّ طَائِرٌ بِشَّهْوٍ * وَخُورٌ عَيْنٍ * كَأَمْثَالِ
الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا * جَزَاءُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا *
إِلَّا قِيلًا : سَلَامًا سَلَامًا .

« وَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ * وَظِلٍّ
مَّمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ * وَقَفَايَهُ كَثِيرَةً * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْدُوعَةٍ * وَفُورٍ
مَرْفُوعَةٍ * إِنَّا أَنْشَأْنَاهُمْ إِنشَاءً * فَجَعَلْنَاهُمْ أَبْنَاءَ * عُرْبًا أَزْوَاجًا * لِأَصْحَابِ
الْمَيْمَنَةِ * ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى * وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ .

« وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سُمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِنْ بَحْمُومٍ *

لَا بَارِدَ وَلَا كَرِيمٌ * إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَكِينَ * وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ
الْعَظِيمِ * وَكَانُوا يَقُولُونَ : إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ؟
أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ؟ * قُلْ : إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ
مَعْلُومٍ * ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ الْكَذَّبُونَ * لَا كَيْلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ رَقُومٍ *
فَمَا لِيُونِ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْعِيَمِ * هَذَا
نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ .

« تَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ؟ * أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ
أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ؟ * تَحْنُ قَدْزَنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْجُورِينَ * عَلَى أَنْ
تُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا
تَذَكَّرُونَ ؟ »

« أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْمِلُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ؟ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ
حُطَامًا ، فَظَلَمْتُمْ فَتَكْهُونُ * إِنَّا لَمَعْرِضُونَ * بَلْ تَحْنُ تَحْمِلُونَهُ .
« أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ؟ *
لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا ، فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ .

« أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ؟ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ؟ *
نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَمَتَاعًا لِلْفُقَرَاءِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ .

« فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ
كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ .
« أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ ؟ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ ؟ *
فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُقُومَ * وَأَنْتُمْ حِلِيلٌ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ .

مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْعِرُونَ * فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ !

« فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ * الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةٌ جَهِيمٍ .
« إِنْ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » ..

الواقعة .. اسم للسورة ويان لموضوعها معاً : فالقضية الأولى التي تناولها هذه السورة المكية هي قضية النشأة الآخرة ، ردا على قولة الشاكيين فيها ، الشركيين بالله ، للمكذبين بالقرآن : « إإذا متنا وكنا ترابا وعظاما إإنا لمبعوثون ؟ أو آباؤنا الأولون ؟ » ..

ومن ثم تبدأ السورة بوصف القيامة . وصفها بصفتها التي تنهى كل قول ، وتقطع كل شك ، وتشرع بالجزم في هذا الأمر .. الواقعة .. « إإذا وقست الواقعة ليس لوقعها كاذبة » .. وتذكر من أحداث هذا اليوم ما يعززه عن كل يوم ، حيث تبدل أقدار الناس ، وأوضاع الأرض ، في ظل الهول الذي يبدل الأرض غير الأرض ، كما يبدل القيم غير القيم سواء : « خافضة ورافة .. إإذا رجعت الأرض رجا ، وبست الجبال بسا ، فكانت هباء منبثا . وكنتم أزواجا ثلاثة ... إلخ » .

ثم تفصل السورة . سائر هذه الأزواج الثلاثة : السابقين وأصحاب اللينة وأصحاب المشأمة . ونصف ما يلقون من نعيم وعذاب وصفها مفصلا أوفى تفصيل ، يوقع في الحس أن هذا أمر كائن واقع ، لا مجال للشك فيه ، وهذه أدق تفصيلاته معروضة للبيان . حتى يرى للمكذبون رأي المين مصيرهم ومصير المؤمنين . وحتى يقال عنهم هنالك بعد وصف العذاب الأليم الذي هم فيه : « إإنهم كانوا قبل ذلك مترفين . وكانوا يصرون على الحنث العظيم . وكانوا يقولون : إإذا متنا وكنا ترابا وعظاما إإنا لمبعوثون ؟ أو آباؤنا الأولون ؟ » .. وكان العذاب هو الحاضر والدنيا هي الماضى الذي يذكر للتذليل والتوبيخ . تزدلل حالهم في الدنيا وتبيح ما كانوا عليه من تكذيب !

وهذا ينتهي الشوط الأول من السورة . وبدأ شوط جديد يعالج قضية العقيدة كلها ، متوخياً تأكيد قضية البعث التي هي موضوع السورة الأول ؛ بلسات مؤثرة ، يأخذ مادتها وموضوعها عما يقع تحت حس البشر ، في حدود للشاهدات التي لا تغلو منها تجربة إنسان ، أيا كانت بيئته ، ودرجة معرفته وتجربته .

يعرض نشأتهم الأولى من متى متى . ويعرض موتهم ونشأة آخرين مثلهم من بعدهم . في مجال التدليل على النشأة الأخرى ، التي لا تخرج في طبيعتها وبسرهما عن النشأة الأولى ، التي يعرفونها جميعاً . ويعرض صورة الحرث والزرع ، وهو إنشاء للحياة في صورة من صورها . إنشاؤها بيد الله وقدرته . ولو شاء الله لم تنشأ ، ولو شاء لم توت ثمارها .

ويعرض صورة الماء المذب الذي تنشأ به الحياة كلها . وهو مملق بقدرة الله ينزله من السحاب . ولو شاء جعله ملحا أجاجا ، لا يثبت حياة ، ولا يصلح لحياة .

وصورة النار التي يوقدون ، وأصلها الذي تنشأ منه . . الشجر . . وعند ذكر النار يمس وجدانهم منذرا . ويدكرهم بنار الآخرة التي يشكون فيها .

وكلها صور من مألوفات حياتهم الواقعة ، يمس بها قلوبهم ، ولا يكلفهم فيها إلا البقطة ليد الله وهي تنشأ وتكمل فيها .

كذلك يتناول هذا الشوط قضية القرآن الذي يحدتهم عن «الواقعة» فيشكون في وعيده . فيلوح بالقسم بمواقع النجوم ، ويظم من أمر هذا القسم لتوكيد أن هذا الكتاب هو قرآن كريم في كتاب مكنون لا يمس إلا للظهور ، وأنه تنزيل من رب العالمين .

ثم يواجههم في النهاية بشهد الاحتضار . في لمة عميقة مؤثرة . حين تبلغ الروح الحلقوم ، ويقف صاحبها على حافة العالم الآخر ؛ ويقف الجميع مكتوفي الأيدي عاجزين ، لا يملكون له شيئا ، ولا يدرون ما يجري حوله ، ولا ما يجري في كيانه . ويخلص أمره كله لله ، قبل أن يفارق هذه الحياة . ويرى هو طريقه للقبل ، حين لا يملك أن يقول شيئا عما يرى ولأن بشر !

ثم تختم السورة بتوكيد الخبر الصادق ، وتسبيح الله الخالق : «إن هذا هو حق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم» . . . فليتم للطلع والختام أكل التمام ..



« إذا وقت الواقعة . ليس لوقتها كاذبة . خافضة رافعة إذا رجعت الأرض رجاء . وبست الجبال بسا . فكانت هباء منبثا . . . » .

هذا المطلع واضح فيه التحويل في عرض هذا الحدث الهائل . وهو يتبع أسلوبا خاصا يلحظ فيه هذا المنى ، ويتناسق مع مدلولات العبارة . فترتين يبدأ بإذا الشرطية يذكر شرطها ولا يذكر جوابها . « إذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة . خافضة رافعة » . . ولا يقول : ماذا يكون إذا وقعت الواقعة وقعة صادقة ليس لها كاذبة ، وهى خافضة رافعة . ولكن يبدأ حديثا جديدا : « إذا رجّت الأرض رجاء . وبست الجبال بسا . فكانت هباء منبثا » . . ومرة أخرى لا يقول : ماذا يكون إذا كان هذا الهول العظيم . . فكأنما هذا الهول كله مقدمة ، لا يذكر نتائجها ، لأن نتائجها أهول من أن يحيط بها اللفظ ، أو تعبر عنها العبارة !

هذا الأسلوب الخاص يتناسب مع الصورة الروعة للفرقة التي رسمها هذا المطلع بذاته . فالواقعة بمناها وبحرس اللفظ ذاته - بما فيه من مدّ ثم سكون - تلتقي في الحس كأنما هي تحمل ضخم ينقص من علّ ثم يستقر ، لتبر ما زحزحة بعد ذلك ولا زوال ! « ليس لوقعتها كاذبة » . . ثم إن سقوط هذا الثقل ووقوعه ، كأنما يتوقع له الحس أرجحة ورجحة يحدثها حين يقع . وبلى السياق هذا التوقع فإذا هي : « خافضة رافعة » . . وإنها لتخفض أقدارا كانت رفيعة في الأرض ، وترفع أقدارا كانت خفيضة في دار الفناء ، حيث تحتل الاعتبار والقيم ؟ ثم تستقيم في ميزان الله .

ثم يبدى الهول في كيان هذه الأرض . الأرض الثابتة المستقرة فيما يحس الناس . فإذا هي ترج رجاء - وهى حقيقة تذكر في التعبير الذى يتسق في الحس مع وقع الواقعة - ثم إذا الجبال الصلبة الراسية تتحول تحت وقع الواقعة - إلى فتات تطاير كالهباء . . « وبست الجبال بسا . فكانت هباء منبثا » . . فسا أهول هذا الهول الذى يرج الأرض رجاء ، ويبست الجبال بسا ، ويتركها هباء منبثا . وما أجمل الدين يترضون له وهم مكذبون بالآخرة ، مشركون بالله ، وهذا أثره في الأرض والجبال !

وهكذا تبدأ السورة بما يزلزل الكيان البشرى ، ويهول الحس الإنسانى ، تجاه القضية التى ينكرها المنكرون ، ويكذب بها المشركون . ويتهى هذا الشهد الأول للواقعة لتشهد آثارها في الخفض والرفع ، وفي أقدار البشر ومصائرهم الأخيرة :

« وكنتم أزواجا ثلاثة . فأصحاب الجنة . ما أصحاب الجنة ؟ وأصحاب المشأمة . ما أصحاب المشأمة ؟ والساقون السابقون . . . »

ونجد الناس هنا أمتافا ثلاثة - لاصنفين اثنين كما هو السائد في مشاهد الاستعراض القرآنية - ويبدأ بالحديث عن أصحاب الجنة - أو أصحاب الجن - ولكنه لا يفضل عنهم الحديث إنما يفهمهم باستفهام عنهم للتحويل والتضخيم : « فأصحاب الجنة . ما أصحاب الجنة ؟ » . وكذلك يذكر أصحاب للشامة بنفس الأسلوب . ثم يذكر الفريق الثالث . فريق السابقين . يذكركم فيصنفهم بوصفهم : « والسابقون السابقون » . . كأنما يقول إنهم هم . وكفى . فهو مقام لايزيده الوصف شيئا !

ومن ثم يأخذ في بيان قدرهم عند ربهم ، وتفصيل ما أعدده من النعم لهم ، وتمديد أنواعه التي يمكن أن يذكرها حس المحاطين ، وتناولها معارفهم وتجاربهم :

« أولئك القربون . في جنات النعيم . ثلة من الأولين . وقليل من الآخرين . على سرر موضونة . متكئين عليها متقابلين . يطوف عليهم ولدان مخلدون . بأكواب وأباريق وكأس من معين . لا يصدعون عنها ولا ينزفون . وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون . وحور عين . كأمثال اللؤلؤ المكنون . جزاء بما كانوا يعملون . لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيلا . إلا قولا : سلاما سلاما .. »

إنه يبدأ في بيان هذا النعيم ، بالنعيم الأكبر . النعيم الأسنى . نعيم القرب من ربهم : « أولئك القربون في جنات النعيم » . . وجات النعيم كلها لا تساوى ذلك التقرب ، ولا تعدل ذلك النصيب .

ومن ثم يقف عند هذه الدرجة ليقول من هم أصحابها .. إنهم : « ثلة من الأولين وقليل من الآخرين » . . فهم عدد محدود . وفريق متنى . كثرتهم في الأولين وقلتهم في الآخرين . واختلفت الروايات في من هم الأولون ومن هم الآخرون . فالقول الأول : أن الأولين هم السابقون إلى الإيمان ذوو الدرجة العالية فيه من الأمم السابقة قبل الإسلام . وأن الآخرين هم السابقون إلى الإسلام ذوو البلاء فيه . . والقول الثاني : أن الأولين والآخرين هم من أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - فالأولون من صدرها ، والآخرون من متأخريها . وهذا القول الثاني رجحه ابن كثير . وروى في ترجيحه للحسن وابن سيرين : قال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن ابن محمد ابن الصباح ، حدثنا عفان ، حدثنا عبد الله ابن أبي بكر اللزني ، سمعت الحسن أتى على هذه الآية : « والسابقون السابقون أولئك القربون » . فقال : « أما السابقون فقد مضوا ولكن

اللهم اجعلنا من أصحاب اليمين » . . ثم قال : حدثنا أبي ، حدثنا أبو الوليد ، حدثنا السري
ابن يحيى . قال : قرأ الحسن : « والسابقون السابقون . أولئك المقربون في جنات النعيم . ثمة
من الأولين » . . قال : ثمة ممن مضى من هذه الأمة » . . وحدثنا أبي ، حدثنا عبد العزيز
ابن الغيرة النخعي ، حدثنا أبو هلال ، عن محمد ابن سيرين ، أنه قال في هذه الآية : « ثمة من
الأولين ، وقليل من الآخرين » . . قال : كانوا يقولون ، أو يرجون ، أن يكونوا كلهم
من هذه الأمة .

وبعد بيان من هم يأخذ في تفصيل منافع الجنة التي أعدت لهم . وهى بطبيعة الحال النافع
التي في طوقهم أن يتصوروها ويدركوها ؛ ووراءها منافع أخرى يعرفونها هنالك يوم يتهاون
لإدراكها عما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر !

« على سرر موضونة » . . مشبكة بالمادن الثينة . « متكئين عليها متقابلين » . . في
راحة وخلو بال من الهموم والمشاكل ، وفي طمأنينة على ما هم فيه من نعيم ، لا خوف من قوته
ولا نفاذه وفي إقبال بعضهم على بعض يتسامرون . . « يطوف عليهم ولدان مخلدون » . . لأفضل
فيهم الزمن ، ولا تؤثر في شبابه وصباهم السن كأشباههم في الأرض . يطوفون عليهم « بأكواب
وأباريق وكأس من معين » . . من خمر صافية سائلة « لا يصدعون عنها ولا ينزفون » . .
فلا هم يفرقون عنها ولا هى تنفد من بين أيديهم . فكل شيء هنا الدوام والأمان . « وفأكهة
مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون » . . فهنا لا شيء ممنوع ، ولا شيء على غير ما يشتهى السعداء
الحالدون . « وحور عين كأمثال اللؤلؤ للكنون » . . واللؤلؤ للكنون هو اللؤلؤ للصون ،
الذى لم يتعرض للس والظفر ، فلم تنقبه يد ولم تحدشه عين ! وفي هذا كناية عن معان حسية
ونفسية لطيفة في هؤلاء الحور الواسعات الميون . وذلك كله : « جزاء بما كانوا يعملون » . .
فهو مكافأة على عمل كان في دار العمل . مكافأة يتحقق فيها الكمال الذى كان ينقص كل
لناعم في دار الفناء . ثم هم بعد ذلك كله يحيون في هدوء وسكون ، وفي ترفع وتنزيه
عن كل لغو في الحديث ، وكل جدل وكل مؤاخذه : « لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيها . إلا
قيلا : سلاما سلاما » . . حياتهم كلها سلام . يرف عليها السلام . ويشيع فيها السلام . تسلم عليهم
للملائكة في ذلك الجو الناعم الآمن ؛ ويسلم بعضهم على بعض . ويلتئم السلام من الرحمان .
فالجو كله سلام سلام . .

فإذا انتهى الحديث عن ذلك الفريق السابق المختار ، بدأ الحديث عن الفريق الذى يليه :
فريق أصحاب اليمين :

« وأصحاب اليمين . ما أصحاب اليمين ؟ فى صدر مخضود ، وطلح منضود . وظل ممدود .
وماء مسكوب . وفاكهة كثيرة لاقطوعة ولا ممنوعة . وفرش مرفوعة . إنا أنشأناهن إنشاء .
فجعلناهن أبكارا . عربا أنرابا . لأصحاب اليمين . ثلثة من الأولين . وثلثة من الآخرين » ..
وأصحاب اليمين هم أصحاب الجنة الذين أشار إليهم تلك الإشارة المجملّة فى أول السورة .
ثم آخر تفصيل نعيمهم ، إلى موعده هنا بعد السابقين للقريين . وهو بعيد السؤال عنهم بتلك
الصيغة التى تفيد التفضيم والتحويل : « ما أصحاب اليمين ؟ » .

ولأصحابنا هؤلاء نعيم ماضى محسوس ، يبدو فى أوصافه شيء من خشونة البداوة ، ويلبى
هوائف أهل البداوة حسبا يبلغ مداركهم ومجا ربهم من تصور ألوان النعم !

إنهم « فى صدر مخضود » . . والصدر شجر النبق الشائك . ولكنه هنا مخضود شوك
ومنزوع . « وطلح منضود » . . والطلح شجر من شجر الحجاز من نوع الضاء فيه شوك .
ولكنه هنا منضود معد للتناول بلا كد ولا مشقة . « وظل ممدود ، وماء مسكوب » .. وتلك
جميعا من مراتع البدوى ومناعمه ، كما يطمح إليها خياله وتهتف بها أشواقه ! « وفاكهة كثيرة .
لا مقطوعة ولا ممنوعة » . . تركها جملة شاملة بغير تفصيل بعد ما ذكر الأنواع المرفوعة لسكان
البادية بالتعيين . « وفرش مرفوعة » .. وهى هنا لاموضونة ولا ناعمة . وبحسبها أنها مرفوعة .
وللرفع فى الحس معنيان . ماضى ومعنوى يستدعى أحدهما الآخر ، ويلتقيان عند الارتفاع فى
المكان والطهارة من الدنس . فالمرفوع عن الأرض أبعد عن نجسها . وللرفع فى المعنى أبعد
عن دنسها . ولهذا ينتقل السياق من القرش المرفوعة إلى ذكر من فيها من الأزواج : « إنا
أنشأناهن إنشاء » إما ابتداء وهن الحور . وإما استئناف وهن الزوجات للبعوثات شواب :
« فجعلناهن أبكارا » لم يمسن « عربا » . . متحجيات إلى أزواجهن « أنرابا » متواقيات
السن والشباب . « لأصحاب اليمين » . . مخصصات لهم . ليتنق ذلك مع « القرش المرفوعة » ..
فأما أصحاب اليمين هؤلاء فهم « ثلثة من الأولين وثلثة من الآخرين » . . فهم أكرع عدد
من السابقين القريين . على الاعتبارين اللذين ذكرناهما فى معنى الأولين والآخرين .

وهنا يصل بنا السياق إلى أصحاب الشمال - وهم أصحاب للشامة الذين سبقت الإشارة
إليهم فى مطلع السورة :

« وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ؟ في صوم وحميم . وظل من محموم . لا بارد ولا كريم .
إنهم كانوا قبل ذلك مترفين . وكانوا يصرون على الحث العظيم . وكانوا يقولون : إذا متنا وكنا
ترابا وعظاما إنا لمبعوثون ؟ أو آباؤنا الأولون ؟ قل : إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى
ميقات يوم معلوم . ثم إنكم أيها الضالون للكذبون . لا تكون من شجر من زقوم . فثالثون
منها البطون . فثاربون عليه من الحميم . فثاربون شرب الحميم . هذا نزلهم يوم الدين » ..
فلئن كان أصحاب اليمين « في ظل محدود وماء مسكوب » .. فأصحاب الشمال « في صوم
وحميم . وظل من محموم ، لا بارد ولا كريم » .. فالهواء شواط ساخن ينفذ إلى اللسان
ويشوي الأجسام . وللاء متناه في الحرارة لا يُبرد ولا يُروى . وهناك ظل ، ولكنه « ظل
من محموم » .. ظل الدخان اللافح الحائق .. إنه ظل للسخرية والتهم . ظل « لا بارد ولا
كريم » .. فهو ظل ساخن لا روح فيه ولا برد ؟ وهو كذلك كز لا يمنح وراثة راحة ولا
إنعاشا .. هذا الشظف كله جزاء وفاق : « إنهم كانوا قبل ذلك مترفين » .. وما ألم الشظف
للمترفين ! « وكانوا يصرون على الحث العظيم » .. والحث الدب . وهو هنا الشرك بالله .
وفيه إلحاح إلى الحث بالمهد الذي أخذه الله على فطرة العباد أن يؤمنوا به ويوحده . « وكانوا
يقولون : إذا متنا وكنا ترابا وعظاما إنا لمبعوثون ؟ أو آباؤنا الأولون ؟ » كانوا ..
هكذا يبر القرآن ، كأنما الدنيا التي فيها المخاطبون قد طويت وانتهت فلذا هي ماض . والحاضر
هو هذا للشهد وهذا العذاب ! ذلك أن الدنيا كلها ومضة . وهذا الحاضر هو العقبى والمآب .
وهنا يلتفت السياق إلى الدنيا في أنسب الأوقات لهذه اللفتة ليرد على سؤالهم ذاك : « قل :
إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم » .. هو هذا اليوم الحاضر
للمروض للشهود !

ثم يعود إلى ما ينتظر للكذابين . فيتم سورة العذاب الذي يلقاه للترفون :

« ثم إنكم أيها الضالون للكذبون . لا تكون من شجر من زقوم » .. ولا يدرى
أحد ما شجرة الزقوم إلا ما وصفها الله به في سورة أخرى من أن طلعها كرؤوس الشياطين .
ورؤوس الشياطين لم يرها . أحد ولكنها تلقى في الحس ما تلقىه ! على أن لفظ « الزقوم »
نفسه يصور بحرسة مناسا خشنا شائكا مديا يشوك الأكف — به الحلق — وذلك في مقابل
السدر المخضود والطلع للنضود — ومع أن الزقوم كرؤوس الشياطين ! فإنهم لا تكون منها

« فهاثون منها البطون » . . فالجوع طاع والمخنة غالبة . . وإن الشوك الحشن ليدفع إلى الماء . لتسليك الحلق وري البطون أ وإنيهم لشاربون « فشاربون عليه من الحميم » . . الساخن الذي لا يبرد غلة ولا يروى ظمأ . « فشاربون شرب الحميم » . . وهي الإبل الصابة بداء الاستسقاء لا تسكاد ترنوى من الماء ١ « هذا نزلهم يوم الدين » . . والنزل للراحة والاستقرار . ولكن أصحاب الشمال هذا نزلهم الذي لا راحة فيه ولا قرار ١ هذا نزلهم في اليوم الذي كانوا يشكون فيه ، ويتساءلون عنه ، ولا يصدقون خبر القرآن به . كما كانوا يشركون بالله ولا يخافون وعيده بذلك اليوم للشهود . .

بهذه انتهى استعراض اللسائر والأقدار ، يوم تقع الواقعة : الخافضة الرافعة . وينتهي كذلك الشوط الأول من السورة .



فأما الشوط الثاني في السورة فيستهدف بناء العقيدة بكتبتها ، وإن كان التوكيد البارز فيه على قضية البعث والنشأة الأخرى . وفيه تجلّى طريقة القرآن في مخاطبة الفطرة البشرية ، وفي تناول الدلائل الإيمانية ، وفي التلطف إلى النفوس بساطة ويسر ، وهو يتناول أكبر الحقائق في صورها القرية الليسورة . .

إن هذا القرآن يحصل من مألوفات البشر وحوادثهم للكرورة ، قضيا كونية كبرى ؛ يكشف فيها عن النواميس الإلهية في الوجود ؛ وينشئ بها عقيدة منخمة شاملة وتصورا كاملا لهذا الوجود . كما يجعل منها منهجا للنظر والتفكير ؛ وحياة للأرواح والقلوب ، وبقطة في للشاعر والحواس . يقظة لظواهر هذا الوجود التي تطالع الناس صباح مساء وهم غافلون عنها ؛ ويقظة لأنفسهم وما يجري من المجائب والحوادث فيها ١

إنه لا بكل الناس إلى الحوادث القذة الحارقة والمعجزات الخاصة المدودة . كذلك لا يكلفهم أن يبحثوا عن الحوادث والمعجزات والآيات والدلائل بعيدا عن أنفسهم ، ولا عن مألوف حياتهم ، ولا عن الظواهر الكونية القرية منهم للزوفة لهم . . إنه لا يُعبد لهم في فلسفات مقعدة ، أو مشكلات عقلية عويصة ، أو تجارب علمية لا يملكها كل أحد . . لكي ينشئ . في نفوسهم عقيدة ، وتصورا للكون والحياة قائما على هذه العقيدة .

إن أنفسهم من صنع الله ؛ وظواهر الكون حولهم من إبداع قدرته . والمعجزة كائنة في كل

ماتبعه يده . وهذا القرآن قرآته . ومن ثم يأخذهم إلى هذه اللججرات الكاسنة فيهم والبشوة في الكون من حولهم . يأخذهم إلى هذه الخوارق المألوفة لهم ، التي يرونها ولا يحسون حقيقة الإعجاز فيها . لأنهم لطول ألفتهم لها غفلوا عن مواضع الإعجاز فيها . يأخذهم إليها ليفتح عيونهم عليها ؛ فتطلع على السر المائل السكونون فيها . سر القدرة للمبدعة ، وسر الوحدانية للمفردة ، وسر التاموس الأزل الذي يعمل في كيانهم هم أنفسهم كما يعمل في الكون من حولهم ؛ والذي يحمل دلائل الإيعان ، وبراهين العقيدة ، فيبثها في كيانهم ، أو يوقظها في فطرتهم بتعبير أدق . وعلى هذا اللنج يسير في هذا الشوط من السورة ؛ وهو يمرض عليهم آيات القدرة للمبدعة في خلقهم هم أنفسهم . وفي زرعهم الذي تزاوله أيديهم . وفي الماء الذي يشربون . وفي النار التي يوقدون . وهي أبسط مايقع تحت أبصارهم من مألوفات حياتهم - كذلك يصور لهم لحظة النهاية . نهاية الحياة على هذه الأرض وبدء الحياة في العالم الآخر . اللحظة التي يواجهها كل أحد ، والتي تنتهي عندها كل حيلة ، والتي تقف الأحياء وجهالوجه أمام القدرة المطلقة للتصرف وقفة فاصلة ، لا محاولة فيها ولا مجال . حيث تسقط جميع الأقنعة ، وتبطل جميع التملات .

إن طريقة القرآن في مخاطبة الفطرة البشرية تدل بذاتها على مصدره . . إنه المصدر الذي صدر منه الكون . فطريقة بنائه هي طريقة بناء الكون . فمن أبسط اللواد الكونية تنشأ أعقد الأشكال ، وأضخم الخلائق . الذرة يظن أنها مادة بناء الكون ، والخلية يظن أنها مادة بناء الحياة . . والذرة على صغرها معجزة في ذاتها . والخلية على صغرها آية في ذاتها . . وهنا في القرآن يتخذ من أبسط المشاهدات المألوفة للبشر مادة لبناء أضخم عقيدة دينية وأوسع تصور كوني . . للمشاهدات التي تدخل في تجارب كل إنسان : النسل . والزرع . والماء . والنار . والملوث . . أي إنسان على ظهر هذه الأرض لم تدخل هذه المشاهدات في تجاربه ؟ أي ساكن كهف لم يشهد نشأة حياة جنينية ، ونشأة نبتة . ومنسقط ماء . وموقع نار . ولحظة وفاة . .

من هذه المشاهدات التي رآها كل إنسان ينشأ القرآن العقيدة ، لأنه يخاطب كل إنسان في كل بيئة . . وهذه المشاهدات البسيطة الساذجة هي بذاتها أضخم الحقائق الكونية ، وأعظم الأسرار الربانية - بالإضافة إلى الإشارة إلى مواقع النجوم - فهي في بساطتها تخاطب فطرة كل إنسان . وهي في حقيقتها موضوع دراسة أعلم العلماء إلى آخر الزمان :

مواقع النجوم تبنى هندسة الكون .

نشأة الحياة الإنسانية .. وهى سر الأسرار .

نشأة الحياة النباتية .. وهى كالحياة الحيوانية معجزة للمعجزات .

والسأ .. أصل الحياة .

والنار .. للمعجزة التى صنعت الحضارة الإنسانية .

هذه الطريقة فى تناول الأشياء ، وبناء العقيدة والتفكير ، ليست طريقة البشر . فالبشر حين يجوضون فى هذه المجالات لا يلتفتون إلى هذه المواد الأولية التى هى بذاتها المواد الكونية . وإذا التفتوا إليها لم يتناولوها بهذا اليسر وبهذه البساطة . بل يحاولون وضع المسألة فى قالب فلسفى تجريدى معقد ، لاصح لإخطاب طبقة خاصة من الناس !

أما الله فطريقته هى هذه . . تناول للمواد الأولية التى هى بذاتها للمواد الكونية . وبناء العقيدة بها فى يسر وسهولة . تماما كما يصنع - سبحانه - فى تناول للمواد الأولية التى هى مواد كونية ويصنع منها الكون ..

هذا من ذلك . وعلامة الصمة واحدة ، واضحة هنا وهناك !

« نحن خلقناكم فلولا تصدقون ! أفأنتم ما تمنون ؟ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ نحن قدرنا بينكم الموت ، وما نحن بمسوقين . على أن نبدل أمثالكم وننتشمك فيها لاتعلمون . ولقد علمت النشأة الأولى فلولا تذكرون ! » ..

إن هذا الأمر أمر النشأة الأولى ونهايتها . أمر الخلق وأمر الموت . إنه أمر منظور ومألوف وواقع فى حياة الناس . فكيف لا يصدقون أن الله خلقهم ؟ إن ضغط هذه الحقيقة على الفطرة أضخم وأثقل من أن يقف له الكيان البشرى أو يجادل فيه : « نحن خلقناكم فلولا تصدقون ! » ..

« أفأنتم ما تمنون ؟ أأنتم تخلقونه ؟ أم نحن الخالقون ؟ » ..

إن دور البشر فى أمر هذا الخلق لا يزيد على أن يودع الرجل ما يبنى رحم امرأة . ثم ينقطع عمله وعملها . وتأخذ يد القدرة فى العمل وحدها فى هذا الساء المهيمن . تعمل وحدها فى خلقه وتنميته ، وبناء هيكله ، ونفخ الروح فيه . ومنذ اللحظة الأولى وفى كل لحظة تالية تتم المعجزة ، وتقع الحارقة التى لا يصنعها إلا الله . والتى لا يدرك البشر كنهها وطبيعتها ؛ كما لا يعرفون كيف تتم . بله أن يشاركوا فيها !

وهذا القدر من التأمل يدركه كل إنسان . وهذا يكفي لتقدير هذه المعجزة والتأثر بها .
ولكن قصة هذه الخلية الواحدة منذ أن تفتى ، إلى أن تصبح خلقا ، قصة أغرب من الخيال .
قصة لا يصدقها العقل لولا أنها تقع فعلا ، ويشهد وقوعها كل إنسان !

هذه الخلية الواحدة تبدأ فى الانقسام والتكاثر ، فإذا هى بعد فترة ملايين الملايين من الخلايا .
كل مجموعة من هذه الخلايا الجديدة ذات خصائص تختلف عن خصائص المجموعات الأخرى ؛
لأنها مكلفة أن تنشئ جانبا خاصا من المخلوق البشرى ! فهذه خلايا عظام . وهذه خلايا
عضلات . وهذه خلايا جلد . وهذه خلايا أعصاب . . . ثم . . . هذه خلايا لعمل عين . وهذه
خلايا لعمل لسان . وهذه خلايا لعمل أذن . وهذه خلايا لعمل غدد . . . وهى أكثر تخصصا من
المجموعات السابقة . . . وكل منها تعرف مكان عملها ، فلا تخطئ خلايا العين مثلا ، فتقطع فى البطن
أوفى القدم . مع أنها لو أخذت أخذنا صناعا فزرعت فى البطن مثلا صنعت هناك عينا ! ولكنها
هى بإلهامها لا تخطئ . فتذهب إلى البطن لصنع عين هناك ! ولا تذهب خلايا الأذن إلى القدم
لصنع أذنا هناك ! . . إنها كلها تعمل وتنشئ هذا الكيان البشرى فى أحسن تقويم تحت عين
الحالق ، حيث لا يعمل للإنسان فى هذا المجال (١)

هذه هى البداية . أما النهاية فلا تحمل عنها إبهازا ولا غرابة . وإن كانت مثلها من مشاهدات
البشر للألوفة :

« نحن قدرنا بينكم الموت ، وما نحن بمسبوقين » . .

هذا الموت الذى ينتهى إليه كل حى . . ما هو ؟ وكيف يقع ؟ وأى سلطان له لا يقاوم ؟
إنه قدر الله . . ومن ثم لا يفلت منه أحد ، ولا يسبقه فيفوته أحد . . وهو حلقة فى سلسلة
النشأة التى لا بد أن تتكامل . .
« على أن تبدل أمثالك » . .

لعمارة الأرض والخلافة فيها بعدكم . والله الذى قدر الموت هو الذى قدر الحياة . قدر
الموت على أن ينشئ أمثال من يموتون ، حتى يأتى الأجل المضروب لهذه الحياة الدنيا . . فإذا
انتهت عند الأجل الذى سباه كانت النشأة الأخرى :

(١) يراجع تفسير قوله تعالى : « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من لطفة إذا تفتى » فى سورة النجم
بهذا الجزء

« وتشكك فبا لا تعلمون » ..

في ذلك العالم المتيب المجهول ، الذي لا يدري عنه البشر إلا ما يخبرهم به الله . وعندئذ تبلغ النشأة عامها ، وتصل القافلة إلى مقرها .

هذه هي النشأة الآخرة .. « ولقد علمت النشأة الأولى فلولا تذكرون ! » .. فهي قريب من قريب . وليس فيها من غريب .

بهذه البساطة وبهذه السهولة يعرض القرآن قصة النشأة الأولى والنشأة الآخرة . وبهذه البساطة وهذه السهولة يقف القطرة أمام المنطق الذي تعرفه ، ولا تملك أن تجادل فيه . لأنه مأخوذ من بديهياتها هي ، ومن مشاهدات البشر في حياتهم القرية . بلا تعقيد . ولا تعجيد . ولا فلسفة تكمد الأذهان ، ولا تبلغ إلى الوجدان ..

إنها طريقة الله . مبدع الكون ، وخالق الإنسان ، ومنزل القرآن ...

ومرة أخرى في بساطة ويسر يأخذ بقلوبهم إلى أمر مألوف لهم ، مكرر في مشاهداتهم ، ليرهم يد الله فيه ؟ ويطلعهم على المعجزة التي تقع بين أيديهم ، وعلى مرأى من عيونهم ، وهم عنها غافلون :

« أفرأيتم ما يحراثون ؟ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ لو نشاء لجعلناه حطاما ، فظلمتم تفكهمون : إنا لمتهمون . بل نحن محرومون » ..

هذا الزرع الذي ينبت بين أيديهم وينمو ويؤتي ثماره . مادورهم فيه ؟ إنهم يحراثون ويلقون الحب والبذور التي صنعها الله . ثم ينتهي دورهم وتأخذ يد القدرة في عملها للمجز الحارق العجيب . تأخذ الحبة أو البذرة طريقها لإعادة نوعها . تبدؤه وتسير فيه سيرة الماقل الماراف الخبير بمراحل الطريق ! التي لا يخطيء مرة كما يخطيء الإنسان في عمله ، ولا يتحرف عن طريقه ، ولا يضل الهدف للرسم ! إن يد القدرة هي التي تتولى خطاها على طول الطريق .. في الرحلة العجيبة . الرحلة التي ما كان العقل ليصدقها ، وما كان الخيال ليتصورها ، لولا أنها حدثت وتحدث ويراها كل إنسان في صورة من الصور ، ونوع من الأنواع .. وإلا فأى عقل كان يصدق ، وأى خيال كان يتصور أن حبة القمح مثلا يكن فيها هذا اللود وهذا اللورق ، وهذه النسبلة ، وهذا الحب الكثير ؟ ! وأن النواة تكمن فيها نحلة كاملة ساقطة بكل ما تحتويه ؟ !

أى عقل كان يمكن أن يتناول به الخيال إلى تصور هذه العجيبة . لولا أنه يراها تقع بين يديه صباح مساء؟ ولولا أن هذه القصة تكرر على مرأى ومسمع من جميع الناس؟ وأى إنسان يمكنه أن يدعى أنه صنع شيئا فى هذه العجيبة سوى الحرث وإلقاء البذور التى صنعها الله؟ ثم يقول الناس : زرعا !! وهم لم يتجاوزوا الحرث وإلقاء البذور . أما القصة العجيبة التى تمثلها كل حبة وكل بذرة . وأما الحارقة التى تنبت من قلبها وتنمو وترتفع فكلها من صنع الخالق الزارع . ولوشاء لم تبدأ رحلتها . ولوشاء لم تتم قصتها . ولوشاء لجلعها حطاما قبل أن تؤتى ثمارها . وهى بمشيئته تقطع رحلتها من البدء إلى الختام !

ولواقع هذا لظلل الناس يلونون الحديث وينوعونه يقولون : « إنا للمرمون » : غارمون « بل نحن محرومون » .. ولكن فضل الله بمنحهم الثمر ، ويسمح للنبته أن تتم دورتها ، وتكمل رحلتها ، وهى ذاتها الرحلة التى تقوم بها الحبة التى تبنى .. وهى صورة من صور الحياة التى تنشأ القدره وترعاها .

لماذا فى النشأة الأخرى من غرابية . وهذه هى النشأة الأولى ؟ ..

« أفرايتم الساء الذى تشربون ؟ أأتم أنزلوه من للزن أم نحن للزلون ؟ لوشاء جعلناه أجاجا . فلولا تشكرون » !

وهذا الساء أصل الحياة ، وعصرها الذى لانشأ لإلابة كما قدر الله . مادور الإنسان فيه ؟ دوره أنه يشربه . أما الذى أنشأه من عناصره ، وأما الذى أنزله من سحابه ، فهو الله سبحانه . وهو الذى قدر أن يكون عنبا فكان « لوشاء جعلناه أجاجا » . مالحا لا يستساغ ، ولا ينشئ . حياة . فهلا يشكرون فضل الله الذى أجرى مشيئته بما كان ؟

والخاطبون ابتداء بهذا القرآن كان للساء النازل من السحاب ، فى صورته المباشرة ، مادة حياتهم ، وموضع احتفالهم ، والحديث الذى يهز نفوسهم ، وقد خلده قصائدهم وأشعارهم .. ولم تنقص قيمة الساء بتقدم الإنسان الحضارى ، بل لعلها تضاعفت . والذين يشتغلون بالعلم ويعاودون تفسير نشأة الساء الأولى أشد شعورا بقيمة هذا الحدث من سوامهم . فهو مادة اهتمام للبدايى فى الصحراء ، وللعالم للشتغل بالأبحاث سوام ..

« أفريتم النار التي تودون ؟ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ؟ نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين » . .

ولقد كان كشف الإنسان للنار حادثاً عظيماً في حياته . ربما كان أعظم حادث بدأت منه حضارته . ولكنها أصبحت أمراً مألوفاً لا يثير الاهتمام . . والإنسان يورى النار : أى يوقدها . ولكن من الذى أنشأ وقودها ؟ من الذى أنشأ الشجر الذى توقد به النار ؟ لقد مر حديث الزرع . والشجر من هذا الزرع . . على أن هناك لفظة أخرى في ذكر « شجرتها » . فمن احتسك فرع من شجرة بفرع آخر من شجرة أخرى كان العرب يوقدون نارهم . على الطريقة البدائية التي لا تزال مستعملة في البيئات البدائية حتى الآن . فالأمر أظهر وأقرب إلى تجاربهم المعروفة . أما معجزة النار وسرها عند العلماء الباحثين فهو مجال للبحث والنظر والاهتمام . وبمناسبة ذكر النار يلعب السياق إلى نار الآخرة . : « نحن جعلناها تذكرة » تذكر بالنار الأخرى .. كما جعلناها « متاعاً للمقوين » . . أى للمسافرين . وكان لهذه الإشارة وقعها العميق في نفوس المخاطبين ، لما تمثله في واقع حياتهم من مدلول حي حاضر في تجاربهم وواقعهم .

وحين يبلغ السياق إلى هذا الحد من عرض هذه الحقائق والأسرار ، الناطقة بدلائل الإيمان . لليسرة للقلوب والأذهان . يلتفت إلى الحقيقة التي تنتهى إليها هذه الحقائق . حقيقة وجود الله وعظمته وربوبيته . وهى حقيقة تواجه القطرة مواجهة ذات قوة وسلطان . فيهب بالرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يحى هذه الحقيقة ويؤدى حقها ؛ ويلبس القلوب بها في حينها :

« فسيح باسم ربك العظيم » . .

ثم يلتفت النفاثة أخرى إلى السكنديين بهذا القرآن ؛ فيربط بينه وبين هذا الكون في قسم عظيم من رب العالمين :

« فلا أقسم بمواقع النجوم - وإنه لقسم لو تعلمون عظيم - إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون

لا يسه إلا للطهرون . تنزيل من رب العالمين » . .

ولم يكن المخاطبون يومذاك يعرفون عن مواقع النجوم إلا القليل ، الذى يدركونه بعيونهم

المجردة . ومن ثم قال لهم : « وإنه قسم — لو تعلمون — عظيم » .. فأما نحن اليوم فنذكر من عظمة هذا القسم المتعلقة بالقسم به ، نصيباً أكبر بكثير مما كانوا يعلمون . وإن كنا نحن أيضاً لانعم إلا القليل عن عظمة مواقع النجوم ..

وهذا القليل الذي وصلنا إليه برصدنا الصغيرة ، المحدودة المناظير ، يقول لنا : إن مجموعة .. واحدة من مجموعات النجوم التي لا تحصى في الفضاء الهائل الذي لا نعرف له حدودا . مجموعة واحدة — هي المجرة التي تنسب إليها أسرتنا الشمسية — تبلغ ألف مليون نجم !

« ويقول الفلكيون إن من هذه النجوم والكواكب التي تزيد على عدة بلايين نجم ، ما يمكن رؤيته بالعين المجردة ، وما لا يرى إلا بالمجاهر والأجهزة ، وما يمكن أن نحس به الأجهزة دون أن نراه . هذه كلها تسبح في الفلك القامض ؛ ولا يوجد أى احتمال أن يقترب مجال مغناطيسي لنجم من مجال نجم آخر ، أو يصطدم بكوكب آخر ، إلا كما يحدث تصادم مركب في البحر الأبيض المتوسط بآخر في المحيط الهادى ، يسيران في اتجاه واحد وبسرعة واحدة . وهو احتمال بعيد ، وببعد جدا . إن لم يكن مستحيلاً ^(١) »

وكل نجم في موقعه للتباعده عن موقع إخوته ، قد وضع هناك بحكمة وتقدير . وهو منسق في آثاره وتأثيراته مع سائر النجوم والكواكب ، لتوازن هذا الخلاق كلها في هذا الفضاء الهائل . فهذا طرف من عظمة مواقع النجوم ، وهو أكبر كثيراً جداً مما كان يعلمه المخاطبون بالقرآن أول مرة . وهو في الوقت ذاته أصغر بما لا يقاس من الحقيقة الكلية لحظة مواقع النجوم ! « فلا أقسم بمواقع النجوم » .. فالأمر أوضح وأجلى من أن يحتاج إلى قسم .. « وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » .. وهذا التلويح بالقسم والمدلول عنه أسلوب ذو تأثير في تقرير الحقيقة التي لا تحتاج إلى القسم لأنها ثابتة واضحة . « إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يحسه إلا المطهرون . تنزيل من رب العالمين » ..

إنه لقرآن كريم . وليس كما تدعون قول كاهن ، ولا قول مجنون ، ولا مفترى على الله . من أساطير الأولين . ولا تنزلت به الشياطين ... إلى آخر هذه الأقاويل . إنما هو قرآن كريم . كريم بمصدره ، وكريم بذيته ، وكريم بأجهاثته .

« في كتاب مكنون » .. مصون .. وتفسير ذلك في قوله تعالى بعدها : « لا يحسه »

إلا للطهرون .. قد زعم الشركون أن الشياطين نزلت به . فهذا نقي لهذا الزعم . فالشيطان لا يمس هذا الكتاب للكون في علم الله وحفظه . إنما نزل به الملائكة للطهرون .. وهذا الوجه هو أظهر الوجوه في معنى « لا يمس إلا للطهرون » . فلا هنا نافية لوقوع الفعل . وليست ناهية . وفي الأرض يمس هذا القرآن الطاهر والنجس . والؤمن والكافر ، فلا يتحقق النقي على هذا الوجه . إنما يتحقق بصرف المعنى إلى تلك الملاينة . ملاينة قولهم : نزلت به الشياطين . ونقي هذا الزعم إذ لا يمس في كتابه السامى للكون إلا للطهرون ..

وما يؤيد هذا الاتجاه قوله تعالى بعد هذا : « نزل من رب الملائكة » .. لا تنزل من الشياطين !

وقد روى حديثان يقرران معنى آخر . وهو أن لا يمس القرآن إلا طاهر .. ولكن ابن كثير قال عنهما : « وهذه وجادة جيدة قد قرأها الزهري وغيره . ومثل هذا لا ينبغي الأخذ به . وقد أسنده الدارقطني عن عمرو بن حزم وعبد الله بن عمر وعثمان بن أبي العاص . وفي إسناد كل منهما نظر والله أعلم » .

ثم يأتي الإيقاع الأخير في السورة .. لحظة اللوت .. اللعنة التي ترجف لها الأوصال . واللحظة التي تنهى كل جدال . واللحظة التي يقف فيها الحى بين نهاية طريق وبداية طريق ، حيث لا يملك الرجوع ولا يملك النكوص :

« أفبذا الحديث أنتم مدحون؟ وتحملون رزقكم أنكم تكذبون . فلو لا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون . فلو لا إن كنتم غير مدينين . ترجونها إن كنتم صادقين » ..

أنتم شاكون في هذا الحديث الذى يقال لكم عن النشأة الآخرة ؟ مكذبون بالقرآن . وما يقص عليكم من شأن الآخرة ، وما يقرره لكم من أمور العقيدة ؟ « وتحملون رزقكم أنكم تكذبون » .. فإذا التكذيب هو رزقكم الذى تحصلون عليه في حياتكم تدخرونه لآخرتكم؟ وما أسوأه من رزق !

فإذا أنتم فاعلون إذ تبلغ الحلقوم ، وتقفون في مفرق الطريق المجهول ؟
(١٠ - في ظلال القرآن [٢٧])

ثم يصور الموقف التصوير القرآني اللوحي، الذي يرسم ظلال الموقف كلها في لسات سرية ناطقة بكل ما فيه، وبكل ما وراءه، وبكل ما يوحيه .
« فلولا إذا بلغت الحلقوم . وأتممت حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون » ..

نكاد نسمع صوت الحسرة، ونهصر تنقبض للامع، ونحس الكرب والضيق من خلال قوله:
« فلولا إذا بلغت الحلقوم » .. كما نكاد نبصر نظرة العجز وذهول اليأس في ملامح الحاضرين من خلال قوله : « وأتممت حينئذ تنظرون » ..

هنا . في هذه اللحظة . وقد فرغت الروح من أمر الدنيا . وخلفت وراءها الأرض وما فيها . وهي تستقبل عالمًا لا عهد لها به ، ولاتملك من أمره شيئًا إلا ما ادخرت من عمل ، وما كسبت من خير أو شر .

هنا . وهي ترى ولاتملك الحديث عما ترى . وقد انفصلت عن حوّلها وما حولها . الجسد هو الذي يراه الناظرون . ولكنهم ينظرون ولا يرون ما يجري ولا يعلمون من الأمر شيئًا .

هنا تقف قدرة البشر ، ويقف علم البشر ، وينتهي مجال البشر .

هنا يسرفون - ولا يجادلون - أنهم بحجة عجيبة . قاصرون قاصرون .

هنا يسدل الستار دون الرؤية . ودون المعرفة . ودون الحركة .

هنا تنفرد القبدة الإلهية ، والمسلم الإلهي . ويخلص الأمر كله قد بلاشائبة ولا شبهة ولا جدال ولا محال :

« ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون » ١

وهنا يجمل الموقف جلال الله ، وربة حضوره - سبحانه وتعالى - وهو حاضر في كل وقت . ولكن التعبير يوقظ الشعور بهذه الحقيقة التي يغفل عنها البشر . فإذا جلس الموت تجلله ربة الحضور وجلاله . فوق ما فيه من عجز ورهبة وانقطاع ووداع . وفي ظل هذه للشاعر الراجفة الواجفة الآسفة الآسفة . التحدى الذي يقطع كل قول وينهى كل جدال :

« فلولا إن كنتم غير مدينين . ترجمونها إن كنتم صادقين ١ »

فلو كان الأمر كما يقولون : إنه لا حساب ولا جزاء . فأتممت إذن طلقاء غير مدينين ولا محاسبين .

فدونكم إذن فترجوها - وقد بلغت الحلقوم - تردوها عما هي ذاهبة إليه من حساب وجزاء .
وأتم حولها تنظرون . وهي ماضية إلى الدينونة الكبرى وأتم ما يكون عاجزون !
هنا تسقط كل تلمة . وتنقطع كل حجة . ويطل كل محال . وينتهي كل جدال . ويشمل
صنط هذه الحقيقة على الكيان البشرى ، فلا صمد له ، إلا وهو يكابر بلا حجة ولا دليل !

ثم يعطى السياق في بيان مصير هذه الروح الذى يترأى لها من بعيد حين تبلغ الحلقوم ،
وتستدبر الحياة العانية ، وتستقبل الحياة الباقية . وتمضى إلى الدينونة التى يكذب بها للكذبةون :
« فأما إن كان من اللقرين ، فروح وريحان وجنة نعيم . وأما إن كان من أصحاب اليمين ،
فسلام لك من أصحاب اليمين . وأما إن كان من المكذبين الضالين . فزل من حميم .
وتصلية جحيم » ..

وقد مرت بنا فى أول السورة صور من نعيم اللقرين . فالروح هنا ترى علام هذا النعيم
الذى ينتظرها : روح وريحان وجنة نعيم . والألفاظ ذاتها تخطر رقة وندوة . وتلقى ظلال الراحة
الحلوة ، والنعيم اللين ، والأنس الكريم .

« وأما إن كان من أصحاب اليمين » .. فلفت بالحطاب إليه .. يأنه سلام لإخوانه من
أصحاب اليمين . وما أندى السلام ساعد وما أحبه . حين يتلقاه وقد بلغت الحلقوم ! فيطمئن
بأله ويشعر بالأنس فى الصحبة للقبلة مع أصحاب اليمين .

« وأما إن كان من المكذبين الضالين . فزل من حميم . وتصلية جحيم » .. وما أسوأ
نزلا ومثوى ذلك الجحيم الساخن . وما أشده عذابا ذلك الجحيم ، يترأى له ويعلم أنه ملاقيه
عن يقين !

والآن وقد بلغ للوقف ذروته نجىء الحاقمة فى إقاع عميق رزين :
« إن هذا هو حق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم » ..
فتلقى رجاحة اليقين وقمته فى ميزان الحق ، بالواقعة التى بدأت بها السورة . ونغم بما
يوجه هذا اليقين الثابت الجازم من اتجاه إلى الله بالتسبيح والتعظيم ..

سُورَةُ الْحَدِيدِ مَدَنِيَّةٌ
وَأَيَّاسُهَا ٢٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ ، يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ
وَالْبَاطِنُ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ،
ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ
وَمَا يَرْجِعُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ * يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ، وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ،
وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

« آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَأَقِمْوْا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْفِلِينَ فِيهِ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا
مِنْكُمْ وَأَقْفُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ * وَمَالَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ؟ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا
بِرَبِّكُمْ ، وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ ، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ
بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ * وَمَالَكُمْ
أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؟ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ؟ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ
أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ، أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا ،
وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

« مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ؟ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ * يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتَ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ، بِشَرِّكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا . ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا : انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ . قِيلَ : ارْجِعُوا ورائكم فَالْتَمِسُوا نُورًا . فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ ، بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ، وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ * ينادونهم : أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ؟ قَالُوا : بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ، وَتَرَبَّصْتُمْ ، وَارْتَبْتُمْ ، وَغَرَوْتُمْ الْأَمَانِي ، حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ، وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْفُرُودُ * فَالْيَوْمَ لَا يُوَفِّدُ مِنْكُمْ فِدْيَةً وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، مَاُواكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » .

هذه السورة بجمعتها دعوة للجماعة الإسلامية كي تحقق في ذاتها حقيقة إيمانها . هذه الحقيقة التي تخلص بها النفوس لدعوة الله ؟ فلا تخضع عليها بشيء ، ولا تختبئ دونها شيئاً .. لا الأرواح ولا الأموال ؟ ولا خلجات القلوب ولا ذوات الصدور .. وهي الحقيقة التي تستحيل بها النفوس ربانية بينما تعيش على الأرض . موازينها هي موازين الله ، والقيم التي تميز بها وتسابق إليها هي القيم التي تتمثل في هذه الموازين . كما أنها هي الحقيقة التي تشع القلوب بحقيقة الله ، فتشجع لذكره ، وترجع وتفر من كل عائق وكل جاذب يعوقها عن القرار إليه .

وعلى أساس هذه الحقيقة الكبيرة تدعو السورة الجماعة الإسلامية إلى البذل في سبيل الله . بذلك النفس وبذل المال : « آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَقْبُوا بِنَا جُلُومَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ . فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَقْبُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ، وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَنْ عِبْدِهِ آيَاتٍ يَبْنَاطُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرْؤُوفٌ رَحِيمٌ . وَمَا لَكُمْ لَا تُتَّقُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَفِي مِيرَاثِ الْمَالِ وَالْأَرْضِ . لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَتَقَى مِنَ الْقِتْعِ وَقَاتَلَ أَوْلَاكَ أَعْظَمَ دَجَّةً مِنَ الَّذِينَ أَتَقَوْا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا . وَكَلَّا وَعَدَدُ اللَّهِ الْحَسَنُ . وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » .

وعلى أساس هذه الحقيقة الكبيرة كذلك تدعو الجماعة الإسلامية إلى الخشوع لذكر الله وللحجة التي أنزلها الله ليحيى البذل مرة لهذا الخشوع للنبعث من الحقيقة الإيعانية الأولى : « أَلَمْ

يَأْن للذين آمنوا أن نخضع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا
الكتاب من قبل ، فطال عليهم الأمد ، قصست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون . .
وكذلك تضع قيم الدنيا وقيم الآخرة في ميزان الحق ؟ وتدعو الجماعة الإسلامية لاختيار
الكفة الراجحة ، والسباق إلى القيعة الباقية : « اعلّموا أنّما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر
بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج قتره مصفرا ،
ثم يكون حطاما . وفي الآخرة عذاب شديد ، ومغفرة من الله ورضوان . وما الحياة الدنيا إلا
متاع العرور . ساقبوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للذين آمنوا
بالله ورسله . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » . .

وظاهر من سياق السورة - إلى جانب عمومية الدعوة الداعية إلى تلك الحقيقة - أنها كانت
تعالج كذلك حالة واقعة في الجماعة الإسلامية عند نزول هذه السورة في المجتمع الدني في فترة
تتعد من العام الرابع الهجري إلى ما بعد فتح مكة .

فإلى جانب السابقين من المهاجرين والأنصار ، الذين ضربوا أروع مثال عرفته البشرية ،
في تحقيق حقيقة الإيمان في نفوسهم ، وفي البذل والتضحية بأرواحهم وأموالهم ، في خلوص
نادر ، وتجرد كامل ، وانطلاق من أوهام الأرض وجواذب الفريضة ومعوقات الطريق
إلى الله . . .

إلى جانب هذه الفئة الممتازة الفذة ، كانت هناك - في الجماعة الإسلامية - فئة أخرى ليست
في هذا المستوى الإيماني الخالص الرفيع - وبخاصة بعد الفتح عند ما ظهر الإسلام ، ودخل فيه
الناس أنواعا ، وكان من بينهم من لم يدركوا بعد حقيقة الإيمان الكبيرة ، ولم يعيشوا بها ولها
كما عاشت تلك الفئة السابقة الخالصة المخلصة لله .

هؤلاء المسلمون من الفئة الأخرى كان يصعب عليهم البذل في سبيل الله ؛ وتشق عليهم
تكاليف العقيدة في النفس وللال ؛ وتزدهيم قيم الحياة الدنيا وزينتها ؛ فلا يستطيعون الخلاص
من دعاها وإغرائها .

وهؤلاء - بصفة خاصة - هم الذين تهتف بهم هذه السورة تلك الهتافات للوحية التي أسلفنا
نماذج منها ، لتخلص أرواحهم من تلك الأوهام والجواذب ، وترفعها إلى مستوى الحقيقة الإيمانية
الكبرى ، التي تصهر معها كل قيم الأرض ، وتذوب في حرارتها كل عوائقها .

كذلك كانت هنالك طائفة أخرى - غير هؤلاء وأولئك - هي طائفة الناقصين ، مختلطة غير متميزة ، وبخاصة حين ظهرت غلبة الإسلام ، واضطر الناقصون إلى التحفى والانزواء ؛ مع بقاء قلوبهم مشوبة غير خالصة ولا مخلصنة يترصون القصر وتجرفهم الفتن . وهؤلاء تصور السورة مصيرهم يوم يميزون ويمزلون عن المؤمنين : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم . بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . ذلك هو الفوز العظيم . يوم يقول الناقصون والناقعات للذين آمنوا : انظرونا نقتبس من نوركم . قيل : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا . فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله المذاب ، ينادونهم : ألم نكن معكم ؟ قالوا بلى أولئك هم الذين آمنوا وتربصتم وارتبتم وغرتمكم الأمانى ، حق جاء أمر الله ، وغرتم بالله الفرور . فالיום لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ، مأواكم النار هي مولاكم . وبئس المصير . » .

وهذا إلى جانب من بقى في الجزيرة من أهل الكتاب من اليهود والنصارى . والسورة تشير إلى شيء من أحوالهم ومواقفهم السابقة والحاضرة في ذلك الأوان ؛ للإشارة السابقة إلى قسوة قلوبهم عند تحذير الذين آمنوا أن يكونوا « كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم » . . . وهى إشارة إلى اليهود خاصة في الغالب . . . ولإشارة إلى النصارى قرب نهاية السورة في قوله : « ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل ، وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله . فادعوا حتى راعيتنا . فآتيناهم آمنوا منهم أجرهم ، وكثير منهم فاسقون » . .



ولما كان مدار السورة على تحقيق حقيقة الإيمان في القلب ؛ وما ينبثق عن هذه الحقيقة من خشوع وتقوى ، ومن خلوص وتجرد ، ومن بذل وقضحية ، فقد سارت في إقرار هذه الحقيقة في النفوس التى كانت تواجهها - والتى توجد في كل مجتمع إسلامى - على نسق مؤثر ، أشبه ما يكون بنسق السور للسمية ، حافل بالمؤثرات ذات الإيقاع الأسرى للقلب والحس والشاعرا . وكان مطلبها خاصة مجموعة إيقاعات بالغة التأثير ؛ تواجه القلب البشرى بمجموعة من صفات الله سبحانه . فيها تعريف به مع الإحياء الأسرى بالخلوص له ، نتيجة للشعور بحقيقة الألوهية المنفردة ، وسيطرتها المطلقة على الوجود ، ورجعة كل شيء إليها في نهاية اللطاف ، مع نفاذ علمها إلى خبايا

القلوب وذوات الصدور ، وأنجاه كل شيء إليها بالعبادة والتسبيح : « سبح لله مافي السماوات والأرض . وهو العزيز الحكيم . له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير . هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم . هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يعلم مايلج في الأرض ومايخرج منها ، ومايزل من السماء ومايرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير . له ملك السماوات والأرض وإلى الله ترجع الأمور . يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، وهو عليم بذات الصدور » ..

وهذا المطلع بذاته وإيقاعاته كاف وحده لهذه القلوب هذا ، ويوقع فيها الرهبة والخشية والارتعاش ، كما يوقع فيها الرغبة الحية في الخلوص لله والالتجاء إليه ، والتجرد من الموانق والأهوال للموقفة عن تلبية الهتاف إلى الخلاص من الشح بالأنفس والأموال . ولكن سياق السورة تضمن كثيرا من المؤثرات تتخلل ذلك الهتاف وتؤكد في مواضع شتى . كذلك الصورة الوضیة للمؤمنين وللمؤمنات « يسمى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » .. وتلك الصورة التي تقرر ضالة الحياة الدنيا وقيمها إلى جانب قيم الآخرة ومايمت فيها من الأمور الكبار .

كذلك جاءت لمسة أخرى ترد القلوب إلى حقيقة القدر للسيطرة على الوجود : « ماأصاب من معصية في الأرض ولافي أنفسكم إلافي كتاب من قبل أن نبرأها . إن ذلك على الله يسير . لئن لمأتوا على ماآتاكم ولافزعوا بماآتاكم . والله لايعب كل عتال غفور . الذين يبخلون ويأمررون الناس بالبخل ، ومن يتول فإن الله هو الفی الحید » .. كي تستقر النفس وتطمئن لمايسبها من خير أو شر ، وهي في طريقها إلى الله . فلا تبطر جزعا ، ولا تبطر فرحا ، وهي تواجه الضراء والسراء . ولا تشرك بالله سببا ولاظرفا ولاحادثا . فكله بقدر مقسوم لأجل معلوم . ومرد الأمر كله في النهاية إلى الله .

وقد سار سياق السورة في علاج موضوعها في شوطين اثنين أثبتنا أولهما في صدر هذا التقديم . وجاءت فقرات كثيرة من الشوط الثاني في خلاله . وهما مترابطان مطردان . فنكتفي بهذا القدر ، لنسير مع سياق السورة بالتفصيل ..

« سبح لله مافى السماوات والأرض ، وهو العزيز الحكيم . له ملك السماوات والأرض . يحيى ويميت ، وهو على كل شيء قدير . هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم . هو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يعلم مايلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير . له ملك السماوات والأرض ، وإلى الله ترجع الأمور . يوبخ الليل فى النهار ويوبخ النهار فى الليل ، وهو عليم بذات الصدور » ..

هذا المطلع للوحى المختار . وماحشد فيه من خصائص الألوهية القاعلة المؤثرة المبدعة لكل شيء ، المحيطة بكل شيء ، للهيمنة على كل شيء ، العليمة بكل شيء . وما تعرضه من إبداع اليد القادرة وهى تتجول فى محيط السماوات والأرض ، وتتلطف إلى خبايا الصدور وطوايا القلوب ، وتشرف من عل على الوجود ومافيه ومن فيه ..

هذا المطلع للوحى المختار يتناول القلوب ، فهزها هذا ، ويأخذها أخذاً ، وهو يجول بها فى الوجود كله فلا تجرد إلا الله ، ولا ترى إلا الله ، ولا تحس بشيء الله ، ولا تعلم لها مهرباً من قدرته ولا خبأً من علمه ، ولا مرجعاً إلا إليه ، ولا متوجهاً إلا لوجهه الكريم :

« سبح لله مافى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم » ..

هكذا ينطلق النص القرآنى الكريم فى مفتتح السورة : فتجاوب أرجاء الوجود كله بالتسبيح لله . ويهيم كل شيء فى السماوات والأرض ، فيسمعه كل قلب مفتوح غير محبوب بأحجية الغناء . ولا حاجة لتأويل النص عن ظاهر مدلوله . فالله يقول : ونحن لانعلم شيئاً عن طبيعة هذا الوجود وخصائصه أصدق مما يقوله لنا الله عنه . . فـ « سبح لله مافى السماوات والأرض » تنص « سبح لله مافى السماوات والأرض » .. ولا تأويل ولا تعديل ! ولنا أن نأخذ من هذا أن كل مافى السماوات والأرض له روح ، يتوجه بها إلى خالقه بالتسبيح وإن هذا لم هو أقرب تصور يصدق ماوردت به الآثار الصحيحة ، كما تصدق تجارب بعض القلوب فى لحظات صفائها وإشراقها ، واتصالها بالحقيقة الكامنة فى الأشياء وراء أشكالها ومظاهرها .

وقد جاء فى القرآن الكريم : « يا جبال أوبي معه والطير » . . فإذا الجبال كالطير تؤوب مع داود ! وجاء فى الأثر : أخرج مسلم فى صحيحه عن جابر ابن سمرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم- : « إن بكمة حجرا كان يسلم على ليلالى بشت . إني لأعرفه الآن » .. وروعه

الترمذى - بإسناده - عن علي ابن أبي طالب - كرم الله وجهه - قال : كنت مع رسول الله بمكة فخرجنا في بعض نواحيها ، فماستقبله شجر ولا جبل إلا وهو يقول : « السلام عليك يا رسول الله » . وروى البخارى في صحيحه بإسناده عن أنس ابن مالك قال : « خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم - إلى لزنق جذع . فلما صنعوا له النبر فخطب عليه حن الجذع حينئذ الناقة ، فزل الرسول فسحبه ، فسكن » .

وآيات القرآن كثيرة وصريحة في تقرير هذه الحقيقة الكونية : « ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه » . « ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس » . « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » . ولا داعي لتأويل هذه النصوص الصريحة لتوافق مقررات سابقة لنا عن طبائع الأشياء غير مستمدة من هذا القرآن . فكل مقرراتنا عن الوجود وكل تصوراتنا عن الكون يبنى أن تنبع أولا من مقررات خالق هذا الكون ومبدع هذا الوجود .

« وهو العزيز الحكيم » . فتسبيح ما في السماوات والأرض له فرع عن المزة الغالبة والحكمة البالغة . فهو للهيمن على كل شيء بقوته ، وهو جاعل كل شيء وفق حكمته .

وما يكاد القلب البشري يفقه من فيض هذا النص ، ومن مهرجان الوجود للسبح لحالقه في السماوات والأرض ، حتى يماجله السياق برحلة جديدة في ملكوت السماوات والأرض : « له ملك السماوات والأرض ، يحيي ويميت ، وهو على كل شيء قدير » .

إن كل شيء في السماوات والأرض سبح لله . مالك السماوات والأرض . الذي لا شريك له في ملكه . فهو تسبيح للملوك لملكه التفرّد ، الذي يحيي ويميت . فيخلق الحياة ويخلق الموت . ويقدر الحياة لكل حي ويقدر له الموت ؟ فلا يكون إلا قدره الذي قضاه .

والحياة ما تزال سرا في طبيعتها ، وسرا في مصدرها ؟ ولا يملك أحد أن يقول من أين جاءت . ولا كيف جاءت . فضلا على أن أحدا لا يدري ما هي على وجه الحقيقة . والنس القرآن يقول : إن الله هو الذي يحيي . الذي يعطي الحياة للأحياء . وما يملك أحد أن ينكر هذا ولا أن يثبت غيره . والموت كالحياة سر مغلف . لا يعرف أحد طبيعته ولا يملك أحد أن يحدّثه .

لأن أحدا غير واهب الحياة لا يملك سلبها . . وهذا وذلك من مظاهر الملكية المطلقة لله في
الحيوانات والأرض يحيى ويميت . . .

« وهو على كل شيء قدير » .. إجمالا بغير حد ولا قيد . فالمشيئة المطلقة تمنح بغير حد ولا
قيد . وتعلق بما تشاء أن تتعلق به كما تشاء . وكل قيد يتصوره العقل البشرى بمنطقه هو لهذه
المشيئة من أى نوع وأى لون هو تصور باطل ، ناشئ من طبيعة العقل البشرى المحدود واختيار
المشيئة لنواميس وسنن لهذا الوجود داخل في حقيقة انطلاقها بلا قيود ولا حدود . فهي تختار
هذه النواميس والسنن اختيارا طليقا ، وتعملها في السكون غير مقيدة بها بعد إعمالها ، ولا محصورة
في نطاقها . والاختيار دائم ومطرد وراء هذه السنن والنواميس . .

والقرآن بولى هذه الحقيقة عناية كبيرة ، فنص عليها في كل مناسبة بما يفيد طلاقة المشيئة من
كل قيد يرد عليها حتى من عملها هي . لتبقى هذه الحقيقة واضحة ، ويبقى تصورها غير مشوب .
فقد وعد الله أهل الجنة بالخلود فيها وأهل النار كذلك . وهذا الوعد صادر من المشيئة . ولكنه
أبقى للمشيئة طليقة خارج نطاق هذا الوعد ذاته وهو من عملها وباختيارها . فقال عن هؤلاء
وهؤلاء : « خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك . . » . وهكذا في كل
موضع وردت فيه مثل هذه المناسبة . ولا مجال لنطق العقل البشرى ولا لقراراته في هذا المجال .
وعليه أن يأخذ مقرراته كلها من هذا القرآن ، لا من معين آخر غير القرآن !
ومن ثم يمثل للعقل البشرى من خلال هذه الآية سلطان الله اللطيف في ملكه الذي لا شريك
له فيه ، والذي يتوجه إليه سبحانه بالتسبيح وحق له أن يتوجه ، وحق عليه أن يسبح .

وما يكاد يفيق من تصور هذه الحقيقة الضخمة التي تملأ الكيان البشرى وتفيض ، حق
تطالعه حقيقة أخرى ، لعلها أضخم وأقوى . حقيقة أن لا كينونة لشيء في هذا الوجود على
الحقيقة . فالكينونة الواحدة الحقيقية هي لله وحده سبحانه ؛ ومن ثم فهي محيطة بكل شيء ،
عليمة بكل شيء . :

« هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم » ..

الأول فليس قبله شيء . والآخر فليس بعده شيء . والظاهر فليس فوقه شيء . والباطن
فليس دونه شيء .

الأول والآخر مستغرقا كل حقيقة الزمان ، والظاهر والباطن مستغرقا كل حقيقة المكان .
وهما مطلقتان . ويتلفت القلب البشرى فلا يجد كينونة لشيء إلا لله . وهذه كل مقومات الكينونة
ثابتة له دون سواه . حتى وجود هذا القلب ذاته لا يتحقق إلا استمدا من وجود الله . فهذا
الوجود الإلهي هو الوجود الحقيقي الذي يستمد منه كل شيء وجوده . وهذه الحقيقة هي
الحقيقة الأولى التي يستمد منها كل شيء حقيقته . وليس وراءها حقيقة ذاتية ولا وجود ذاتي شيء
في هذا الوجود ..

« وهو بكل شيء عليم » . . . علم الحقيقة الكاملة . حقيقة كل شيء مستمدة من الحقيقة
الإلهية صادرة عنها . فهي مستغرقة إذن بلم الله الذي بها . العلم الذي لا يشاركه أحد في نوعه
وصفته وطريقته . مهما علم المخلوقون عن ظواهر الأشياء !

فإذا استقرت هذه الحقيقة الكبرى في قلب ، فما احتفاله شيء في هذا الكون غير الله سبحانه؟
وكل شيء لاحققة له ولا وجود حق ذلك القلب ذاته - إلا ما يستمد منه تلك الحقيقة الكبرى؟
وكل شيء وهم ذاهب ، حيث لا يكون ولا يبق إلا الله ، للنفس بكل مقومات الكينونة والبقاء ؟
وإن استقرار هذه الحقيقة في قلب ليحله قطعة من هذه الحقيقة . فأما قبل أن يصل إلى
هذا الاستقرار ، فإن هذه الآلة القرآنية حسبه ليمش في تدبرها وتصور مدلولها ، ومحاولة
الوصول إلى هذا للدلول الواحد وكفى !

ولقد أخذ التصوفة بهذه الحقيقة الأساسية الكبرى ، وهاموا بها وفيها ، وسلكوا إليها
مسالك شتى ، بعضهم قال إنه يرى الله في كل شيء في الوجود . وبعضهم قال : إنه رأى الله من
وراء كل شيء في الوجود . وبعضهم قال : إنه رأى الله فلم ير شيئا غيره في الوجود . . . وكلها
أقوال تشير إلى الحقيقة إذا تجاوزنا عن ظاهر الألفاظ القاصرة في هذا المجال . إلا أن ما يؤخذ
عليهم - على وجه الإجمال - هو أنهم أهملوا الحياة بهذا التصور . والإسلام في توازنه المطلق
يريد من القلب البشرى أن يدرك هذه الحقيقة ويبش بها ولها ، بينما هو يقوم بالخلافة في
الأرض بكل مقتضيات الخلافة من احتفال وعناية وجهاد وجهد لتحقيق منهج الله في الأرض ،
باعتبار هذا كله ثمرة تصور تلك الحقيقة تصورا متزنا ، متناسقا مع فطرة الإنسان وفطرة الكون
كما خلقهما الله .

وبعد إطلاق تلك الحقيقة الكبرى جل يذكر كيف انبثقت منها حقائق الوجود الأخرى: « هو الذى خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يسرج فيها . وهو معكم أينما كنتم . والله بما تعملون بصير . له ملك السماوات والأرض ، وإلى الله ترجع الأمور . يوبخ الليل في النهار ويوبخ النهار في الليل ، وهو علم بذات الصدور » ..

حقيقة خلق السماوات والأرض . وحقيقة الاستواء على العرش والمحبة على الخلق . وحقيقة العلم بأشياء بينها من هذا الخلق . وحقيقة الوجود مع كل أحد أينما وجد . وحقيقة رجعة الأمور إليه وحده . وحقيقة تصرفه اللطيف في كيان الوجود ، وعلمه الخفي بذات الصدور .. وكلها حقائق منبثقة عن تلك الحقيقة الأولى . . ولكن عرضها في هذا المجال السكوني يجعل لها في القلب البشري إيقاعات وظلالا .. والسماوات والأرض تواجه هذا القلب وتروعه بضخامتها وجلالها ، وتناسقها وجمالها ، كما تواجهه وتروعه بدقة نظامها وانضباط حركاتها ، واطراد ظواهرها . ثم إنها خلّاق من خلق الله كالقلب البشري . فله بها صلة الأسرة وأنس القرابة . وهي توقع على أوتاره إيقاعات لدن حين يتوجه إليها ، ويسمع لها ، ويعاطفها أو هي تقول له : إن الذى خلقها هو خلقه . وهي تسبح خالقها فليصبح خالقها : كما تقول له : إنها تستمد حقيقة وجودها من وجود خالقها وأنه هو كذلك . فليس هنالك إذن إلا هذه الحقيقة تستحق الاحتفال بها !

والأيام الستة لا يعلم حقيقتها إلا الله . فأيماننا هذه ليست سوى ظلال ناشئة عن حركة الأرض حول نفسها أمام الشمس . وجدت بعد خلق الأرض والشمس فليست هي الأيام التى خلق الله فيها السماوات والأرض . فترك عليها الله يطلنا عليه إن أراد .

وكذلك العرش . فنحن نؤمن به كما ذكره ولا نعلم حقيقته . أما الاستواء على العرش فنملك أن نقول : إنه كناية عن المحبة على هذا الخلق . استنادا إلى ما نلمه من القرآن عن يقين من أن الله — سبحانه — لا تشير عليه الأحوال . فلا يكون في حالة عدم استواء على العرش ، ثم تنبها حالة استواء . والقول بأننا نؤمن بالاستواء ولا ندرك كيفيته لا يفسر قوله تعالى : « ثم استوى » . . والأولى أن نقول : إنه كناية عن المحبة كما ذكرنا . والتأويل هنا لا يخرج على التبع الذى أشرنا إليه آتفا لأنه لا ينبع من مقررات وتصورات من عند أنفسنا . إنما يستند إلى مقررات القرآن ذاته ، وإلى التصور الذى يوحى عن ذات الله سبحانه وصفاته :

ومع الخلق والمحبة الم شامل اللطيف ، يصور النص القرآنى مجاله تصويرا عجبيا يشغل القلب بتبعه فى هذا المجال الواسع ، ويتصوره فى حركة دائمة لا تقتر . وهذا أمر غير مجرد ذكر العلم وحقيقته المجردة . أمر مؤثر موحى بملا جوانب النفس ، ويشغل خوايل القلب ، وتترامى به سبجات التصوير ووثبات الخيال :

« يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يمرج فيها . . . »
وفى كل لحظة يلج فى الأرض ما لا عداد له ولا حصر من شى أنواع الأحياء والأشياء ؟
ويخرج منها ما لا عداد ولا حصر من خلائق لا يعلمها إلا الله . وفى كل لحظة ينزل من السماء من الأمطار والأشعة والنيازك والشهب ، والملائكة والأقنذار والأسرار ؛ ويرج فيها كذلك من المنظور والمستور ما لا يحصى إلا الله . . . والنص القصير يشير إلى هذه الحركة الدائبة التى لا تنقطع ، وإلى هذه الأحداث الضخام التى لا تحصى ؛ ويدع القلب البشرى فى تلفت دائم إلى ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يمرج فيها ، وفى تصور يقظ لمعلم الله الشامل وهو يتبع هذه الحركات والأحداث ، فى مسارها ومعارجها .

والقلب فى تلفته ذاك وفى يقظته هذه يعيش مع الله ، ويسبح فى ملكوته بينما هو ناوٍ فى مكانه ؛ ويسلك غفاج الكون ويعجوب أقطار الوجود فى حساسية وفى شفافية ، وفى رعشة من الروعة والاتصال .

وبينما القلب فى تلفته ذاك فى الأرض والسماء ، إذا القرآن يرد إلى ذاته ، ويلبسه فى صميمه .
وإذا هو يجد الله معه ، ناظرا إليه ، مطلما عليه ، بصيرا بعمله ، قريبا جد قريب :
« وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير . . »

وهى كلمة على الحقيقة لا على الكناية والمجاز . فالفهم — سبحانه — مع كل أحد ، ومع كل شىء ، فى كل وقت ، وفى كل مكان . مطلع على ما يعمل بصير بالباد . وهى حقيقة هائلة حين يتمثلها القلب . حقيقة مذهلة من جانب . ومؤنسة من جانب . مذهلة بروعة الجلال . ومؤنسة بظلال القربى . وهى كنية وحدها حين يحسها القلب البشرى على حقيقتها أن ترضه وتطهره ، وتدعه مشغولا بهاعن كل أعراض الأرض ؛ كما تدعه فى حذر دائم وخشية دائمة ، مع الحياء والتحرر من كل دنس ومن كل إسفاف .

ومرة أخرى يعود إلى ملكية السواوات والأرض في مجال آخر غير الذي وردت فيه أول مرة :

« له ملك السواوات والأرض . وإلى الله ترجع الأمور » . .

ففي المرة الأولى جاء ذكرها في معرض الإحياء والإماتة والقدرة المطلقة . وهنا يجيء ذكرها في معرض رجعة الأمور كلها إلى الله . وهي متصلة بملكية الله للسواوات والأرض ومكلمة لحقيقتها . والشمور بهذه الحقيقة يحرس القلب من كل لفتة لنير الله في أي أمر . في أول الأمر وفي آخره . ويحميه من التطلع لنير الله في أي طلب ، ومراقبة غير الله في أي عمل . ويقيمه على الطريق إلى الله في سره وعلمه ، وحركته وسكونه ، وخواجه ونجمه . وهو يعلم أن لا مهرب من الله إلا إليه ، ولا ملجأ منه إلا إلى حماه !

وينتهي هذا المطلع بحركة لطيفة من حركات القدرة في مجال الكون ، وفي أطواء الضمير :

« يوجل الليل في النهار ويوجل النهار في الليل . وهو علم بذات الصدور » . .

ودخول الليل في النهار ، ودخول النهار في الليل ، حركة دائبة ، وهي في الوقت ذاته حركة لطيفة سواء كان لللي طول الليل وأخذه من النهار ، وطول النهار وأخذه من الليل ؛ أو كان لللي مجرد تداخل الليل في النهار عند الغروب ، وتداخل النهار في الليل عند الشروق . . ومثل هذه الحركة في خفائها ولطفها ، حركة العلم بذات الصدور . وذات الصدور هي الأسرار للصاحبة لها ، التي لا تخارقها ولا تبرحها !

والشمور يد الله تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل ، في لطف ؛ ينشئ في القلب حالة من التأمل الرقيق ، والحساسية الشفيفة . كالشمور يعلم الله يتلطف في الاطلاع على ذات الصدور ، الساكنة في خبايا الصدور !

هذا المطلع بإيقاعاته تلك ، يدع القلوب في حساسة مرهفة للتلقى . ومن ثم يجيء المتأمل بها بالإيمان والبذل في أنسب أوان . وقد نمتحت مداخلها ، وتوفرت مشاعرها ، واستمدت الاستماع . وهنا يجيء ذلك المتأمل في المقطع التالي في السياق . ولكنه لا يجيء مجزئاً . إنما يجيء ومعه مؤثراته وإيقاعاته ولمساته :

« آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا بما جملكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير . ومالك لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا برسبكم ، وقد أخذ ميثاقكم ؟ إن كنتم مؤمنين . هو الذى ينزل على عبده آيات يثبت بها لىخرجكم من الظلمات إلى النور ، وإن الله بكم لرؤوف رحيم . ومالك ألا تنفقوا فى سبيل الله والله ميراث السماوات والأرض ؟ لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى ، والله بما تعملون خبير » . .

إن الله - سبحانه - يخاطب القلوب التى خلقها ، فهو يعلم أحوالها ، ويعرف مداخلها ، ويطلع على خوافيها . . وهو يعلم أن تقاء العقيدة ، وخلوص القلب ، واستقرار حقيقة الإيمان استقرارا تفيض منه آثاره وتأنجه فى واقع الحياة ، من بذل وتضحية وتقدمة خالصة لله . . أن هذا أمر يكلف الطاقة البشرية كثيرا ؟ ويحتاج منها إلى جهد ومجاهدة طويلة . ومن ثم يحشد لها هذه الإيقاعات وهذه اللؤثرات ؟ ويكشف لها عن الحقائق الكونية تراها وتتأثر بها ، وترن كل شىء بميزاتها الكبير الدقيق . وبإجلالها للذة ، والخطوة بعد الخطوة ؟ ولا يكملها إلى هتاف واحد ، أو بيان واحد ، أو مؤثر واحد يوقع على أوتارها ثم ينسحب . . ومنهج القرآن الإلهى فى علاج القلوب جدير بأن يحف الدعاء إلى الله أمامه طويلا ؟ ليتدبروه ويحاولوا أن يقلدوه !

إن الإيقاعات الأولى فى مطلع السورة من القوة والتوالى والمق والتأثير ، بحيث تزلزل القلوب الجالدة ، وتلين القلوب القاسية ، وتدعها مرهفة الحساسية . ولكن القرآن لا يكل قلوب المخاطبين إلى هذه اللمسات الأولى ، وهو يدعوهم إلى الإيمان والبذل فى الفقرة التالية . « آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا بما جملكم مستخلفين فيه » . .

والمخاطبون هنا هم مسلمون ، ولكنهم يُدعون إلى الإيمان بالله ورسوله . فهى إذن حقيقة الإيمان يدعوون لتحقيقها فى قلوبهم بمناها . وهى لفظة دقيقة . وهم يُدعون إلى الإشفاق ، ومع الدعوة لسة موجية . فهم لا ينفقون من عند أنفسهم . إنما ينفقون بما استخلفهم الله فيه من ملكة . وهو الذى « له ملك السماوات والأرض » . . فهو الذى استخلف بنى آدم جملة فى شىء من ملكة . وهو الذى « يحيى ويميت » . . فهو الذى استخلف جيلا منهم بعد جيل .

وهكذا ترتبط هذه الإشارة بما سبق من الحقائق السككية فى مطلع السورة . ثم تقوم هى

بدورها في استشارة الحجل والحياء من الله ، وهو المالك الذي استخلفهم وأعطاهم ، فإذا هم قائلون حين يدعوهم إلى إتفاق شيء ما استخلفهم فيه وما أعطاهم ؟ ! وفي نهضة النفوس عن الشبح ، والله هو المظى ولانفاد لما عنده ، فإذا يسكبهم عن البذل والمطاء ، وما في أيديهم رهن بمطاء الله ؟ !

ولكنه لا يسكبهم إلى هذا التذكير وما يشيره من خجل وحياء ، ومن مماحة ورجاء . إنما يخاطبهم بمؤثر جديد . يخبطهم من كرم الله ويطمعهم في فضله :

« فالذين آمنوا منكم وأتقوا لهم أجر كبير » ..

فكيف يتخلف متخلف عن الإيمان والبذل في مواجهة هذا الكرم والفضل ؟
غير أن القرآن لا يسكبهم إلى هذه اللامسات الأولى . إنما يلح على قلوبهم بموجبات الإيمان وموجباته من واقع حياتهم وملابساتها :

« وما لكم لا تؤمنون بالله ، والرسول يدعوكم لتؤمنوا برسبكم ، وقد أخذ ميثاقكم ، إن كنتم مؤمنين . هو الذي ينزل على عبده آيات يبينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور . وإن الله بسبكم لرؤوف رحيم » ..

لما الذي يوقهم عن الإيمان - حق الإيمان - وفهم الرسول يدعوهم إلى الإيمان . وقد بايسوه عليه وأعطوه ميثاقهم ؟ وما الذي يوقهم عن الإيمان بالله وهو ينزل على عبده آيات يبينات تخرجهم من ظلمات الضلال والشك والحيرة إلى نور الهدى واليقين والطمأنينة ؟ وفي هذا وذاك من دلائل الرأفة والرحمة بهم مافية .

إن نعمة وجود الرسول بين القوم ، يدعوهم بلغة السماء ، ويخاطبهم بكلام الله ، ويصل بينهم وبين الله في ذوات نفوسهم وخواص شؤونهم .. نعمة فوق التصور حين تتماها نحن الآن من بعيد .. فهذه الفترة - فترة الوحي وحياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فترة عحية حقا .. إن الله - جل جلاله - يخاطب هذا البشر من صنع يديه ، على لسان عبده - صلى الله عليه وسلم - وفي رحمة علوية ندية يقول لهم : خذوا هذا ودعوا ذاك ! ها هو ذا طريق فاسلكوه ! لقد تضررت خطاكم فماكم جبلي ! لقد أخطأتم وأتمت فتوبوا وما هو ذا بابي مفتوح . تمالوا ولا تشرودوا بعيدا ، ولا تنطوا من رحمتي التي وسعت كل شيء .. وأنت يا فلان - بذاتك وشخصك -

قلت كذا . وهو خطأ . ونويت كذا . وهو إثم . وضلت كذا وهي خطيئة . فقال هنا قدامى وتطهر وتب وعد إلى حمى . . وأنت يا فلان - بذاتك وشخصك - أأمرك الذى يضللك هذا كله . وسؤالك الذى يشغلك هذا جوابه . وعملك الذى عملت هذا وزنه !
إنه الله . هو الذى يقول . يقول لهؤلاء الخالق . وهم يعيشون معه . يحسون أنه معهم . حقيقة وواقعا . أنه يستمع إلى شكواهم فى جنح الليل ويستجيب لها . وأنه يراعى فى كل خطوة ويرعى بها . .

ألا إنه لأمر فوق ما يطيق الذى لم يش هذه الفترة أن يتصور . ولكن هؤلاء المخاطبين بهذه الآيات عاشوها فعلا . ثم احتاجوا إلى مثل هذا العلاج ومثل هذه الفسات ، ومثل هذا التذكير . . وهو فضل من الله ورحمة فوق فضله ذاك ورحمته . يدركها ويشعر بها من لم تتدبر له الحياة فى هذه الفترة السجية :

ورد فى صحيح البخارى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال يوما لأصحابه : « أى المؤمنين أعجب إليكم ؟ » قالوا : للثائكة . قال « وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم ؟ » . قالوا : فالأنياء . قال : « وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم ؟ » . قالوا : فحن . قال : « وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ ولكن أعجب للمؤمنين إيماننا قوم يعيشون بعدكم يجدون مصحا يؤمنون بما فيها » . .

وصدق رسول الله . إنه لأمر متفاوت . وإن موجبات الإيمان وموجبات لديهم لشيء هائل ، هائل ، عجيب عجيب . وهو يجب : ما لهم لا يؤمنون ؟ ثم يطلب إليهم تحقيق الإيمان فى نفوسهم إن كانوا مؤمنين !

ثم ينتقل بهم من موجبات الإيمان وموجباته إلى موجبات الإتيان وموجباته فى توكيد وتذكير :

« وما لكم ألا تتفوقوا فى سبيل الله ولله ميراث السماوات والأرض ؟ » . .

وفى هذه الإشارة عودة إلى حقيقة : « له ملك السماوات والأرض وإلى الله ترجع الأمور » . . لميراث السماوات والأرض ملكه وراجع إليه ، وما استخلفوا فيه إذن سيؤول إليه فى اليراث إنما لهم لا يتفوقون فى سبيله حين يدعوهم إلى الإتيان . وهو استخلفهم فيه كما قال لهم هناك . وكله عائد إليه كما يقول لهم هنا ؟ وما الذى يبق من دواعى الشح وهوائف البخل أمام هذه الحقائق فى هذا الخطاب ؟

ولقد بذلت الحفنة المصطفاة من السابقين ، من المهاجرين والأنصار ، ما وسعها من النفس وللإله ، في ساعة العسرة وقرة الشدة - قبل الفتح - فتح مكة أو فتح الحديبية وكلاهما اعتز به الإسلام أيام أن كان الإسلام غريبا محاصرا من كل جانب ، مطاردا من كل عدو ، قليل الأنصار والأعوان . وكان هذا البذل خلاصا لانتشوبه شائبة من طمع في عوض من الأرض ، ولا من رياء أمام كثرة غالبية من أهل الإسلام . كان بذلا منبثقا عن خيرة اختاروها عند الله ؛ وعن حمية لهذه العقيدة التي اعتنقوها وآثروها على كل شيء وعلى أرواحهم وأموالهم جميعا . . . ولكن ما بذلوه - من ناحية الكم - كان قليلا بالقياس إلى ما أصبح الدين جاءوا بعد الفتح علىكون أن يبذلوه . فكان بعض هؤلاء يقف يبذله عند القدر الذي يعرف ويسمع أن بعض السابقين بذلوه ؛ هنا نزل القرآن ليزن بميزان الحق بذل هؤلاء وبذل أولئك ، وليقرآن الكم ليس هو الذي يرجح في الميزان ؛ ولكنه الباعث وما يمثله من حقيقة الإيمان :

« لا يستوى منكم من أتقى من قبل الفتح وقاتل . أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا » . . .

إن الذي ينفق ويقاتل والعقيدة مطاردة ، والأنصار قلة ، وليس في الأفق ظل منعمة ولا سلطان ولا رخاء . غير الذي ينفق ويقاتل والعقيدة آمنة ، والأنصار كثرة ، والنصر والغلبة والقوز قريبة للنال . ذلك متعلق مباشرة بالله ، متجرد تجردا كاملا لاشبهة فيه ، عميق الثقة والطمأنينة بالله وحده ، بعيد عن كل سبب ظاهر وكل واقع قريب . لا يجد على الخير عوناً إلا ما يستمدّه مباشرة من عقيدته . وهذا له على الخير أنصار حتى حين تصح نيته ويتجرد تجرد الأولين .

قال الإمام أحمد : حدثنا أحمد ابن عبد الملك ، حدثنا زهير ، حدثنا حميد الطويل ، عن أنس ، قال : كان بين خالد ابن الوليد وبين عبد الرحمن ابن عوف كلام ، فقال خالد لعبد الرحمن : تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها ؛ فبلغنا أن ذلك ذكر للبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : « دعوا لي أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد - أو مثل الجبال - ذهباً ما بلعتم أعمالهم » (١) . .

(١) يتحدد من هذا الحديث معنى معين لأصحاب الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذين تكرر تحذيرهم بشأنهم . فهم أولئك السابقون . وقد كان يقول للسلميين حوله ومن صاحبه : « دعوا لي أصحابي... » فدل على أنه - صلى الله عليه وسلم - يرى صحة خاصة . . . كذلك قال في مرة عن الصديق - رضي الله عنه - : « دعوا لي صاحبي » . .

وفي الصحيح : « لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسى بيده لو أغرق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدكم ولا نصيفه » (١).

وبعد أن قرر القيم الحقيقية في ميزان الله لمؤلاء ولهمؤلاء عاد قرر أن للجميع الحسنى :
« وكلا وعد الله الحسنى » ..

فقد أحسنوا جميعاً ، على مخلوت ما بينهم في الدرجات .

ومرد ذلك التفاوت وهذا الجزاء بالحسنى للجميع ، إلى ما يملئه الله من تقدير أحوالهم ، وما وراء أعمالهم من عزائمهم ونواياهم . وخبرته تعالى بحقيقة ما يملكون :
« والله بما تعملون خير » ..

وهى لمسة موقظة للقلوب ، فى عالم النوايا للضمرة وراء الأعمال الظاهرة ، وهى التى تناط بها القيم ، وترجع بها الموازين ..

ثم مرحلة أخرى فى استجاشة القلوب للإيمان والبذل ، ومؤثرات أخرى وراء تلك المؤثرات :

« من ذا الذى يقرض الله قرصاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم ؟ يوم ترى المؤمنين وللؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم . بشراً كم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . ذلك هو الفوز العظيم . يوم يقول الناقون وللناقات للذين آمنوا : انظرونا نقتبس من نوركم . قيل : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا . فضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . ينادونهم : ألم نكن معكم ؟ قالوا : بلى ! ولكنكم فتنتم أنفسكم ، وتربصتم ، وارتبتم ، وغرتكم الأمانى ، حتى جاء أمر الله ، وغركم بالله الغرور . فالיום لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ، مأواكم النار هى مولاكم ، وبئس المصير » ..

إنه هتاف موح مؤثر آسر . وهو يقول للمباد الفقراء المهاجرين : « من ذا الذى يقرض الله قرصاً حسناً ؟ » .. ويجرد تصور المسلم أنه هو الفقير الضئيل يقرض ربه ، كفيل بأن يطير به إلى البذل طيراناً ! إن الناس ليتسابقون عادة إلى إقراض الثرى إلى منهم . وهم كلهم فقراء . لأن السداد مضمون . ولم الاعتزاز بأن أقرضوا ذلك الثرى إلى من فكيف إذا كانوا يقرضون

الفقير المحيد ؟

(١) انظر الهامشة السابقة .

ولا يكلمهم سبحانه - إلى هذا الشمو روحه ، ولكن يدمم على القرض الحسن ، الخالص له ، المجرد من كل تلفت إلى سواء . يدمم عليه الضعف في القدار ، والأجر الكريم بد ذلك من عند الله : « فيضاعفه له ، وله أجر كريم » .

ثم يمرض لهم صفحة وضئفة من ذلك الأجر الكريم ، في مشهد من مشاهد اليوم الذي يكون فيه ذلك الأجر الكريم .

« ولتشهد هنا بإجماله وتفصيله جديد - بين للشاهد القرآنية - وهو من للشاهد التي يحيا الحوار بعد أن ترسم صورتها للتحركة رسما قويا . فحين الذين قرأ القرآن اللحظة تشهد مشهدا عجيبا . هؤلاء هم المؤمنون وللؤمنات نراهم . ولكننا نرى بين أيديهم وبأيمانهم إشعاعا لطيفا هادئا . ذلك نورهم يشع منهم ويفيض بين أيديهم . فهذه الشخصوس الإنسانية قد أشرقت وأضاءت وأشعت نورا يتسند منها يرى أمامها ويرى عن يمينها . . إنه النور الذي أخرجها الله إليه وبه من الظلمات . والذي أشرق في أرواحها فقلب على طينتها . أم لعله النور الذي خلق الله منه هذا الكون وما فيه ومن فيه ، ^(١) ظهر حقيقة في هذه المجموعة التي حققت في ذواتها حقيقتها !

« ثم هانحن أولاء نسمع ما يوجه إلى المؤمنين وللؤمنات من تكريم وتبشير : « بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ذلك هو الفوز العظيم » .

ولكن الشهد لا ينتهي عند هذا النظر الطريف اللطيف . . إن هناك للناققين وللناقات ، في حيرة وضلال ، وفي مهانة وإهمال . وهم يتلقون بأذيال المؤمنين وللؤمنات : « يوم يقول الناققون وللناقات للذين آمنوا : انظرونا نقبس من نوركم » . . فحينما توجه أنظار المؤمنين وللؤمنات يشع ذلك النور اللطيف الشفيف . ولكن أنى للناققين أن يقتبسوا من هذا النور وقد عاشوا حياتهم كلها في الظلام ؟ إن صوتا مجهلا يناديهم : « قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا » . . ويبدو أنه صوت للتهكم ، والتذكير بما كان منهم في الدنيا من شقاق ودس في الظلام : ارجعوا وراءكم إلى الدنيا - إلى ما كنتم تعملون . ارجعوا فالنور يلتمس من هناك . من العمل في الدنيا - ارجعوا فليس اليوم يلتمس النور !

(١) للمعتقد الآن أن مادة الكون هي النور . وأنه مؤلف من ذرات . وأن القدرة في حقيقتها ليست سوى إشعاع . وقد تكون هذه النظرية أقرب النظريات إلى الصحة ، لأنها تيسر على دواب القرآن !

« وعلى الفور يفصل بين المؤمنين والمؤمنات والناقضات . فهذا يوم الفصل إن كانوا في الدنيا مختلطين في الجماعة : « ف ضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله المذاب » .. ويبدو أنه سور يمنع الرؤية ولكنه لا يمنع الصوت . فهام أولاء الناقضون ينادون المؤمنين : « ألم نكن معكم ؟ » .. فما بالنا افترق عنكم ؟ ألم نكن معكم في الدنيا نعيش في صعيد واحد ؟ وقد بشنا معكم هنا في صعيد واحد ؟ « قالوا : بلى ! » كان الأمر كذلك . « ولكنكم فتنتم أنفسكم » .. فصرختموها عن الهدى . « وتربستم » .. فلم تعزموا ولم تختاروا الحيرة الحاسمة . « وارتبتم » .. فلم يكن لكم من اليقين ما تمزمون به العزمة الأخيرة . « وغرتمكم الأماني » الباطلة في أن تتجوا وترجعوا بالذبذبة وإمساك العصا من طرفها ! « حتى جاء أمر الله » .. و انتهى الأمر . « وغركم بالله الغرور » .. وهو الشيطان الذي كان يطمعكم وينيككم . « ثم يستطرد المؤمنون في التذكير والتعزيز ، كأنما هم أصحاب الموقف المحكون فيه : « فالיום لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ، مأواكم النار هي مولاكم وبئس البصير » أم لعلها كلمة اللأطى ، أو نطق الله الكريم ..

« ونظر من ناحية التناقض القى في عرض للشهد ، فنبذ لاختيار مشهد النور في هذا الموضع بالذات حكمة خاصة . . إن الحديث هنا عن الناقضين والناقضات . . والناقضون والناقضات يخفون باطنهم . ويتظاهرون بنير مافي الضمير للكنون ، ويعيشون في ظلام من النفاق والدس والوقعة . والنور يكشف الخبوء ويضعف للستور . كما أنه الصفحة المتقابلة للوضيئة لصفحة النفاق المظلمة المطموسة . فهو ألقى شيء بأن تطلق أشعته على الشهد الكبير . وبأن ينير بين أيدي المؤمنين والمؤمنات وبأيمانهم ، بينا الناقضون في الظلام الذي يناسب ظلمات الضمير وظلمات الحفاء للستور ١ » (١)

وبعد فأى قلب لا يهفو لذلك النور في ذلك اليوم ؟ وأي قلب لا يستجيب لهتاف الإشراق والبذل تحت إيقاع تلك اللوحيات المميقة التأثير ؟

إنه القرآن يبالغ القلوب في ثبات واطراد ، ويدعوها دعاء العليم الخبير بطبيعتها ومدخلها ومسارها ؛ وما تستجيب له وما يؤثر فيها :

والشوط الثاني في السورة استطراد في الدعاء ، ومزيد من موحيات الاستجابة ، على هذا النهج ، وفي هذا الطريق . .

(١) عرض هذا العهد مأخوذ بصرف عن كتاب : « مشاهد القيامة في القرآن » .

« أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ آلِهِ، وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ، فَكَسَتْ قُلُوبُهُمْ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ؟ * أَغْلَوْا أَنَّ اللَّهَ يُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْأَيَّاتِ لَكُمْ تَعْقِلُونَ .

« إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يضاعفَ لَهُمْ، وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ، وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ، وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ .

« أَغْلَوْا أَنَا أَلْحِيَاءُ الدُّنْيَا لَيْسَ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصْغَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ، ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا، ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا، وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ . وَمَا أَلْحِيَاءُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ النُّورِ .

« سَأَيَقُولُ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ، وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ . ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

« مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ، وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ .

« لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ، وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ، وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ، وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ، فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ * ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا،

وَقَفَيْنَا يَحْيَى ابْنَ مَرْيَمَ ، وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ ، وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً
وَرَحْمَةً ، وَرَهَابِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ، فَمَا رَعَوْهَا
حَقَّ رِعَايَتِهَا ، فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ،
وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * لَيْسَ لَكَ أَهْلٌ
الْكِتَابِ إِلَّا يَتَذَكَّرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ، وَأَنْ أَلْفُضَلْ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ
يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » .

هذا الشوط امتداد لموضوع السورة الرئيسي : تحقيق حقيقة الإيمان في النفس ، حتى ينشق
عنها البذل الخالص في سبيل الله . وفيه من موحيات الإيمان ، ومن الإيقاعات المؤثرة ، قريب
كما اشتمل عليه الشوط الأول ، بعد ذلك للمطلع العميق للثير .

وهو يبدأ برنة عتاب من الله - سبحانه - للمؤمنين ، الذين لم يصلوا إلى تلك المرتبة التي
التي يريد الله لهم ؟ وتلويح لهم بما كان من أهل الكتاب قبلهم من قسوة في القلوب وفسق
في الأعمال ، وتحذير من هذا اللال ، الذي انتهى إليه أهل الكتاب بطول الأمد عليهم . مع
إطاعتهم في عون الله الذي يحيى القلوب كما يحيى الأرض بعد موتها .

فلذا انتهت هذه اللمسة تبعها لمسة أخرى - عالها العالم الآخر - وتكررت الدعوة إلى
إقراض الله قرضا حسنا ، مع بيان ما أعد الله لمن يقرضونه في الدنيا من الموض المضاعف
والأجر الكريم . . على نحو مما جاء في الشوط الأول .

ولمسة ثالثة بوضع قيم الدنيا كلها في ميزان الله إلى جانب قيم الآخرة . . حيث تبدو قيم
الأرض كلبا خفيفة الوزن ؟ وترجح كفة الآخرة ويبدو فيها الجذ الذي يستحق الاهتمام .
ومن ثم يهتف بهم ليسابقوا إلى قيم الآخرة . . في جنة عرضها كرمس السماء والأرض .
أعدت للذين آمنوا بالله ورسله .

ولمسة رابعة ترجع بهم من ساحة الآخرة إلى مامم فيه من واقع الحياة وأحداثها ، فتعلق

قلوبهم بقدر الله فيها . في السراء والضراء سواء . ومن ثم يهون عليهم البذل ، ولا يزددهم من أعراض الأرض شيء ؛ وترتبط أحاسيسهم كلها بالسراء .

وبعد ذلك يرض عليهم طرفا من تاريخ دعوة الله في الأرض ، تبدو فيه وحدة النهج ، واستقامة الطريق . وأن الذي يعيد عنه في كل عهد هم الفاسقون . ويلوح لهم بما كان من بعض أهل الكتاب كالوحي لهم في أول الشوط . ليتى من هذا إلى الهتاف الأخير لم يتقوى الله والإيمان برسوله ، ليؤتيهم كفلين من رحمته ، ويعمل لهم نورا يمشون به ويفسر لهم . بفضل الله ليس وقفا على أهل الكتاب كإزعمون . إنما هو بيد الله يؤتيه من يشاء » والله ذو الفضل العظيم » . .

وهكذا تكون السورة من أولها إلى آخرها مترابطة الحلقات ، في خط واحد ثابت ، تتوالى إيقاعاتها على القلوب ، متنوعة ومتشابهة . فيها من التكرار القدر اللازم لتعميق أثر الإيقاع في القلب ، وطرقه وهو ساخن بحرارة الإيقاع بعد الإيقاع !

« ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ؟ ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل ، فطال عليهم الأمد ، قصت قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون . اعلو أن الله يحيي الأرض بعد موتها . قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون » . .

إنه عتاب مؤثر من المولى الكريم الرحيم ؛ واستبطاء للاستجابة الكاملة من تلك القلوب التي أفاض عليها من فضله ؛ فبعث فيها الرسول يدعوها إلى الإيمان بربها ، ونزل عليه الآيات البينات ليخرجها من الظلمات إلى النور ؛ وأراها من آياته في الكون والخلق ما يصر ويهتد . عتاب فيه الود ، وفيه الحس ، وفيه الاستجابة إلى الشعور بجلال الله والخشوع لذكركه ، وتلقى ما نزل من الحق بما يليق بجلال الحق من الروعة والخشية والطاعة والاستسلام ، مع رائحة التنديد والاستبطاء في السؤال :

« ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ؟ » . .

وإلى جانب التحضيض والاستبطاء تحذير من عاقبة التباطؤ والتفاس عن الاستجابة ، ويأن لما ينشئ القلوب من الصدا حين يمتد بها الزمن بدون جلاء ، وما تنهى إليه من القسوة بعد اللين حين تغفل عن ذكر الله ، وحين لا تخشع الحق :

« ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل ، فطال عليهم الأمد . قمست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون » ..

وليس وراء قسوة القلوب إلا الفسق والخروج .

إن هذا القلب البشرى سريع الثقل ، سريع النسيان . وهو يشف ويشرق فيفيض بالنور ، ويرف كالشماع ؟ فإذا طال عليه الأمد بلا تذكر ولا تذكر تبلد وقسا ، وانطمست إشراقته ، وأظلم وأعتى ! فلا بد من تذكر هذا القلب حتى يذكر ويخضع ، ولا بد من الطرق عليه حتى يرق ويشف ؟ ولا بد من اليقظة الداعية كي لا يصيبه التبلد والقساوة .

ولكن لا بأس من قلب خد وجد وقسا وتبلد . فإنه يمكن أن تدب فيه الحياة ، وأن يشرق فيه النور ، وأن يخضع لله ذكر الله . فله عجي الأرض بمد موتها ، فتنبض بالحياة ، وتزخر بالثبوت والزهر ، وتمتع الأكل والثمار .. وكذلك القلوب حين يشاء الله :

« أعلوا أن الله يحيي الأرض بمد موتها » ..

وفي هذا القرآن ما يحيي القلوب كما يحيي الأرض ؛ وما يعدها بالفناء والرى والفناء :

« قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون » ..

ويتبع هذه اللمسة الحية ، وذلك الكتاب المحجل ، وذلك التذكير والتحذير ، بحافز جديد للبذل والفداء :

« إن الصديقين والمتصدقين ، وأقرضوا الله قرضا حسنا ، يضاعف لهم ولهم أجر كريم . والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون ، والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم ؛ والذين كفروا . وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم » ..

إن المتصدقين والمتصدقات لا يتفاضلون على أخذى الصدقات ، ولا يتماثلون في هذا مع الناس . إنما هم يقرضون الله ويتعاملون مباشرة معه . فأى حافز للصدقة أوقع وأعمق من شعور العطي بأنه يقرض التنى الحيد ، وأنه يتعامل مع مالك الوجود ؟ وأن ما ينفعه عطف عليه مضاعفاً ؛ وأن له بعد ذلك كله أجر كريم ؟

ومقام الصديقين مقام رفيع كما تصوره الأحاديث النبوية الشريفة . ومع علو هذا المقام فهو بفضل الله ميسور لمن أراد ، وليس وقفا على أفراد ولا على طائفة . فكل من يحقق إيمانه بالله . ورسله يطعم في هذا المقام الرفيع ، ولا حرج على فضل الله :

« والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون » ..

وتلك خاصية هذا الدين وميزته . إنه طريق مفتوح لجميع البشر ، وأفق يتطلع إليه الجميع ، ليس فيه احتكار للمقامات ، وليس فيه خصوصيات محجوزة لأناس بأعيانهم . وليس إلا العمل بصاحبه إلى أرقى الدرجات . إنه دين لا مجال فيه للطبقات المحفوظة للمقام !

روى الإمام مالك في كتابه « الموطأ » عن صفوان ابن سليم ، عن عطاء ابن يسار ، عن أبي سعيد الخدري ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من الشرق أو الغرب ، لتفاضل ما بينهم » .. قالوا : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يليقها غيرهم . قال : « بل والذي نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » ^(١) ..

فهذه لمسة الإيمان . فأما لمسة القضاء بقوله بعد ذلك :

« والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم » ..

والحديث عن مقام الشهداء ورد مرات في القرآن ، وتواترت به الأحاديث النبوية . فهذا الدين لا يقوم بغير حراسة ولا يتحقق في الأرض بغير جهاد . جهاد لتأمين القيدة وتأمين الدعوة وحماية أهله من الفتنة وشرائعه من الفساد . ومن ثم كان للشهداء في سبيل الله - وهم وحدهم الذين يسمون شهداء - مقامهم . وكان لهم قربهم من ربهم . القرب الذي يبر عنه بأنهم « عند ربهم » ..

جاء في الصحيحين : « أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل . فاطلع عليهم ربهم اطلاعة ، فقال : ماذا تريدون ؟ فقالوا : نحب أن تردنا إلى الدار الدنيا ففقاتل فيك فقتلنا أول مرة . فقال : إنى قد قضيت أمتهم إليها لا يرجعون » ..

وأخرج الشيخان وغيرهما عن أنس رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء - إلا الشهيد - ويتنحنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات ، لما يرى من الكرامة » .. وكذلك كانت تهون الحياة على من يسمع هذه اللوحيات ، ويعرف مقام الشهادة عند الله ..

(١) أخرجه الشيخان من حديث مالك .

روى الإمام مالك ... عن يحيى بن سعيد « أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رغب في الجهاد وذكر الجنة ، ورجل من الأنصار يأكل تمرات في يده . فقال : إني لحريص على الدنيا إن جلست حتى أفرغ منها ! فرمى ما في يده وحمل بسيفه حتى قتل . » . وقد روى أن هذا كان هو عير ابن الحناج عليه رضوان الله .

وبينا الصديقون في ذلك المقام والشهداء في هذا المقام يقول النص القرآني عن الكافرين للكافرين :

« والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم » . .

فمن ذا الذي يترك الكرامة والنعم ، ويختار أن يكون من أصحاب الجحيم ؟

والسمة الثالثة في هذا الشوط نجى تعقيا على دعوة الإيمان والبذل ، ودعوة القصد والتفضية . تعقيا يصور الدنيا كلها بصورة هزيلة زهيدة تهون من شأنها وترفع النفوس عنها ، وتعلقها بالآخرة وقيمتها :

« اعلوا أنما الحياة الدنيا لب وهو وزينة ، وتفاخر بينكم ، وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج قتره مصفرا ، ثم يكون حطاما . وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان . وما الحياة الدنيا إلا متاع الفرور » . .

والحياة الدنيا حين تقاس بمقاييسها هي وتوزن بموازنها تبدو في العين وفي الحس أمرا عظيما هائلا . ولكنها حين تقاس بمقاييس الوجود وتوزن بميزان الآخرة تبدو شيئا زهيدا تافها . وهي هنا في هذا التصوير تبدو لعبة أطفال بالقياس إلى ما في الآخرة من جد تنتهي إليه مصائر أهلها بعد لعبة الحياة !

لب . وهو . وزينة . وتفاخر . وتكاثر . . هذه هي الحقيقة وراء كل ما يبدو فيها من جد حافل وإهتمام شاغل . . ثم يحض يضرب لها مثلا مصورا على طريقة القرآن البديعة .. « كمثل غيث أعجب الكفار نباته » .. والكفار هنا هم الزراع . فالكافر في اللغة هو الزارع ، يكفر أى يحجب الحبة ويغطيها في التراب . ولكن اختياره هنا فيه تورية والإمحاء إلى إعجاب الكفار بالحياة الدنيا « ثم يهيج قتره مصفرا » للحصاد . فهو موقوف الأجل ، ينتهي عاجلا ، ويبلغ أجله قريبا « ثم يكون حطاما » . . وينتهي شريط الحياة كلها بهذه الصورة للتحركة المأخوذة من مشاهدات البشر المألوفة . . ينتهى بمشهد الحطام !

فأما الآخرة فلها شأن غير هذا الشأن ، شأن يستحق أن يحسب حسابه ، وينظر إليه ، ويستمد له : « وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان » .. فهي لا تنتهى في لمحة كما تنتهى الحياة الدنيا . وهى لا تنتهى إلى حطام كذلك النبات البالغ أجله .. إنها حساب وجزاء .. ودوام .. يستحق الاهتمام !

« وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » ..

لها هذا التمتع حقيقة ذاتية ، إنما يستمد قوامه من الغرور الخادع ؛ كما أنه يلهى وينسى فيتبى بأهله إلى غرور خادع .

وهى حقيقة حين يتعمق القلب في طلب الحقيقة . حقيقة لا يقصد بها القرآن العزلة عن حياة الأرض ، ولا إهمال عمارتها وخلقتها التى ناطقها بهذا الكائن البشرى ^(١) . إنما يقصد بها تصحيح المقاييس الشعورية والقيم النفسية ، والاستملاء على غرور التمتع الزائل وجاذيته للقيدة بالأرض . هذا الاستملاء الذى كان المخاطبون بهذه السورة في حاجة إليه ليحققوا إيمانهم . والذى يحتاج إليه كل مؤمن بعقيدة ، ليحقق عقيدته ؛ ولواقضى تحقيقها أن يضحى بهذه الحياة الدنيا جميعا . ومن ثم يدعوهم إلى السباق في ميدان السباق الحقيقى ، للنهاية التى تستحق السباق . النهاية التى تنتهى إليها مصائرهم ، والتى تلازمهم بمد ذلك في عالم البقاء :

« سابقوا إلى مغفرة من ربكم ، وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ، أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . والله ذو الفضل العظيم » ..

فليس السباق إلى إحراز اللهو واللبب والتفاخر والتكاثر بسباق يليق بمن شربوا عن الطوق ، وتركوا عالم اللهو واللبب للأطفال والصغار ؛ إنما السباق إلى ذلك الأفق ، وإلى ذلك الهدف ، وإلى ذلك الملك العريض : « جنة عرضها كعرض السماء والأرض » ..

وربما كان بعضهم في الزمن الحالى سيقبل أن تكشف بعض الحقائق عن سعة هذا الكون - يعيل إلى حمل مثل هذه الآية على الجواز ، وكذلك حمل بعض الأحاديث النبوية . كذلك الحديث الذى أسلفنا عن أصحاب الغرف التى يترأهاها سكان الجنة كما يترأون الكوكب الدرى الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب .. فأما اليوم ومراصد البشر الصغيرة تكشف عن الأبعاد الكونية الهائلة التى ليس لها حدود ، فإن الحديث عن عرض الجنة ، والحديث عن تراءى الغرف من بعيد ، ^(١) يرجع إلى تفسير قوله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » .. في سورة القاريات في هذا الجزء .

يقع قطعاً موقع الحقيقة القريبة البسيطة للصهودة ، ولا يحتاج إلى حمله على المجاز إطلاقاً ! فإن ما بين الأرض والشمس مثلاً لا يبلغ أن يكون شيئاً في أبعاد الكون يقاس ! وذلك الملك المريض في الجنة يلغى كل من أراد ، ويسابق إليه كل من يشاء . وعربونه : الإيمان بالله ورسله . « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » . « والله ذو الفضل العظيم » . . . وفضل الله غير محجوز ولا محجور . فهو مباح متاح للراغبين والسابقين . وفي هذا فليستابق المتسابقون . لا في رقعة الأرض المحدودة الأجل المحدودة الأركان !

ولا بد لصاحب العقيدة أن يتعامل مع هذا الوجود الكبير ؛ ولا يحصر نفسه ونظره وتصوره واهتمامه ومشاعره في عالم الأرض الضيق الصغير . . لا بد له من هذا ليؤدي دوره اللائق بصاحب العقيدة . هذا الدور الشاق الذي يصطدم بمقاربات الناس وأطباعهم ، كما يصطدم بضلال القلوب والتواء النفوس . ويأتي من مقاومة الباطل وتشبّه بعوضه من الأرض ما لا يصبر عليه إلا من يتعامل مع وجود أكبر من هذه الحياة ، وأوسع من هذه الأرض ، وأبقى من ذلك الفناء . . . إن مقاييس هذه الأرض وموازينها لا تمثل الحقيقة التي ينبغي أن تستقر في ضمير صاحب العقيدة . وما تبلغ من تمثيل تلك الحقيقة إلا بقدر ما يبلغ حجم الأرض بالقياس إلى حجم الكون ؛ وما يبلغ عمر الأرض بالقياس إلى الأزلى والأبد . والقارق هائل هائل لا تبلغ مقاييس الأرض كلها أن تحدده ولا حتى أن تشير إليه !

ومن ثم يبقى صاحب العقيدة في أفق الحقيقة الكبيرة مستعملاً على واقع الأرض الصغير . معها تضخم هذا الواقع وامتد واستطال . يبقى يتعامل مع تلك الحقيقة الكبيرة الطليقة من قيود هذا الواقع الصغير . ويتعامل مع الوجود الكبير الذي يتمثله في الأزلى والأبد . وفي ملك الآخرة الواسع العريض . وفي القيم الإيمانية الثابتة التي لاتهنّ لحلل يقع في موازين الحياة الدنيا الصغيرة الخادعة . . . وتلك وظيفة الإيمان في حياة أصحاب المقائد المختارين لتعديل قيم الحياة وموازينها ، لا للتماسك بها والخضوع لمتعضياتها . . .



ثم تحيى اللمسة الرابعة في إيقاع عقيق ، عن قدر الله ، الذي لا يكون سواه : « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها . إن ذلك على الله يسير . لكن لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ، والله لا يحب كل غثاء غفور . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد » . .

إن هذا الوجود من الدقة والتقدير بحيث لا يقع فيه حادث إلا وهو مقدر من قبل في تصميمه، محسوب حسابه في كيانه . . لا مكان فيه للصادفة . ولا شيء فيه جزافي . وقبل خلق الأرض وقبل خلق الأنفس كان في علم الله الكامل الشامل الدقيق كل حدث سيظهر للخلائق في وقته القدور . . وفي علم الله لا شيء ماض ، ولا شيء حاضر ، ولا شيء قادم . فكل التواصل الزمنية إنما هي معالم لنا - نحن أبناء القناء - نرى بها حدود الأشياء . فتحن لاندرك الأشياء بغير حدود تميزها . حدود من الزمان وحدود من المكان . نحن لانملك إدراك المطلق إلا في ومضات تصل فيها أرواحنا بذلك للمطلق ، عن طريق غير الطريق الذي اعتدنا في إدراك الأشياء . فأما الله - سبحانه - فهو الحقيقة المطلقة التي تطلع جملة على هذا الوجود ، بلا حدود ولا قيود . وهذا الكون وما يقع فيه من أحداث وأطوار منذ نشأته إلى نهايته كائن في علم الله جملة لاحدود فيه ولا فواصل من زمان أو مكان . ولكل حادث موضعه في تصميمه الكلي المكتشف لم الله . فكل مصيبة - من خير أوشر فاللفظ على إطلاقه اللغوي لا يختص بغير ولا بشر - تقع في الأرض كلها وفي أنفس البشر أو الخاطبين منهم يومها . . هي في ذلك الكتاب الأزلي من قبل ظهور الأرض وظهور الأنفس في صورتها التي ظهرت بها . . « إن ذلك على الله يسير » . .

وقية هذه الحقيقة التي لا يتصور البقل غيرها حين يتصور حقيقة الوجود الكبرى . قيمتها في النفس البشرية أن تنسكب فيها السكون والطمأنينة عند استقبال الأحداث خيرها وشرها . فلا تجزع الجزع الذي تطير به شعاها وتذهب معه حسرات عند الضراء . ولا تفرح الفرح الذي تستطار به وتفقد الأثران عند السراء :

« لكي لاتأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم » . .

فاتسام أفق النظر ، والتعامل مع الوجود الكبير ، وتصور الأزل والأبد ، ورؤية الأحداث في مواضعها المقدرة في علم الله ، الثابتة في تصميم هذا الكون . . كل أولئك يجعل النفس أفسح وأكبر وأكثر ثباتاً ووزانة في مواجهة الأحداث المابرة . حين تتكشف للوجود الإنساني وهي مارة به في حركة الوجود الكوني .

إن الإنسان يجزع ويستطار وتستغفه الأحداث حين يفصل بذاته عن هذا الوجود . ويتعامل مع الأحداث كأنها شيء عارض يصادم وجوده الصغير . فأما حين يستمر في تصوره وشموه أنه هو والأحداث التي تمر به ، وتمر بغيره ، والأرض كلها . . ذرات في جسم كبير

هو هذا الوجود . . وأن هذه الذرات كائنة في موضعها في التصميم الكامل الدقيق .
لازم بعضها بعض . وأن ذلك كله مقدر مرسوم معلوم في علم الله للكون . . حين يستقر هذا في
تصوره وشموره ، فإنه يحس بالراحة والطمأنينة لمواقع القدر كلها على السواء . فلا يأسى على فائت
أسى يضعفه ويزلله ، ولا يفرح بحاصل فرح يستغفه ويذهله . ولكن يحس مع قدر الله
على طواعية وفي رضى . رضى العارف المدرك أن ما هو كائن هو الذى يشئ أن يكون !

وهذه درجة قد لا يستطيعها إلا القليلون . فأما سائر المؤمنين فالمطلوب منهم ألا يخرجهم
الألم للفرء ، ولا الفرح بالسراء عن دائرة التوجه إلى الله ، وذكره بهمه وبتركه ، والاعتدال
فى الفرح والحزن . قال عكرمة - رضى الله عنه - « ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ، ولكن
أجلا الفرح شكرا والحزن صبرا » . . وهذا هو اعتدال الإسلام لليسر للأسوياء . .
« والله لا يحب كل غثال غفور . الذين يعثلون ويأمرون الناس بالبخل » . .

وجه الصلة بين الحقيقة السابقة وبين الاختيال والتغر ، ثم بين هذا وذلك وبين البخل
والأمر بالبخل ، هو أن من يشعر بأن كل ما يصيبه هو من أمر الله ، لا يختال ولا يفخر بما يملكه .
ولا يبخل ولا يأمر بالبخل فى عطاء . فأما الذى لا يشعر بتلك الحقيقة فيحسب أن ما يؤتاه من
مال وقوة ونجاه هو من كسبه فيفخر ويختال به ؛ ثم يخل كذلك ببذل شيء منه ، ويحث غيره
على البخل ليحقق مبدأه ومنهجه !

« ومن يتول فإن الله هو الذى الحميد » . .

فمن ينفق فإنما ينفق لنفسه ، ومن يستجب فإنما يستجيب لمصلحته . والله هو الذى شابهه من
حاجة إلى العباد المحاويج . والله هو الحميد بذاته فما يناله شيء من حمد الحامدين !



وفى النهاية يحىء القطع الأخير فى السورة ، يعرض باختصار خط سير ، الرسالة ، وتاريخ
هذه العقيدة ، من لدن نوح وإبراهيم ؛ مقررًا حقيقتها وغايتها فى دنيا الناس ؛ ملما بحال أهل
الكتاب وأتباع عيسى - عليه السلام - بصفة خاصة .

« لقد أرسلنا رسلا بالبينات ، وأزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأزلنا
الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب . إن الله قوى عزيز .
ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم ، وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب ، فمنهم مهتد وكثير منهم

فاسقون . ثم قفينا على آثامهم برسلنا ، وقفنا بعيسى ابن مريم ، وآتيناه الإنجيل ، وجعلنا في قلوب الذين آمنوه رافة ورحمة ، ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم ، إلا ابتداء رضوان الله ، فما رعوها حق رعايتها ، فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ، وكثير منهم فاسقون . .

فالرسالة واحدة في جوهرها ، جاءها الرسل ومعهم البينات عليها ، ومعظمهم جاء بالمعجزات الخوارق . وبضهم أنزل عليه كتاب . والنص يقول : « وأنزلنا معهم الكتاب » بوصفهم وحدة ، وبوصف الكتاب وحدة كذلك ، إشارة إلى وحدة الرسالة في جوهرها .

« والليزان » . . مع الكتاب . فكل الرسائل جاءت لتقر في الأرض وفي حياة الناس ميزانا ثابتا ترجع إليه البشرية ، لتقوم الأعمال والأحداث والأشياء والرجال ؛ وتقيم عليه حياتها في مأمن من اضطراب الأهواء واختلاف الأمزجة ، وتصادم المصالح والنافع . ميزانا لا يهاني أحدا لأنه يزن بالحق الإلهي للجميع ، ولا يحيف على أحد لأن الله رب الجميع .

هذا الميزان الذي أنزله الله في الرسالة هو الضمان الوحيد للبشرية من المواقف والزلازل والاضطرابات والحلقة التي تحيق بها في معترك الأهواء ومضطرب الواطئ ، ومصطبغ المنافسة وجب الذات . فلا بد من ميزان ثابت يثوب إليه البشر ، فيجدون عنده الحق والمدل والنصفة بلا محاباة . « ليقوم الناس بالقسط » . . فبغير هذا الميزان الإلهي الثابت في منبج الله وشريعته ، لا يهتدى الناس إلى المدل ، وإن اهتموا إليه لم يثبت في أيديهم ميزانه ، وهى تضطرب في مهب الجبال والأهواء !

« وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، ولعلم الله من ينصره ورسله بالقيوب » . . والتميز بأنزلنا الحديد كالتميز في موضع آخر بقوله : « وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج » . كلاهما يشير إلى إرادة الله وتقديره في خلق الأشياء والأحداث ، فهى منزلة بقدره وتقديره . فوق ما فيه هنا من تاسق مع جو الآية ، وهو جو تنزيل الكتاب والليزان ، فكذلك ما خلقه الله من شيء مقدر تقدير كتابه وميزانه .

أنزل الله الحديد « فيه بأس شديد » . . وهو قوة في الحرب والسلام « ومنافع للناس » . . وتكاد حضارة البشر القائمة الآن تقوم على الحديد . « ولعلم الله من ينصره ورسله بالقيوب » . وهى إشارة إلى الجهاد بالسلاح ؛ تجىء في موضعها في السورة التي تتحدث عن بذل النفس والمال .

ولما تحدث عن الذين ينصرون الله ورسله بالقيوب ، عقب على هذا بإيضاح معنى نصرهم

لله ورسله ، فهو نصر لتهجه ودعوته ، أما الله سبحانه فلا يحتاج منهم إلى نصر : « إن الله قوى عزيز » . .

ولما انتهى من تقرير وحدة الرسالة في جوهرها وكتابتها وميزاتها عاد يقرر وحدتها في رجالها ، فهم من ذرية نوح وإبراهيم .

« ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب » . .

فهي شجرة واحدة باسقة ، متشابهة الفروع ، فيها النبوة والكتاب . جمدة من بحر البشرية منذ نوح ، حتى إذا انتهت إلى إبراهيم ، تفرعت وامتدت وانبثقت النبوات من ذلك الفرع الكبير الذي صار أصلا باسقا يمتد إلى آخر الرسالات .

فأما الذرية التي جاءت النبوات والكتب فلم تكن على شاكله واحدة : « فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون » . .

وهو تلخيص قصير لذلك الخط الطويل !

وقرب نهاية الخط يهيء عيسى ابن مريم :

« ثم قمنا على آثارهم برسنا وتقمنا بعيسى ابن مريم » . .

أي على آثار السابقين من ذرية نوح وإبراهيم . فكانت الرسالة ممتدة واحدة على إثرواحدة حتى جاء عيسى ابن مريم .

ويذكر هنا صفة بارزة من صفات الذين اتبعوا عيسى ابن مريم : « وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رافة ورحة » . . وهم الثمرة الطبيعية لدعوة المسيح - عليه السلام - وروحها الشمعة وتطهرها الروحي ، وشفاقيتها الوضعية . والرافة والرحمة ظاهرة واضحة في المؤمنين حقيقة برسالة عيسى عليه السلام ، ممن أحسنوا اتباعه . وقد أشارت إليها آيات أخرى في القرآن الكريم ، كما حفظ منها التاريخ صوراً يرونها الرواة عن النجاشي وعن وفد نجران وعن أفراد ممن وفدوا على دار الإسلام بعد ظهوره راغبين في الإسلام ، بحكم ما استقر في قلوبهم من الحق ، مذ كانوا أتباع عيسى ابن مريم بحق .

كذلك يذكر النص هنا ظاهرة أخرى عرفت في تاريخ أتباع المسيح عيسى ابن مريم : « ورهبانية ابتدعوها - ما كتبناها عليهم - إلا ابتغاء رضوان الله » .

والراجح في تفسير الآية أن هذه الرهبانية التي عرفها تاريخ المسيحية كانت اختياراً من بعض أتباع عيسى عليه السلام ، ابتدعوها من عند أنفسهم ابتغاء رضوان الله ، وإبتعاداً عن أوضاع الحياة ، ولم يكتبها الله عليهم ابتداء . ولكنهم حين اختاروها وأوجبوها على أنفسهم صاروا مرتبطين أمام الله بأن يدعوا حقوقها ، ويحافظوا على مقتضياتها من تطهر وترفع ،

وقناعة وعفة ، وذكر عبادة . . مما يحقق في أنفسهم حقيقة التجرد لله ، التي قصدوا إليها بهذه الرهبانية التي ابتدعوها .

ولكنها انتهت إلى أن تصبح في الغالب طقوسا وشعائر خالية من الروح ، وأن يتخذها الكثيرون مظهرا عاريا من الحقيقة . فلا يصبر على تكاليفها إلا عدد منهم قليل :

« فما رعوها حق رعايتها . فأتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ، وكثير منهم فاسقون » . .
والله لا يأخذ الناس بالمظاهر والأشكال ، ولا بالطقوس واللسوح . إنما يأخذهم بالعمل والنية ، ومحاسبهم على حقيقة الشعور والسلوك . وهو الذي يعلم خبايا القلوب وذوات الصدور .

وبعد هذا العرض السريع يحىء الملتفات الأخير للذين آمنوا ، وهم الحلقة الأخيرة في سلسلة المؤمنين برسالة الله في تاريخها الطويل ؛ وورثة هذه الرسالة الذين يقومون عليها إلى يوم الدين :
« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ، ويجعل لكم نورا تمشون به ، ويفر لكم ، والله غفور رحيم . لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله ، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » . .

ونداؤهم على هذا النحو : « يا أيها الذين آمنوا » فيه لمسة خاصة لقلوبهم ، واستحياء لمعنى الإيمان ، وتذكير برعايته حق رعايته ؛ واستجابة للصلة التي تربطهم بربهم الذي يناديهم هذا النداء الكريم الحبيب . وباسم هذه الصلة يدعهم إلى تقوى الله والإيمان برسوله . فيبدو للإيمان المطلوب معنى خاص . . معنى حقيقة الإيمان وما ينبثق عنها من آثار .

اتقوا الله وآمنوا برسوله . . « يؤتكم كفلين من رحمته » . . أى يعطكم نصيبين من رحمته وهو تعبير عجيب . فرحمة الله لا تتجزأ ، ومجرد مسها لإنسان يمنحه حقيقتها . ولكن في هذا التعبير زيادة امتداد للرحمة وزيادة فيض . .

« ويجعل لكم نورا تمشون به » . . وهى هبة لدنية يودعها الله القلوب التي تستشعر نقواه ، وتؤمن حق الإيمان برسوله . هبة تثير تلك القلوب فتشرق ، وترى الحقيقة من وراء الحجب والحواجز ، ومن وراء الأشكال والمظاهر ؛ فلا تتخبط ، ولا تلتوى بها الطريق . .
« نورا تمشون به » . .

« ويفر لكم . والله غفور رحيم » . . فالإنسان إنسان معها وهب من النور . إنسان يقصر حتى لو عرف الطريق . إنسان يحتاج إلى اللطافة فتدركه رحمة الله . . « والله غفور رحيم » . .

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله » . . لتتألوا كفلين من رحمة الله . ويكون

لكم ذلك النور تمثون به. وتذكركم رحمة الله بالمغفرة من الذنب والتقصير.. « ثلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدر على شيء من فضل الله . وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء .. » قد كان أهل الكتاب يزعمون أنهم شعب الله المختار ، وأنهم أبناء الله وأحباؤه : « وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا » .. « وقالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى » .. فإله يدعو الذين آمنوا إلى استحقاق رحمته وحبته ومغفرته حتى يعلم أهل الكتاب أنهم لا يشدرون على احتجاز شيء من فضله ، وأن الفضل بيده يؤتيه من يشاء ، غير مقصور على قوم ، ولا محجوز لطائفة ، ولا محدود ولا قليل : « وإله ذو الفضل العظيم » ..

وهي دعوة فيها تحضيض واستجاشة واستثارة للسباق إلى الجنة والرحمة . تختتم بها السورة ختاماً يتناسق مع سياقها كله ، ومع الهتاف المكرر فيها لهذه القلوب كي تحقق إيمانها وتنجس لربها وتستجيب لتكاليف الإيمان في الأموال والأرواح . في تجرد وإخلاص .



وبعد فهذه السورة نموذج من النماذج القرآنية الواضحة في خطاب القلوب البشرية ، واستجاشتها بأسلوب عميق التأثير . وهي في بدئها وسياقها وختامها ؛ وفي إيقاعاتها وصورها وظلالها ؛ وفي طريقة تناولها للموضوع وسيرها فيه جولة بعد جولة ، وشوطاً بعد شوط .. هي في هذا كله درس بديع لأصحاب هذه الدعوة ، يعلمهم كيف يخاطبون الناس ، وكيف يوقظون الفطرة ، وكيف يستحيون القلوب !

إنها درس رباني من صانع القلوب ، ومنزل القرآن ، وخالق كل شيء بقدر . وفي هذه للدرسة الإلهية يتخرج الدعاة للمستجابون للوقوفون ...

تم الجزء السابع والعشرون وبليه الجزء الثامن والعشرون مبدؤاً بقوله تعالى « قد سمعنا الله »

Bibliotheca Alexandrina



0593927